أعلام المسلمين

٦٦

جمال الدين القاسمي

أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الدكتور نزار أباظة

دار القلم
دمشق

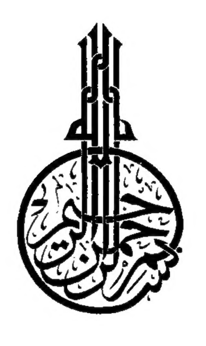
أعلام المسلمين
٦٦



أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام
١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الدكتور نزار أباظة

دار القلم
دمشق



﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ
بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ
أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

[يوسف ١٠٨]

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰــذَا الرَّجُــل

«الله يرضىٰ عليك كما رضي علىٰ الصدِّيق».

والــده

«وقد جمع إلى هذا الدأب والجد والنظام خصلة في حياته ربما كانت تميِّزه، وهي فضيلة الإقدام والإرادة».

ولــده

نال مجدين: مجد علم، وأصل فسمـا كـل ذي نجـاد أصيـل
قد زكت نفسه بروض فنون هي غرس المعقول والمنقول

أخوه صلاح الدين

«بيتُ شرفٍ وعلمٍ ومجدٍ وفضلٍ».

عبد الحفيظ الفاسي

«انفرد جمال الدين بفضائل أثيرة ومناقب كثيرة، وصبر لصدمات المهاجمين من متفقّهةٍ وقُصّاص ومخرِّفين، وكان له معهم مواقف حافظ فيها على سكينته ووقاره».

جميل العظم

«كان تقيّاً ناسكاً، واسع الحلم، سليم القلب، نزيه النفس واللسان والقلم، يأخذ ما صفا ويَدَع ما كدر».

السيد رشيد رضا

«كـان القـاسمي منـذ وعـىٰ على نفسـه يعمـل علـى تهذيبهـا، ولا يكـاد يمضي عليـه يوم لـم يَستفد منه فائـدة، ولـم يُقيِّد شاردة، فظهرت عليه مخايل النبوغ ولمّا يبلغ العشرين».

محمد كرد علي

«لم يكن له في سحر الحديث والمساجلة شبيه ولا قرين».

حسين الجارودي

أَجْمِلْ عَزَاءَكَ فالمصاب جليل ... والدمع في خَطْب الإمام قليل
جزعت دمشق وقد رأت علم الهدى ... يلوي به عادي الردىٰ فيميل
نَمْ يا جمال الدين غير مروَّعٍ ... إنّ الزمان بما ابتغيت كفيل
فستعرف الأجيال فضلك في غدٍ ... إن كان لم يعرفه هذا الجيل

جرجي حداد

فيا أيها الأستاذ نم بسلامة ... وقلبٍ ركين ثابت غير واجب
على السُّنَّة الغَرَّا التي قد سننتها ... غدا كل فردٍ سالكاً غير هائب

محمد بهجة البيطار

يا مقيماً مدىٰ الزمان بقلبي ... وبعيـدا بشخصـه عـن عيـانـي
أنت روحي إن كنت لست تراها ... فهي أدنى إليَّ من كلّ داني

عبد الرزاق البيطار

لله فـاجعـة الإمـام القـاسمـي ... ما كان أسوأ وقعها في العالَم
رزءٌ غدا في الدين أكبر ثلمة ... وأتىٰ لصرح العلم أعظم هادمِ
هو شيخنا وجمالنا وحبيبنا ... العالِمُ ابن العالِمِ ابن العالِمِ

جميل الشطي

«ليفعل أعدائي ما يريدون، فأنا أعتبر حبسي خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة».

«لقد رتبتُ خطةً أسير عليها لخدمة العلم وإرجاع مجد الإسلام والقيام بالرسالة التي ينبغي أن يقوم بها كل مصلح، وأهم أهدافها: بيان عظمة الإسلام، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وتنبيه الناس إلى ما دخل عليه من بدع وخرافات هي غريبة عنه».

جمال الدين القاسمي

المقـدّمـة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على سيدنا المصطفى، وعلى آله وأصحابه وأتباعه الراشدين الحنفا، الذين حملوا راية لا إله إلا الله محمد رسول الله وكفى.

وبعد:

فلعلي لا أبعد عن الحقيقة ولا أتجافى عنها إذا قلت إنّ جمال الدين القاسمي كان من أفراد عصره، فإنّ المطلع على سيرته ومجمل حياته ليدرك أنه امرؤ سبق زمانه بما حمل من فكر نيّر لا يشابهه ما كان عليه كثير من أعلام العصر، وبما ترك من نتاج غزير في عدده ومضمونه، تعجب كيف تَأَتَّىٰ له بالقياس إلى عمره القصير ومشاغله الكثيرة ومسؤولياته الجسيمة.

وأهم من هذا كله أنه كان حامل لواء التجديد في دمشق وما حولها على طريق الإصلاح الديني والدنيوي، وهو أحد دعاة النهضة العلمية التي تعتمد على تفتُّح الفكر والاجتهاد.

هذا الذي كنت أتمثَّله في ذهني حينما طُلب إليّ الكتابة عنه في سلسلة أعلام المسلمين، فأخذتني حماسة عظيمة، ودفعتني رغبة شديدة لتقديم دراسة عن عالم، تجلّي حياته حقبة من تاريخ دمشق

التي عُرفت بعلمائها الأعلام. فلما شرعت في تجميع المصادر وتصفُّح المراجع ومطالعة ما كُتب عن الرجل تهيَّبت العمل؛ إذ رأيت الأستاذ ظافر القاسمي رحمه الله كتب في أبيه سِفْراً ضخماً عنوانه «جمال الدين القاسمي وعصره» صدر سنة ١٣٨٥هـ=١٩٦٥م شقق فيه الحديث عنه وفصّل في سبعمئة صفحة. وما ظنك بأديب عالم يتحدث عن أبيه العلاَّمة الذي يحبه ويفاخر به بين الآباء والعلماء! يعينه على بحثه ما يتوافر لديه من وثائق تحتفظ بها الأسرة، ومن روايات يتناقلها أفرادها عن واسطة عقدها.

ثم جاء بعده الأستاذ محمود مهدي الإستانبولي فأخرج عام ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م كتابه «شيخ الشام جمال الدين القاسمي»، جمع غالب مادته من مشافهة تلميذه الشيخ حامد التقي رحمه الله، فأضاف أشياء جديدة، لم يذكرها الأستاذ ظافر الذي كان اطلع على مادة كتاب الإستانبولي، وكتب عليه ملاحظات أثبتها في حواشي أصوله.. وربما رأى ما في الكتاب لا يمثل سوى بعض من حياة والده، لا يعطي عنه الصورة الكاملة اللائقة.. فلم ينصح بطبع الكتاب، واستبقى أوراقه عنده، وعمل على تأليف كتابه المذكور معتقداً أنه أولى من الآخرين بالكتابة عن أبيه. لكنّ مدير المكتب الإسلامي في بيروت وقد جمعه مع الأستاذ الإستانبولي مشرب واحد، وضمّه وإياه رأي متفق قرر طبعه بعدما صارت الأصول بين يديه، وبعدما أعاد النظر فيه بعد مدة طويلة؛ إذ وجد في كتاب صاحبه ما ليس في كتاب الابن؛ لأنّ هذا يتحدث حديث الولد عن أبيه، وذاك يخبر بخبر التلميذ عن شيخه، ولكل منهما

منزع لا يتعارض مع الآخر، وهما كلاهما لزما جادة الحق واستمسكا بحبل الدقة.. مع أنهما تحليا بحلية العاطفة، وجاش قلبهما بالمحبة والإعجاب.

ومن قبلهما.. وفي سنة وفاة جمال الدين القاسمي كتب عنه صديقه السيد رشيد رضا على صفحات مجلة المنار كلمات جاءت مهمة على قلتها، لأنها تعطي المستعجل صورة سريعة عنه. وقد أورد فيها أشياء لم يذكرها غيره، تناولت أموراً جوهرية في حياة الشيخ القاسمي وفي دعوته وكتبه وأخلاقه.

وسألت نفسي: وماذا أقول بعدما قال هؤلاء؟ وماذا عساي أن أزيد على كلامهم في تفصيلهم وإجمالهم؟ وطال تساؤلي حتى كدت أعدل عن الدراسة كلها. بل صرفت نفسي عنها زمناً جاوز عشرة أشهر بعد أن قلبت المسألة على وجوهها، فوجدت رغبة في تركها.

ثم عدت فتتبعت ما كُتِبَ بعين أخرى جديدة متفحصة، فوجدت أشياء كثيرة تنقص الجميع.. تحتاج إلى الوقوف والنظر.. وجدتني بحاجة إلى الحديث عن عصر الرجل، وهو أمر ضروري في فهم حياته ومباعث تفكيره وأسلوب تصرفاته.. أحتاجه لأزينه بميزان ذاك العصر وأقيسه بمقاييسه ومن خلال الحياة العامة فيه، وأعارضه بالرجال المعاصرين له وبالأحداث القائمة من حوله، ولاستكمال الصورة؛ إذ من الخطأ بمكان أن يُحاسَبَ الإنسان بمنأى عن بيئته وزمانه، لأنه ابن تلك البيئة وذلك الزمان. ومن الخطأ كذلك أن يُنْظَر إليه مبتوتاً.

ووجدتني كذلك بحاجة إلى الكلام عن أسرته بأفرادها.. أصولها وفروعها.. واهتمامات هؤلاء الأفراد، ومكانتهم في مجتمعهم، وأثرهم فيمن حولهم.. ولأرى تأثر الشيخ الذي نعايشه على صفحات هذا الكتاب بأسرته ومناهجها، توافقه معها أو خروجه على أعرافها ومواضعاتها، أو إبداعه فيما أخذت فيه من خطة وفلسفة حياة.

ووجدتني كذلك أيضاً بحاجة إلى تكثيف البحث مستقلاً في دعوته، أساسها، أسلوبه فيها، ما لقي في سبيلها، وإلى أين وصل بها، وماذا هي بين الدعوات، وما هو في سلسلة من كانوا على مثل رأيه، أو كان على شاكلة آرائهم ممن سبقوه.

ثم وجدتني بعد هذا بحاجة ملحة إلى الوقوف المتأنِّي عند مؤلفاته، ما طبع منها وما لم يُطبع؛ فهي المادة الأولى والركيزة الأساسية في كل بحث عنه، تصور سجله العلمي وفكره ومنهاجه، وتعطي دفقاً يثري البحث.

ثم وجدتني مع هذا محتاجاً إلى الوقوف عند أصدقائه وتلامذته أو الصفوة منهم على الأقل، فهم بعض حياته وطرف من سيرته ومرآة قلبه، ولا بد من الإشارة إليهم بما يخدم الموضوع.

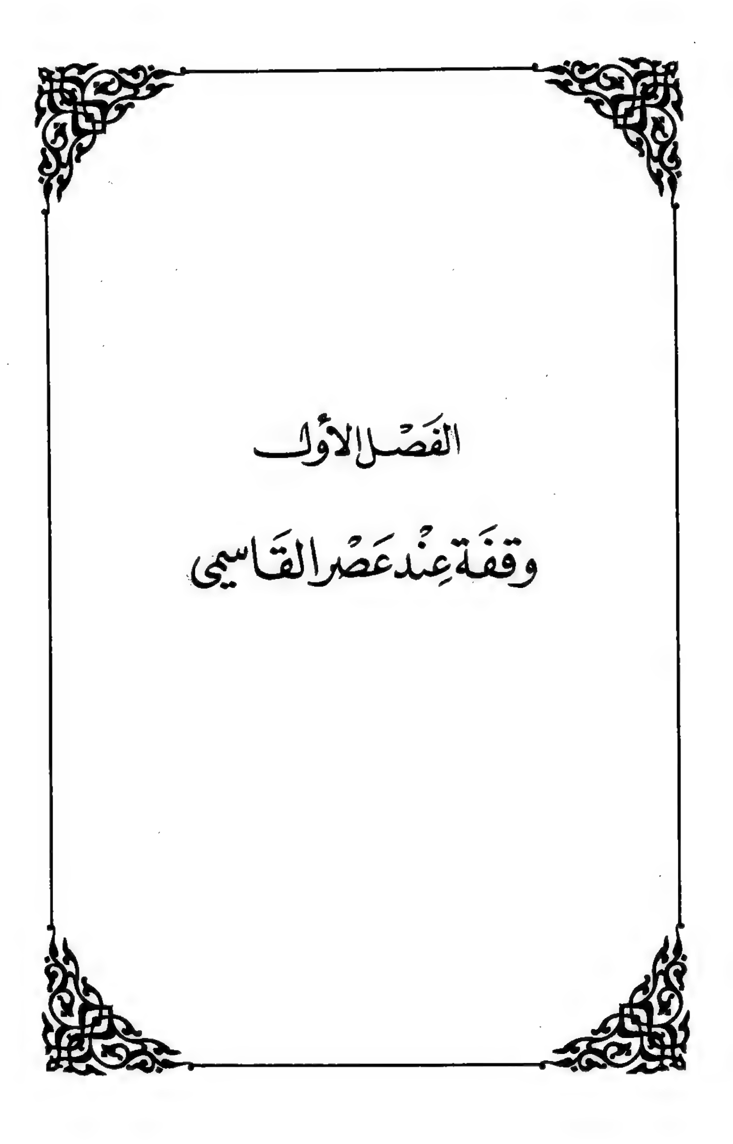
وأخيراً وجدتني بحاجة إلى ترتيبٍ مناسب أتبعه في سيرة الرجل على نحوٍ متسلسل، أظن أنني وفقت إليه التوفيق المطلوب، فأديت المادة منسقة، يسوق بعضها إلى بعض، من ألفها إلى يائها، ويمسك بعضها بزمام بعض، في كلياتها وجزئياتها.

وأزعم بعد ذلك كله، وبعدما أخذت عن هؤلاء كلهم وقد فصلني عن الشيخ رحمه الله زمن تراخى طوله، أنني سأجمع كلام الابن المحب.. وحديث الطالب المعجب.. ورأي الصديق الصدوق.. فأنظمه عقداً واحداً بخيط الحياد والمنهجية.. هو خيطي الذي أرجو أن ينظم السيرة. ولئن كررت بعض المعلومات على نحو معين فإن ذلك كان بسبب اقتضاء السياق.

أقدم هذا الكتاب راجياً أن يكون الصورة الكاملة المثلى لحياة محمد جمال الدين القاسمي ودعوته.. رحمه الله، ورحم أمثاله ممن جعلوا خدمة الإسلام ديدنهم، ونصبوها هدفاً من أهدافهم، لا يبتغون جزاءهم إلا من عند الله العلي القدير.

أسأل الله تعالى السداد والتوفيق. إنه نعم المولى ونعم النصير.

الدكتور نزار أباظة



الفصل الأول

وقفة عند عصر القاسمي

وقفة عند عصر القاسمي

يجب حين نؤرخ العصر القاسمي في دمشق وما حولها أن نبدأ من منتصف القرن التاسع عشر مع انسحاب الجيوش المصرية منها بقيادة إبراهيم بن محمد علي باشا، إذ كان ذلك بداية عصر جديد، تحولت فيه نظرة الدولة العثمانية إلى أسلوب الحكم، وطُرحت على الساحة أفكار مثل الحرية الفردية، وحقوق الفرد، وعدم التمييز بين أفراد الرعية وغير ذلك من الأمور التي لم يكن يُبحث فيها من قبل[١].

ولقد عاش القاسمي مرحلتين في زمن الدولة العثمانية، مرحلة السلاطين، والمرحلة التركية. أما الأولى فقد حكم فيها ثلاثة خلفاء هم عبد العزيز ومراد الخامس وعبد الحميد الثاني، وأما المرحلة الثانية فتسلّم زمام القيادة الحقيقية خلالها زعماء حزب الاتحاد والترقي أيام السلطان محمد رشاد.

وكانت جميع الولايات العربية أيام الخلفاء الثلاثة المذكورين تعد جزءاً من الامبراطورية العثمانية الكبرى، لها ما للولايات

---

(١) سورية في القرن التاسع عشر، عبد الكريم غرايبة، ١٠.

التركية من حقوق، وعليها ما عليها من واجبات، مع إعطاء شعوب الولايات العربية كامل الحرية في اللغة العربية وتعليمها بمدارسها بوصفها لغة القرآن الكريم والدين الإسلامي اللذين تعتز بهما السلطنة. وقد تقلد العرب في هذه المرحلة أرفع المناصب كمنصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) ومنصب شيخ الإسلام. وكانوا أعضاء في مجلس المبعوثين. فلما حكم الاتحاديون نادوا باللغة التركية الطورانية لغة رسمية لجميع الولايات، وحاربوا العربية، وأخذوا بسياسة التتريك، واعتقدوا بتفوق العنصر الطوراني[1].

وسأحاول في الورقات التالية وصف عصر القاسمي من النواحي السياسية والإدارية والعمرانية والاقتصادية والثقافية والدينية والاجتماعية، وصفاً موجزاً مما يفيد في فهم الرجل ودراسته.

الوضع السياسي والإداري:

تولى السلطان عبد العزيز الحكم عام ١٢٧٧هـ = ١٨٦١م فاهتم بخطط الإصلاح التي كان وضعها أبوه وأخوه، فبدأ بنفسه في إصلاح المالية، وآلى ألا يتزوج بغير امرأة واحدة وأبطل الإسراف في نفقات قصره، وتخلى عن جزء كبير من مرتباته. لكنه لم يلبث أن عاد إلى التبذير على أبشع صورة، فأصبح في قصره ٩٠٠ امرأة و٣٠٠٠ خادم وخادمة، وكانت تمدُّ فيه كل يوم ٥٠٠ مائدة يجلس إلى كل واحد منها ١٢ شخصاً. ولم تأت سنة

(١) النور والنار في مكتب عنبر، مطيع المرابط، ٢١.

١٢٩٢هـ = ١٨٧٥م حتى أعلنت الدولة إفلاسها رسمياً بعد أن بلغت ديونها ٤ مليارات فرنك أو ٢٠٠ مليون جِنيه استرليني. فتشكل عندئذ مجلس دين عام من الدول الأجنبية. وفي زمن هذا السلطان تأسس البنك العثماني، وهو شركة بريطانية فرنسية ساهمت أكثر من أي شيء آخر باستنزاف ثروات البلاد[١]. ومع أن أيام عبد العزيز كانت أياماً سعيدة على الشام إلا أنّ اضطرابات كثيرة قامت في أجزاء عديدة من الإمبراطورية كرومانيا وصربيا والبوسنة والهرسك وبلغاريا ومصر[٢]. ولم تربح الدولة منه سوى تأسيس نظارتي (وزارتي) المعارف والعدلية[٣].

وآل أمر عبد العزيز إلى انغماسه بلهوه وأفراحه، وترك الاهتمام بشؤون الدولة، ولم يعد ينفذ للوزارة أمراً، فتدهورت الأحوال وصار وضعه حرجاً بين رجاله، وعندئذ أخذ يفاوض امبراطور روسيا سراً ليحميه. فلما عرف ذلك وزراؤه تآمروا عليه وخلعوه بعد أن أصدر شيخ الإسلام فتوى، أثبت فيها عليه العته والجهل بالسياسة والإسراف، مما ساق المُلْكَ والمِلَّةَ إلى الخراب. وإذ ذاك صعب الأمر عليه فانتحر، وقيل قتل[٤].

وما أن تولى بعده مراد الخامس في ٧ جمادى ١٢٩٣هـ = ٣٠

---

(١) خطط الشام، محمد كرد علي، ٣/ ٩٥؛ سورية في القرن التاسع عشر، ٣٦.

(٢) خطط الشام، ٣/ ٩٦؛ سورية في القرن التاسع عشر، ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) خطط الشام، ٣/ ٩٧.

(٤) المرجع السابق، ٣/ ٩٨؛ سورية في القرن التاسع عشر، ٣٦ ـ ٣٧.

مايو/ أيار ١٨٧٦م حتى أصيب بمسّ في عقله ليلة مبايعته، ثم اشتد خلله بعد أيام، فخلعه أهل الحل والعقد بعد شهرين[١].

وبويع عبد الحميد الثاني في السنة المذكورة بعد أن تعهد بنشر القانون الأساسي، وتأليف حكومة دستورية[٢].

ضبط عبد الحميد النفقات وحددها، وألغى امتيازات والدة السلطان (كانت أمه ماتت وهو صغير) وتولى بنفسه إدارة الشؤون[٣] وقد قدر له أن يحكم بطريقة أثارت الكثير من التساؤل والنقد[٤]. ومع أن حكمه امتد ثلث قرن من الزمن إلا أن جزءاً كبيراً من الأراضي ضاع في أيامه، يزيد عن ٢٠٠ ألف كم٢، يسكنه ٧ ملايين نسمة من الرعايا؛ فقد انتزعت روسيا منه البوسنة والهرسك، واستقلت صربيا والجبل الأسود، وانسلخت جزيرة قبرص، وقضت معاهدة برلين عام ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م أن يتعهد السلطان بإصلاح مكدونية وكريت وأرمينية. وتحملت السلطنة لعهده غرامات جدّ باهظة[٥].

أعلن عبد الحميد ـ كما وعد ـ القانون الأساسي. وسارع بتأليف مجلس نيابي ومجلس للشيوخ سنة ١٢٩٢هـ = ١٨٧٦م، فخضعت بذلك السلطة التنفيذية للسلطة التشريعية التي تمثل

---

(١) خطط الشام، ٣/ ٩٩؛ سورية، ٣٧.

(٢) خطط الشام، ٣/ ٩٩.

(٣) المرجع السابق، ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠.

(٤) سورية، ٣٧.

(٥) خطط الشام ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠.

الشعب[1]. لكنه أسرع فأمر بتعطيل الدستور وإقفال المجالس عام ١٢٩٤هـ = ١٨٧٨ م لما حدث أخذ وردّ في مجلس النواب، وخاف من حدوث اضطرابات تؤثر عليه؛ فحنق عليه الضباط الذين كانوا يسمون بالأحرار، وخشي على نفسه عندئذ فأخذ يقوم بالاحتياطات اللازمة[2].

وقام بعض أولئك الأحرار يدعون سراً إلى إعادة الدستور، وأسسوا للوصول إلى مطالبهم جمعيات سرية تدعو إلى مناهضة الدولة، انتشرت في مصر والشام وأوربا، وكانت لها فروع في بعض الولايات العثمانية. وكان أهمها وأشهرها جمعية الاتحاد والترقي التي قويت دعوتها في الشام حوالي عام١٣١٤هـ=١٨٩٦م، وضمت أفراداً كثيرين[3]. وجمعية تركيا الفتاة، وجمعية الإصلاح، وجمعية العربية الفتاة، وجمعية المنتدى الأدبي، وجمعية العهد. وحزب الأحرار الشاهاني وكان جمال الدين القاسمي على صلة به لا نعرف مداها بالضبط، وكان له معرفة بوكيله في دمشق[4].

وقامت في دمشق جمعية النهضة العربية، ألفها سنة ١٣٢١هـ= ١٩٠٣م شباب مثقفون[5] دعوا إلى القومية العربية ونهضة العرب،

---

(١) سورية، ١٠.

(٢) خطط الشام، ٣/ ١٠٠ ـ ١٠١، سورية ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) خطط الشام، ٣/ ١١٥.

(٤) جمال الدين القاسمي وعصره، ظافر القاسمي، ٢١٦، (وسأشير إليه في جميع الحواشي القادمة باسم ظافر).

(٥) من ذكريات الحركة القومية العربية. مصطفى الشهابي، المجلة =

وكان من أعضائها محب الدين الخطيب وصلاح الدين القاسمي وعارف الشهابي وشكري الجندي وغيرهم، وقد استهدفوا بعث العروبة من رقادها من خلال برنامج سياسي محدود، قوامه مطالبة الدولة العثمانية بالنظام اللامركزي لضمان حقوق العرب في الحكم واعتماد لغتهم في الولايات العربية لغة رسمية[١].

ولقد مضى هؤلاء الشباب في برنامجهم واجتماعاتهم وشارك بعض أعضاء الجمعيات في مؤتمر باريس وكان لهم الفضل في إيقاظ الوعي وتوجيه الحركات الوطنية في الأقطار العربية، وكان منهم الأحرار الذين نَكَّل ببعضهم جمال باشا السفاح، وتابعوا مسيرتهم بعده ضد المستعمر[٢].

على أن هذا الوعي السياسي عند الشباب في عصرنا الذي نتحدث عنه كان يحفزه رجال مصلحون، حملوا أفكاراً تميزت من الأفكار السائدة في مصر، دعوا إلى التحرر والتفتح، كان على رأسهم طاهر الجزائري وسليم البخاري وعبد الرزاق البيطار وجمال الدين القاسمي وأمثالهم، والتحق بهم نخبة من الشباب المتوثب الذي حظي بالثقافة والعلم والأدب، ممن اشتهروا فيما بعد وكان لهم شأن معروف[٣].

= التاريخية المصرية، مج ٦/ ٤ ـ ٨.

(١) الدكتور صلاح الدين القاسمي: آثاره، محب الدين الخطيب، المقدمة.

(٢) من ذكريات الحركة القومية، المرجع السابق.

(٣) من ذكريات الحركة القومية، المرجع السابق.

واضطربت أحوال الولايات آنذاك، وكثر الفقر والقهر، وشقي الجنود، وفسدت الأخلاق، وانتشرت الرشاوى، وأخذ أحرار الضباط يبثون في الجنود روح الثورة ونادوا بالدستور وهددوا بالزحف على العاصمة، فلم يسع السلطان إلا إعادة العمل بالقانون الأساسي الذي توقف منذ ٣١ سنة. وبوشر عام ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م بانتخاب النواب وإطلاق حريات الاجتماع والقول والكتابة والنشر[١].

لكن عبد الحميد عاد بعد أشهر قليلة فأخذ يضغط على مناهضيه. وقام جماعة من أنصاره فألفوا الحزب المحمدي، دخل فيه أفواج، حتى قيل: إنّ من وقَّعوا على محضر الرضا بالدخول في سلكه بلغوا بدمشق وحدها ٧٠ ألفاً. واختار السلطان لبث دعوته الولايات التي لم تتأثر كثيراً بدعوة أحرار الضباط وثورة الجند كالشام مثلاً، فأخذ جماعة يهيجون العامة باسم الدين، ويغدقون الأموال عليهم ليطالبوا بتطبيق الأحكام الشرعية بحذافيرها وإبعاد بعض النواب وإسقاط الوزارة. وبعبارة أخرى بإبطال الدستور[٢].

وقتل في هذه السبيل أناس من النواب وغيرهم من الدستوريين وكثير من عامة الناس في شوارع العاصمة، لأن الجند الثائر كان يطلق النار في الفضاء إرهاباً، واغتيل كثير من الضباط الأحرار[٣]

(١) خطط الشام، ٣/١١٦.
(٢) خطط الشام، ٣/١١٨ ـ ١١٩.
(٣) المرجع السابق، ٣/١١٩.

ولكن الاتحاديين أهاجوا النفوس في الروم إيلي، فطالبت بعض ولاياتها التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور، وزحف الفيلق الثاني والثالث من أدرنه وسلانيك على الآستانة، فاستوليا على المواقع الحربية في العاصمة، وضربت أعناق بعض المشايخ، ونفي ١٥٠٠ رجل من الحاشية إلى اليمن والحجاز. وخلع السلطان عبد الحميد في ٧ ربيع الثاني ١٣٢٧هـ = ٢٧ أبريل (نيسان) ١٩٠٩م بفتوى من شيخ الإسلام، أثبت عليه فيها قتل الأنفس البريئة وسجنها وتعذيبها ومخالفة الشرع وحرق كتب الإسلام والتبذير في مال الأمة. وإذ ذاك حمل عبد الحميد منفياً إلى سلانيك(١).

---

(١) المرجع السابق. أقول: وقد اختلف المؤرخون في عبد الحميد، فبينما أفاض خصومه في تصوير نقائصه وفساده والنيل من قدراته، راح آخرون يعددون مزاياه. ويكفي عبد الحميد فخراً أن الذين انقلبوا عليه كانوا أسوأ منه وعملوا على إضعاف الدولة في سنوات قليلة حتى انقلبت إلى دولة هزيلة جداً، بينما قامت في عهده بإصلاحات شتى وتطورت في زمنه الدولة إلى أحسن بكثير مما كان في زمن سلفيه.
على أن وثيقة كشفت حقائق عن عبد الحميد ظهرت في الستينات. وهي رسالة أرسلها عبد الحميد إلى الشيخ محمود أبو الشامات أحد مشاهير علماء دمشق بيّن له فيها أن اليهود أغروه بالمال ليسمح لهم بالنزول في فلسطين وهم الذين عملوا على تدمير الخلافة، وهذا ما اتضح فيمابعد (انظر للتفاصيل مقالة سعيد الأفغاني في مجلة العربي العدد ١٦٩، ص ١٥٦، سنة ١٩٧٢) وقال عدنان الخطيب: «حتى إذا اعتلى العرش السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٦ حمّله رجال السياسة =

وبايع مجلس النواب والأعيان ولي عهده محمد رشاد الذي كان كما قيل ضعيف المدارك قليل المعلومات، وقد زاد في زمنه تسلط الاتحاديين الذين أخذوا كما قلنا يطبقون سياسة التتريك ويضطهدون العرب، فدعت الحال إلى تأسيس حزب «الأحرار المعتدلين» سنة ١٣٢٩هـ = ١٩١١م الذي ظهر بعد ذلك باسم حزب «الحرية والائتلاف» في العاصمة والولايات. ولم يحقق العهد الجديد بعد عبد الحميد ما كان يصبو إليه الناس من حرية. وتبين أن رجال الحكم المطلق كانوا أرحم بالعرب وأحرارهم من رجال الدستور الذين أخذوا يضطهدون العرب ويكبتون الحريات باسم الحرية والقانون.. وترحم الناس على أيام زمان.. وأدرك رجال الإصلاح المخلصون خطأهم عندما اعتقدوا أن مساوىء المجتمع كانت بسبب السلطان عبد الحميد، فصدِموا بما حدث بعد الدستور[1].

= وزر تخلف الدولة عندما أبى أن يكون ملكاً دستورياً فحسب، فقد كانت فيه نزعة إلى الاستبداد، وخشي أن يصبح ألعوبة بين أيدي وزرائه حُمّل وزر التخلف الموروث وكأنه من صنع يديه، وجارى مؤرخو القضية العربية رجال السياسة في ذلك، وقلَّ فيهم من جرؤ على إنصافه. وقد ثبت اليوم أن عبد الحميد وقف موقفاً حازماً تجاه أصحاب المطامع في تمزيق دولة بني عثمان والقضاء على وحدة الإسلام من أجل استخلاص فلسطين حلم الصهيونية الكبير». (الشيخ طاهر الجزائري، ص ١٨).

(١) ظافر، ٢٠٢؛ تاريخ سورية أواخر الحكم التركي، علي سلطان، ٤١؛ =

ولم ير الاتحاديون للخلاص من مخالفيهم أحسن من الاعتماد على القوة، فاغتالوا رجالاً في الآستانة، وحاولوا اغتيال بعض أعدائهم الأشداء في الشام من أرباب الأقلام فلم يفلحوا، وأقصوا من الخدمة كل من لم يوافقهم[1]. وتقاتل حزب الاتحاد والترقي مع حزب الحرية والائتلاف، فكانت الغلبة للاتحاديين، لأنهم كانوا دعاة الحرية الأُوَل، وكانت ترتيباتهم مُحْكَمَةً تشبه تنظيمات جمعية الماسونيين خاصة، ولأنهم قبضوا على قياد الأعمال وأخذوا بمخانق العمال[2]. وغصَّت سجونهم بالمظلومين، وكانت الأحوال صعبة جداً[3].

وثارت اليمن في هذا العهد سنة ١٣٢٩هـ=١٩١١م، فأرسلت الدولة جيشاً عظيماً إلى صنعاء وعسير، وأشعلتها حرباً قتل فيها خلق عظيم، وكان يدفن في تلك البلاد كل سنة من أبناء الشام نحو عشرة آلاف جندي، يهلكون بالأمراض والفتن والجوع. وقد دامت الحال على ذلك نحو خمسين سنة حتى عقد الصلح بين إمام اليمن والأتراك[4].

= سبب خلع السلطان عبد الحميد، وثيقة بتوقيعه فريدة تصرح بالسبب، سعيد الأفغاني، مجلة العربي، العدد ١٦٩، ص ١٥٠ وما بعد، ديسمبر ١٩٧٢.

(١) خطط الشام، ٣/١٢٦؛ تاريخ سورية، ٤١.

(٢) خطط الشام، المرجع السابق.

(٣) تاريخ سورية، ٤٢.

(٤) خطط الشام، المرجع السابق؛ تاريخ سورية، ٢٩.

ولم ترتح الامبراطورية سوى أشهر معدودة بعد إعلان القانون الأساسي إذ ظهرت فتن في كردستان وألبانيا وأدنة، وثارت حوران والكرك عام ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م. وسقطت طرابلس الغرب بيد الإيطاليين عام ١٣٢٩هـ=١٩١١م وأعلنت دول البلقان المتحدة الحرب على الدولة وجاءت بجيوشها إلى ضواحي الأستانة سنة ١٣٣١هـ=١٩١٢م، واقتتل الطرفان قتالاً شديداً هزم فيه الأتراك بعد أن كلفهم مئة ألف جندي بين قتيل وجريح وثمانين مليون ليرة.. ثم خرجوا مدحورين من البلقان[١] وفي سنة ١٣٣١هـ= ١٩١٣م طالبت جماعة من السوريين بينهم لبنانيون نصارى ومسلمون بالإصلاح، وقد كتب والي بيروت آنذاك كتاباً للدولة قال فيه: «تتجاذب القطر عوامل مختلفة، ولقد ولى قسم عظيم من الأهالي وجهه شطر إنكلترا أو فرنسا لإصلاح الحالة التعسة التي هم فيها، فإذا نحن لم نأخذ بالإصلاح الحقيقي يخرج من يدنا لا محالة». فأرسل الصدر الأعظم إلى الأهالي يطلب عرض مطالبهم، فاجتمع المجلس العام في بيروت، وانتخب ٩٠ عضواً، عقدوا جلستهم الأولى في السنة المذكورة، واختاروا ٢٥ عضواً، أطلق عليهم اسم اللجنة الدائمة، قدمت بياناً بالإصلاحات المطلوبة التي اتفق عليها أعيان المسلمين والمسيحيين، كما طلبت اللجنة توسيع سلطات المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب[٢].

(١) خطط الشام، ٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) خطط الشام، ٣/ ١٢٧.

ثم ذهب وفد من البيروتيين وغيرهم إلى باريس فعقدوا فيها مؤتمراً تضمَّن المطالبة بحقوق العرب السياسية، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً، وطلبوا إنشاء إدارة مركزية في كل ولاية عربية تنظر في حاجاتها وعاداتها وأن تنفذ لائحة الإصلاحات التي قدمتها اللجنة الدائمة المشار إليها. كما طالبوا بتعيين مستشارين أجانب وأن تعتبر اللغة العربية في مجلس النواب العثماني وتكون لغة رسمية في الولايات العربية وأن تجعل الخدمة العسكرية محليّة في الولايات العربية[1].

ولما علم الاتحاديون بذلك خافوا العاقبة وقبض والي بيروت على عدد من أعضاء الإصلاحيين، فأضربت المدينة أياماً، فأخرجوا من السجن. ثم بعث الاتحاديون أناساً إلى باريس وغيرها استرضوا أعضاء الوفد، وأطمعوا بعضهم بالوظائف الكبرى، ووعدوهم بالإصلاح المطلوب[2] الذي نفذ بعضه.

وتميزت تلك الفترة التي نحن بصددها باهتمام الدولة بالجيش واعتمادها عليه، وأنشأت لذلك المدارس العسكرية، كانت واحدة منها في دمشق التي كان كثير من أبنائها ضباطاً في مختلف الرتب وكذلك بيروت، مما أتاح لهم مركزاً وطنياً مرموقاً، وانتظمت حياتهم. أما الأفراد فكانوا كالعبيد يُجَرُّون إلى الخدمة الإجبارية

---

(١) خطط الشام، ٣ / ١٢٧.

(٢) خطط الشام، ٣/ ١٢٨.

جراً ويعاملون معاملة سيئة في حين ينجو من الخدمة بالرشوة أبناء الأغنياء[١].

وحكم دمشق على امتداد عمر القاسمي ١٩ والياً، اختلفت سيرتهم على ما يبدو عن سير من قبلهم من الولاة الذين كانوا لا يهتمون بغير جمع الأموال بقدر ما يمكنهم، ذلك لأن الدولة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي أخذت تبعث إلى الشام بأعاظم رجالها يتولونها، وكان فيهم المستقيم العفيف عن أموال الناس، العارف بأحوال السياسة والإدارة. وقد شهدت الشام في عهودهم شيئاً من الاستقرار السياسي والأمن بالقياس إلى الاضطرابات التي سبقت في العهود الماضية[٢].

كان أول هؤلاء الولاة محمد راشد باشا (١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م)[٣] الذي ولد القاسمي لعهده. ومن أبرزهم مدحت باشا (١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م)، وقد عرف بخدماته العظيمة لدمشق؛ أسس فيها مكتب (مدرسة) الصنائع، وأنشأ دار الكتب العمومية (الظاهرية) وعمر السوق المنسوب إليه، ووسع كثيراً من شوارع المدينة، كما أنشئت في أيامه دوائر العدلية والشرطة والدرك، وكان عزم على كشف

---

(١) تاريخ سورية، ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) انظر ولاة دمشق في العصر العثماني، صلاح الدين المنجد، منتخبات التواريخ لدمشق، تقي الدين الحصني ١/ ٢٦٩، وما بعد. خطط الشام، ٣/ ٩٦ ـ ٩٧، وانظر تاريخ آغا العبد، وحوادث دمشق اليومية؛ ففيهما أمثلة كثيرة عن الاضطرابات والفوضى في العهود السابقة.

(٣) منتخبات التواريخ، ١/ ٢٦٩.

نهر بردى من ساحة المرجة حتى باب توما وهدم الأبنية على أطرافه واكتنافه بشارعين عظيمين عن يمينه وشماله، فلم يتسع ذلك لزمنه[١]. قال محمد كرد علي: «أنشأ الطرق والمكاتب ونشط الصناعات والزراعة وضرب على أيدي المرتشين ونشر الحرية الشخصية، ولقن الحكام والمحكومين دروساً في الوطنية والشعور بالواجب. وكان يرجى للشام أن تسبق الآستانة في الحضارة بفضل إصلاحاته لو طالت أيامه وأيام غيره من الولاة المقتدرين»[٢].

ومن الولاة المذكورين حسن رفيق باشا (١٣١٢هـ= ١٨٩٤م)، شيد في أيامه مكتب (مدرسة) لتخريج المعلمين لمدارس الدولة[٣]، واهتم بإعادة عمارة الجامع الأموي بعد احتراقه عام ١٣١١هـ = ١٨٩٣م[٤]. وعمر طريق الأربعين في جبل قاسيون، ومدّ لعهده الخط الحديدي بين مزيريب والشام، ثم بين بيروت ودمشق[٥].

---

(١) منتجات التواريخ، ١/ ٢٧٢.
(٢) خطط الشام، ٣/ ١٠٣.
(٣) منتخبات التواريخ، ١/ ٢٧٢.
(٤) وقد أشار جمال الدين القاسمي في كتابه تعطير المشام (خ) إلى هذا الحريق، وإلى إعمار الجامع الذي نجز ترميمه عام ١٣٢٠هـ بتكاتف الدمشقيين من جميع أحياء المدينة، فكلف نحو ٧٠ ألف ليرة ذهبية عثمانية، تبرع بها الموسرون، وشارك الشباب بالعمل تطوعاً. انظر للتوسع: حريق جامع الأموي وبناؤه لمحمد مطيع الحافظ، والجامع الأموي لعلي الطنطاوي.
(٥) منتخبات التواريخ، المرجع السابق.

ومن هؤلاء الولاة حسين ناظم باشا (١٣١٣، ١٣٢٧، ١٣٣٠هـ = ١٨٩٥، ١٩٠٩، ١٩١١م)، أنشأ حي المهاجرين، وشجع على البناء فيه وسكنه، وأسس دائرة الحكومة (السراي) ومستشفى الغرباء (الوطني) وجلب ماء عين الفيجة إلى دمشق ووضع السبلان في الطرق[١]. وأنشأ خط البرق بين دمشق والمدينة المنورة، وجعل سقوف الأسواق الكبيرة من حديد لمنع سريان الحريق. وبنى الثكنة الحميدية (مقر الجامعة السورية فيما بعد)، وعمر سوق الخجا على طرف القلعة الغربي[٢]. وفيهم إسماعيل فاضل باشا (١٣٢٨هـ = ١٩١٠م) عمرت في أيامه مدرسة دار المعلمين في فناء التكية (ثم صارت بعدئذ معهداً للحقوق، ثم وزارة المعارف) ونظمت حديقة الأمة[٣]. وكان آخر الولاة لزمن القاسمي عارف المارديني، وفي ولايته تم تنظيم المعهد الطبي الذي كان ناظم باشا سعى إلى تأسيسه، كما فتح خط الجر والتنوير من الجسر الأبيض إلى جامع الشيخ محيي الدين، والخط المماثل الآخر من الجسر الأبيض كذلك إلى حي المهاجرين[٤].

ونظراً لأعمال هؤلاء الولاة شهدت دمشق وما حولها نهضة وتقدماً نسبيين، ظهرت نتيجتهما على سائر مجالات الحياة.

---

(١) ثم أزالتها لجنة مياه عين الفيجة فيما بعد.

(٢) منتخبات التواريخ، ١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٩.

(٣) المرجع السابق، ١/ ٢٨٣.

(٤) المرجع السابق، ١/ ٢٨٥.

ولم يكن القضاء في زمن القاسمي على درجة من الرقي، وقد جمد القاضون على حالة من الرتابة. وكان القاضي الأول الذي يرسل من الآستانة، لا يلبث أن يغير سريعاً[1] ولم يكن يخلو بعض موظفي القضاء من الجهل، وقد روي أن ناظر (وزير) العدلية زار مرة محاكم دمشق في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين فساءه جهل الموظفين، فسأل المفتي: أليس في دمشق علماء؟ قال: بلى. قال: فلماذا تسلمون الوظائف إلى الجهلة إذن؟[2] كما عرف شيء من الفساد آنذاك على نحو من الأنحاء في تلك المحاكم حتى إن بعض كبار الموظفين كان يطلب الرشوة[3].

الحالـة الاقتصاديـة والعمرانيـــة:

عاد الوضع السياسي والإداري المستقر بدمشق في المرحلة التي نتناولها، عاد على الحياة العامة بنوع من الاستقرار في الحالة الاقتصادية والعمرانية؛ قال محمد كرد علي: «ومما ينبغي أن يدون في أيامه [عبد الحميد الثاني] أن بعض الأمة انصرف إلى الزراعة والتجارة أكثر من الأدوار الماضية قبله في الشام؛ لأن الأمن استتب أكثر من القرن الماضي، وخفت وطأة الأشقياء الذين

(١) انظر أسماء القضاة على مر السنين بجانب أسماء الولاة في «ولاة دمشق في العصر العثماني» للمنجد.

(٢) شيخ الشام جمال الدين القاسمي، ص٤٣ (وسأشير إليه في جميع الحواشي القادمة باسم استانبولي).

(٣) المرجع السابق، ٨٠.

تتعقبهم الدولة، وطرق المواصلات البحرية والبرية زادت انتظاماً، وأخذت الشام تدخل في نظام الأمم الأوربية[1]». لكن الفوضى انتشرت وانعدم الأمن بعد خلعه، حتى كانت الدولة تعجز عن القضاء على هجمات البدو على القرى والقوافل، ومنع اللصوص من السطو والنهب[2].

وأنشىء حول دمشق في الزمن المشار إليه خطوط حديدية مهمة، مثلما زادت الخطوط في الامبراطورية، ومعظمها خطوط حربية، واتصلت حلب برياق، ودمشق ببيروت (١٣١٢هـ = ١٨٩٤م)، ودمشق بدرعا، ويافا بالقدس، وحيفا بدرعا، وطرابلس بحمص إلى غير ذلك من الخطوط التي نفعت الشام ولا سيما الخط الحديدي الحجازي بين دمشق والمدينة المنورة (١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م)، الذي كان له شأنه التجاري والديني معاً[3] فسهّل الانتقال بعد أن كان على الدواب ووفر الأوقات.

ودخل البرق (التلغراف) دمشق في أواخر العهد العثماني، وكانت أسلاكه تمتد من حلب حتى حوران، ثم توسعت الشبكة، فاحتفل عام ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م بتمديد الخط البرقي الحجازي الذي وصل إلى المدينة المنورة، وامتد فرع منه بين معان والعقبة. وفي ساحة الشهداء بدمشق (المرجة) نصب يمثل هذه الذكرى[4].

---

(١) خطط الشام، ٣/ ١٢٤.

(٢) تاريخ سورية، ٢٩ ـ ٣٥.

(٣) خطط الشام، المرجع السابق.

(٤) خطط الشام، ٥/ ٢١٧، سورية، ١٥٦، تاريخ سورية، ١٠٣.

وأُحدث الهاتف بالشام بعد إعلان القانون الأساسي خلال عام ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م وكان منحصراً بالدوائر الرسمية، ثم رخص للأهالي بالتمديد بعدئذ[١].

كما أنشىء البريد في مطلع القرن العشرين، وصار ينقل بالسيارات والسكك الحديدية. ومنذ عام ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م أنشئت الحوالات البريدية فالبرقية والطرود العادية فالمشروطة التأدية[٢].

ولقد نشطت تجارة دمشق خلال هذا العصر رغم جميع النكسات الاقتصادية التي حلت بها من جراء افتتاح قناة السويس ومنافسة البضائع الأجنبية، وكساد سوق البضائع الشرقية في أوربا[٣]. ذلك لأن دمشق بقيت طريقاً تجارياً لعدد من القوافل، أهمها قافلة الحج التي أدت إلى قيام نشاط تجاري كبير[٤]. كما وجد بدمشق آنذاك سبعون بيتاً تجارياً إسلامياً، رأس مال الواحد منها يزيد على مليون قرش (١٠,٠٠٠ ليرة عثمانية ذهبية). وكان فيها أكثر من سبعة آلاف دكان موزعة على أربعين سوقاً، تخصص كل منها بتجارة معينة[٥]. وعني الولاة بالأسواق كما رأينا واهتموا

---

(١) خطط الشام، ٥/ ٢١٩، تاريخ سورية، المرجع السابق.

(٢) خطط الشام، ٥/ ٢٢٠.

(٣) سورية، ١٤١.

(٤) قدرت نفقات الحجاج بدمشق إبان ازدهارها بأربعمئة ألف ليرة عثمانية ذهبية، سورية، ١٤٢؛ الروضة الغناء لنعمان قساطلي، ١٢٥.

(٥) سورية، ١٤٣.

بها، فهدمت بعد عام ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م مصاطب المخازن ووسعت الشوارع ورصفت ونظمت حركة سير العربات والمشاة ورشت يومياً بالماء وكانت تنظف ليلاً[(١)].

واشتهرت دمشق منذ القديم بصناعتها المتقنة، كالصناعات المعدنية الدقيقة والسيوف الدمشقية والقيشاني وأعمال الزجاج والخشب والنحاس والمنسوجات، ومن أشهرها ما عرف عند الغربيين باسم الدامسكو، وكانت مصانعها في دكاكين صغيرة غالباً حيث العمل يدوي وعدد العمال قليل[(٢)].

ولكن هذه الصنائع ضعفت وتلاشت، فهاجر صناع الدامسكو إلى أوروبا، وانقرضت صناعة السيوف والقيشاني وزخرفة البيوت فلم يبق إلا آثارها، بينما بقيت صناعة الدباغة والصياغة والحدادة والخياطة والبناء، وانحصر بعضها في طوائف معينة، وتناقص عدد الصناعات في دمشق من ١٩٦٦ صناعة في عام ١٢٦٩هـ=١٨٥٢م إلى ١٣٩٥ صناعة عام ١٣٠٧هـ = ١٨٨٩م وجرت محاولات لإحياء صناعة النقش على النحاس بحيث صدر منه آخر القرن التاسع عشر ما قيمته نصف مليون فرنك (٢٠ ألف جنيه استرليني)[(٣)] وبقيت صناعة النسيج أهم الصناعات الدمشقية، ولكن الأنسجة الحريرية عانت من غلاء المواد الخام ومنافسة البضائع الأوربية. وبلغ عدد أنوال النسيج في دمشق خلال العصر الذي نتحدث عنه

---

(١) سورية، ١٤٤.

(٢) تاريخ سورية، ٧٦، ٧٩؛ سورية، ١٤٥.

(٣) سورية، ١٤٥ ـ ١٤٦.

أكثر من ١٦,٠٠٠ نول غير أنوال العباءات[١].

وانتظم أصحاب الحرف الدمشقيون في نظام مشيخات الحرف الذي كان له أصوله، وتحول فيما بعد إلى نظام النقابات[٢].

ولم تستطع كثير من الصناعات الصمود في أواخر القرن التاسع عشر أمام المصنوعات الأوربية التي أخذت تغزو الأسواق السورية وخاصة المنسوجات، ولم تستطع القوانين العثمانية حمايتها، لأن ضرائب الجمارك كانت منخفضة، فانهار عدد من الصناعات وضعف، وباد بعضها. ومما زاد الطين بلة اعتماد عدد منها على المواد الأجنبية، مما سبب ارتفاع تكاليفها[٣].

وراجت التجارة السورية في هذا العصر لأسباب كان منها انتشار خطوط السكك الحديدية وذيوع الأمن، بالإضافة إلى رواجها من قبل بسبب كونها محطة كبرى ومركزاً مهماً من مراكز قافلة الحج.

ولئن كان كبار التجار من المسلمين فإن كبار تجار المسيحيين وبعض تجار اليهود أخذوا يسيطرون على التجارة الخارجية بفضل نظام الامتيازات الذي أقرته الدولة وحماية الدول الأجنبية لهم[٤].

---

(١) تاريخ سورية، ٧٩، سورية، ١٤٦.

(٢) سورية، ١٤٧؛ تاريخ سورية، ٧٧. ارجع إليهما للوقوف على تفصيلات دقيقة عن الحرف ومشيخاتها وتقاليدها.

(٣) تاريخ سورية، ٧٦ ـ ٨٥.

(٤) دمشق في مطلع القرن العشرين، أحمد حلمي العلاف، ٦٩، تاريخ سورية، ٢٨، ٩٠.

وكان التجار الدمشقيون على جانب كبير من الاستقامة والأمانة، تودع لديهم الأموال دون أن تؤخذ بها ورقة، وتجري الصفقات شفوياً فيما بينهم، لا يخل بها أحد. وقد أنشأت الحكومة العثمانية محكمة للتجارة بدمشق، لم يدخلها شاكٍ مدة ثلاث سنوات[1].

وظلت سورية محافظة على ميزانها التجاري الرابح حتى سبعينات القرن التاسع عشر بسبب اعتمادها على الصناعات اليدوية المشهورة. ثم أخذ هذا الميزان يتحول بالتدريج نحو الخسارة فالعجز[2].

لكن التجارة الداخلية والخارجية عادت فازدهرت قليلاً بعد أن افتتح البنك السلطاني العثماني فروعاً له في عدد من المدن السورية، وبعد أن أنشىء ميناء بيروت القريب من دمشق عام ١٨٩٤م. وزاد انتعاش التجارة مع مدّ خطوط السكة الحديدية في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. . وقد ازدادت أرباح هذه الخطوط مع الزمن، مما يفسر الصراع الذي قام بين الدول الأجنبية للحصول على امتيازات إنشاء السكك[3].

أما الطرق البرية فكانت مهملة، إذ تأخر دخول السيارات تقريباً إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. وكانت الدواب هي

(١) مذكرات البارودي، فخري البارودي، ٢/ ٢٤ ـ ٢٥.
(٢) تاريخ سورية ٩٢.
(٣) المرجع السابق، ١٠٠ ـ ١٠١.

المستعملة بالطبع للنقل والتنقل[1] وإذ عمل المسلمون في جميع الأعمال والمهن فإن بعض الطوائف من غيرهم عرفوا بتعاطيهم مهناً معينة كالخياطة والصرافة والبناء والنحاسة التي اشتغل فيها النصارى[2]. وكان جميع أصحاب الفنادق قبل إعلان الدستور من المسيحيين، وكانوا يسمون فنادقهم بالأسماء الأفرنجية. ثم أخذ المسلمون فيما بعد ينشؤون فنادق ويطلقون عليها أسماء عربية[3] وامتهن اليهود الصرافة وبيع الأمتعة المستعملة والطعام الرخيص، واشتغل قليلون منهم ببيع الأقمشة[4].

وقد ازدهرت الزراعة في هذا العصر ازدهاراً واضحاً وتطورت. فبقيت غوطة دمشق تمد المدينة وما يقرب منها من البلدات بالفواكه ولا سيما المشمش والقمرالدين، وكانت الزراعة في سورية المصدر الأساسي للثروة وكان أكثر من نصف السكان في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يعيشون على الزراعة، والحاصلات الزراعية كانت تشكل الحصة الأكبر من مجموعات الصادرات آنذاك[5]. وتراوحت الحاصلات بين الحبوب بأنواعها وخاصة القمح والقطن والزيتون والغابات. وازدهرت بجانب الزراعة تربية المواشي وخاصة الأغنام والأبقار والماعز، حتى

---

(١) تاريخ سورية، ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) تاريخ سورية، ٢٨.

(٣) مذكرات البارودي، ٢/ ١٠؛ تاريخ سورية، المرجع السابق.

(٤) دمشق في مطلق القرن العشرين، ٣٤؛ تاريخ سورية، المرجع السابق.

(٥) تاريخ سورية، ٦١ ـ ٦٨.

لقد كان فيها ثروة حيوانية لا بأس بها[1]. وبسبب أهمية الزراعة السوريـة فقد أسس فيها البنك الزراعي التركي عام ١٨٨٧م وكان له ١٥ فرعـاً في المدن وبلغ رأسمالـه عـام١٣٣٢هـ = ١٩١٤م ٢,٥ مليون دولار[2].

وعانى الاقتصاد في ولاية سورية عموماً من فوضى كبيرة في النقود، وذلك بتنوع العملات فيها، إذ راجت جميع أنواع النقود الفضية المعروفة كالريال والدولار والفرنك والجنيه والليرة العثمانية الذهبية والمجيدي الفضي والعملات النحاسية وتفرعاتها وغير ذلك من العملات التي تعرضت للخسارات بسبب فقدانها نسبة من وزنها بالاستعمال[3].

---

(١) تاريخ سورية، ٧٠ ـ ٧١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) كانت العملات العثمانية على النحو التالي:
الليرة الذهبية = ١٠٠ قرش، قيمتها = ١٠٢,٠٨٥٨ قمحة ذهب صافية.
العملات الفضية: المجيدي = ٢٠ قرشاً، قيمته ٣٠٨,١١٠٧ حبة ذهب.
البرغوث الكبير = قرشان.
البرغوث الصغير = قرش.
العملات النحاسية: البشلك = ٢,٥ قرش.
البارة = ١/ ٤٠ من القرش.
المتليك = ١٠ بارات.
النحاسة = ٢,٥ بارة.
عملات المعادن الأخرى: النكلة: أصغر وحدة نقدية كانت مستعملة.
وانظر قصة النقود السورية لعبد الرحمن عطار، تاريخ سورية، ١٠٤.

وكان لكل قطعة نقدية سعران؛ رسمي وفعلي. وعرف الفرق بين السعرين باسم الأكيو Agio. ثم حاولت الدولة العثمانية في مطالع القرن العشرين نشر العملة الورقية فأخفقت، ولم يتقبلها السوريون، وكانوا يصرون على التعامل بالنقد الذهبي. وكانت قيمة العملات في اضطراب وعدم استقرار إضافة إلى اختلافها بين المدن السورية، وكان كل مكان تحسب فيه الليرة مختلفاً عن الآخر[١].

وقد لعب اليهود دوراً مهماً في العملات وفي الإدارة المالية لولايات من الشام، وسيطروا على مالية دمشق، وبلغ من تسلطهم على خزانة والي دمشق أنهم نظموا حساباتهم بشكل لا يحل طلاسمها غيرهم، ليحافظوا بذلك على احتكارهم لهذه المهنة، واختلقوا الأزمات المالية، وتلاعبوا بأسعار العملات وخصوصاً أيام قدوم قافلة الحج، وعند اضطرار الفلاحين للمال في أيام المواسم الزراعية، فتعرضوا بسبب ذلك إلى حملة كراهية عنيفة، زادت بسبب سلوكهم العام[٢].

وأخيراً فلم تكن ولاية سورية في أواخر القرن التاسع عشر تعاني كثيراً من الضرائب، لكن الحكومة زادتها وأحدثت تسميات

---

(١) قصة النقود في السورية لعبد الرحمن عطار؛ تاريخ سورية، ١٠٤.

(٢) سورية، ٤٦ ـ ٤٧، يهود الشام منذ مائة عام، عبد القادر المغربي، مجلة المجمع العلمي العربي. مج ٩/ ٦٤١ ـ ٦٥٣.

مختلفة لها، حتى بلغت تسعة أنواع بحيث صارت باهظة، أرهقت عامة الناس[١].

الحيـاة الاجتماعيـة:

امتازت دمشق وما حولها بالتنوع البشري، ففيها جاليات قديمة من الأكراد والسريان والأتراك والتركمان والشراكسة والبوشناق (البوسنيين) والكريتيين والألبان والأرمن واليونانيين والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم من جميع الأقطار، وهؤلاء يتكلمون مجموعة ضخمة من اللغات الحية والميتة، ولهم عاداتهم الخاصة[٢]. هذا بالإضافـة إلـى وجـود عـدد من الـديانات المسيحيـة واليهوديـة بطوائفهما إلى جانب المسلمين بمذاهبهم وفرقهم المتعددة من أهل السنة والشيعة والجعفريين والمتاولة والدروز وغيرهم.

وقد خضعت مختلف نواحي الحياة في الشام لقواعد جامدة في ذاك العصر، جعلت الحياة اليومية رتيبة مملة قليلة التغير. وتقبل الناس بفتور ما وفد من مخترعات جديدة، فخافوا مثلاً من وابور زيت الكاز (الموقد المعروف) الذي رأوا أنه يؤثر على الطعام[٣]. وكانت وسائل اللهو والترفيه محدودة، شغل عدد من الدمشقيين بركوب الخيل والصيد، بينما تجمع كثير منهم في المقاهي لشرب القهوة وتدخين النراجيل ومشاهدة خيال الظل (القرجوز) أو لعب

---

(١) انظر تاريخ سورية، ١٠٦ ـ ١٠٨، ففيه تفصيلات حول هذا الموضوع.

(٢) سورية، ١٦.

(٣) المرجع السابق، ١٣٥.

النرد والضامة، أو الاستماع إلى سيرة عنترة من الرواي[1].

وكان للِّباس قواعد عامة حتى أواخر القرن التاسع عشر، فكان الرجل من عامة الناس يلبس قميص الكتان أو الحرير وسروالاً فوقه رداء آخر يدعى القنباز يصل إلى الركبتين، يليه رداء ثالث يصل إلى الكعبين يسمى الضلماية أو الدلماية، وهي مفتوحة من الأمام لها أزرار. ويربط حول خصره حزاماً من الشاش الفارسي أو الكشميري[2]. وكان الثري من الرجال يلبس فوق ما ذكر جبة مبطنة بنوع من الفراء، يختلف باختلاف مقامه أو ثرائه، واستعيض عنها في الصيف بعباءة من الحرير[3]. أما العلماء فكانوا يلبسون فوق القنباز المذكور الجبة المعروفة.

كان الرجل يلف على طربوشه أو قاووقه قطعة شاش أو موصلين طولها أكثر من عشرين ذراعاً. ويختلف لون الشاش باختلاف المذاهب والمراكز الاجتماعية فالخضرة للأشراف ومحرمة على غيرهم[4]. كما حرم على غير المسلمين العمامة البيضاء، واكتفى الدراويش بالطاقية، واستعمل الأكراد قليلاً من الشاش حول طاقيات مرتفعة[5]. وكان يعرف من لون القماش الملفوف على الطربوش وطريقة اللف حالة صاحبه إن كان إماماً أو خطيب

(١) سورية، ١٣٩؛ خطط الشام، ٦/ ٢٧٩.

(٢) سورية، ١٣٨.

(٣) المرجع السابق، ١٣٩.

(٤) مذكرات البارودي، ٢/ ١٠؛ سورية، ١٣٧، تاريخ سورية، ٢٧.

(٥) سورية، ١٣٧ ـ ١٣٨.

مسجد أو مغنياً أو من أصحاب الطريقة الرفاعية أو المولوية[(١)]، وتميز لباس أصحاب الطوائف والطرق الدينية والتجار والموظفين من سواهم[(٢)].

واتخذ المسيحيون لباساً مشابهاً لما ذكرنا، إلاّ أن ألوان قنابيزهم كانت تميل إلى الصفرة، كما كانوا يلفون مناديل على طرابيشهم. وكانوا فوق هذا يحلقون لحاهم ويطلقون شواربهم. ثم جعلوا يلبسون الثياب الأفرنجية[(٣)].

ولبس اليهود كذلك ثياباً مشابهة، لكنهم كانوا يطلقون لحاهم ويتخذون طرابيش قصيرة يسترونها بمناديل، ويربطون أكياس النقود في أعناقهم ويدخلونها في صدورهم، داخل الصدرية تحت الحزام خوف الضياع[(٤)] وكان للنسوة ثياب ساترة مسدلة، وكنّ يعتنين بالزينة قليلاً، لا تتجاوز زينتهن الحناء والكحل وتخطيط الحواجب، بالإضافة إلى اتخاذ الحلي الذهبية والفضية أطواقاً وأساور وخلاخل[(٥)].

وطرأ تغيير على الأزياء بظهور التفرنج في أواخر القرن التاسع عشر، فأقبل الناس على شراء المنسوجات الأوروبية، ولبس الموظفون

---

(١) تاريخ سورية، ٢٧.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) دمشق في مطلع القرن، ٢٤ ـ ٣٤، تاريخ سورية، ٢٨.
(٥) سورية، ١٣٩.

والشباب المثقفون الزي الأوربي، إلا أنهم لم يتخلوا عن الطرابيش، وتركوا لفّ الشاش عليها. بينما حافظ كثيرون على الزي التقليدي بعد إدخال تعديلات عليه، أدت إلى تبسيطه، فانخفضت تكاليفه(١).

لكن التغيير الأهم كان في زي النساء اللواتي هجرن ثيابهن القديمة بسرعة، وأقبلن على الأقمشة الأوربية بعد أن كانت أكثر ملابسهن من الحرير والقطن والكتان(٢).

وكانت المرأة خلال العصر الذي نتحدث عنه منزوية في بيتها، لا تمارس أي نشاط مهم، ولا تأخذ حظها من التعليم، وقد حرمتها التقاليد الجارية بعض حقوقها التي أعطاها إياها الشرع. وكانت فوق ذلك مهملة، إلى درجة أن بعض الرجال لم يكونوا يعرفون أسماء بناتهم ولا عددهن، وكان ذكر اسم الزوجة أو الأم أمراً معيباً مخجلاً عند الكثيرين. وعقاب من يعترض النساء عسير. وكان من التقاليد أن تسير المرأة خلف الرجل بخطوات في أثناء ذهابهما إلى مكان ما، وقلما تسير المرأة منفردة وخاصة في الليل. ولا تنادي زوجها باسمه بل تكنيه بكنيته، وتنادي أباها وجدها بكلمة سيدي. وكان للبنات الصغيرات أماكن مستورة للعبهن بعيداً عن أماكن الصبيان(٣).

وسادت المجتمع في ذاك العصر علاقات القرابة التي كان ينتج

---

(١) سورية، ١٣٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) دمشق في مطلع القرن، ٤٩؛ تاريخ سورية، ٢٣؛ ظافر، ١٩٣؛ المقتبس ع ٤٧٦، ٧ أيلول ١٩١٠.

عنها العشائرية أو الطائفية أو الأسرية، أكثر من المفاهيم الطبقية التي تقسم المجتمع إلى طبقات اقتصادية. وقام صراع بين الأسر الكبيرة ذات السلطة والجاه والنفوذ من أجل الحصول على المراكز المهمة والزعامة في الدولة والمجتمع كأسرة العابد والعظمة واليوسف في دمشق[١].

وكان السلطان عبد الحميد الثاني يبادل الود كثيراً من السوريين ويقربهم كعزة باشا العابد ثاني أمنائه[٢]، وأبي الهدى الصيادي شيخ مشايخ الإسلام في استانبول[٣]. وكان شيخه في الطريقة الشاذلية

---

(١) مذكرات محمد كرد علي، ١/ ٨٠؛ تاريخ سورية، ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) أحمد عزة العابد من مشهوري الساسة، ولد بدمشق سنة ١٨٥٥م وتعلم بها وببيروت وأجاد الفرنسية والتركية، وعين مفتشاً للعدلية بسورية، أصدر جريدة بالعربية والتركية سماها دمشق، وخدم السلطان عبد الحميد وصار مستشاره الأقرب، وكان السلطان شديد الخشية من أوربا فأعانه العابد على انتهاج سياسة تحول دون اتفاق الدول الأوربية عليه. وهو الذي سعى إلى إنشاء سكة الحديد الحجازية. غادر البلاد العثمانية بعد انقلاب سنة ١٣٢٦هـ وخلع السلطان، فرحل إلى لندن ثم جعل ينتقل بين بلاد أوربا حتى استقر أخيراً في مصر وتوفي بها سنة ١٩٢٤م ونقلت جثته إلى دمشق (الأعلام ١/ ١٦٩ ـ ١٧٠).

(٣) محمد بن حسن وادي الصيادي الرفاعي الحسيني، أشهر علماء الدين في عصره، ولد في بلدة خان شيخون (قرب معرة النعمان) وتعلم بحلب وولي نقابة الأشراف فيها، ثم سكن الآستانة واتصل بالسلطان عبد الحميد، فقلده مشيخة المشايخ، وحظي عنده، فكان من كبار ثقاته واستمر في خدمته ثلاثين سنة تقريباً. فلما خلع السلطان نفي أبو الهدى =

محمود أبو الشامات الدمشقي[1]. ومن هنا ربما كان عبد الحميد يعطف على العلماء وخاصة في دمشق[2].

وأخذت الأسر في ذلك العصر تبحث عن أنسابها، وذلك لأن المنسوبين إلى آل البيت كانوا يحصلون على ميزات ربما ترفعهم إلى مقام السلطة، في ذاك الجو الذي سادت فيه الروح الدينية[3].

واشتهر بعض الوجهاء المتنفذين ممن لا ينتسبون إلى الأسر الكبرى بحصولهم على زعامات شعبية، وكان هؤلاء الزعماء يقفون

= إلى جزيرة الأمراء في (رينكيبو) فمات فيها سنة ١٩٠٩م. كان من أذكى الناس وله معرفة بالأدب وظرف وتصوف، وصنف كتباً كثيرة شكّ الزركلي في نسبتها إليه. وكانت له الكلمة العليا عند عبد الحميد في تنصيب القضاة والمفتين. وله شعر. ومدحه شعراء عصره وهجاه بعضهم (الأعلام ٦/ ٩٤).

(١) محمود بن محيي الدين أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية بدمشق ولد فيها سنة ١٢٦٦هـ ولازم أكابر علمائها كعبد الغني الميداني وأمين البيطار ومحمد تللو وقاسم الحلاق القاسمي وأخذ الطريقة الشاذلية على نور الدين علي اليشرطي المغربي نزيل دمشق، وأذن له في نشر الطريق، وخلفه من بعده، له نثر لطيف ونظم على طريقة القوم، وله عدد من المؤلفات منها شرح التائية الكبرى (٤ مجلدات) ورسالة في لبس الخرقة، والسر المكتم في معرفة الاسم الأعظم، مولد على لسان القوم، كان كريم الخلق من نوابغ العصر. توفي بدمشق سنة ١٣٤١هـ ودفن في زاويته بها. (تاريخ علماء دمشق ١/ ٣٩٣).

(٢) تاريخ سورية، ٢٤.

(٣) تاريخ سورية، ٢٤.

أنفسهم لحماية الطبقات الشعبية، ويجمعون حولهم أنصاراً من سكان الأحياء من (القبضايات)، أو (الزغرتيّة) وكانت السلطة والأسر تحاول كسب رضى هؤلاء الذين كانوا يتبنون عادات عربية أصيلة كالشهامة والكرم والمحافظة على الجيران وتقديم النجدة والدفاع عن المظلومين، ويقفون في وجه رجال الدولة عند اعتدائهم. وكان لكل وجيه أو أسرة متنفذة مجموعة من أولئك الرجال تعمل في خدمتها كأنها سلطة تنفيذية. وكانت قوة الأسر تقاس بقوة رجالها وعددهم[١].

وظهر على صفحة المجتمع آنذاك تقسيم طائفي واضح في دمشق وغيرها من المدن السورية، إذ كانت أحياء المسلمين منفصلة عن أحياء النصارى واليهود. وكان في حلب حي للأرمن. وقد ادعت الدول الأوربية على الدولة العثمانية أنها لا تعامل المسيحيين المعاملة اللائقة، وأعلنت من أجل ذلك تدخلها لحمايتهم[٢].

بقي أن نقول: إن هذا المجتمع كان يستعمل التوقيت العربي الذي يبدأ فيه اليوم بعد غياب الشمس، وبقيت الأحوال كذلك حتى منتصف ليلة ١٣ مارس/آذار ١٩١٢ حين غيرت الساعة إلى التوقيت الغربي الذي يبدأ اليوم فيه من منتصف الليل. وقد أوجد

---

(١) أوراق فخري البارودي بمركز الوثائق التاريخية بدمشق، قسم خاص، رقم ٥٩، إضبارة رقم ٥، صفحات بلا أرقام؛ تاريخ سورية، ٢٥؛ دمشق في مطلع القرن، ٢٤٤.

(٢) تاريخ سورية، ٦، ٢٥.

هذا التغيير في بدايته متاعب واختلافات في توقيت الأحداث[1]. أما لماذا غيرت الساعة فهذا يحتاج إلى بحث، ولكن الأمر حدث في أيام الاتحاديين.

الحالـــة الثقافيـــة والدينيـــة:

بدأت في عصر القاسمي بدمشق وما حولها نهضة علمية ثقافية على المستوى العام، تعد نقلة نوعية بالنظر لما مضى من أيام. وقد تجلى ذلك بتأسيس المدارس الحكومية وظهور المطابع وإنشاء دور الكتب. وقد كان للشيخ طاهر الجزائري ـ أحد رجالات الإصلاح المتنورين أثره العظيم في دفع الحركة الثقافية بدمشق[2]،

---

(١) سورية، ١٦٠.

(٢) طاهر الجزائري بن صالح: بحاثة من أكابر علماء اللغة والأدب والمخطوطات في عصره، هاجر أبوه من الجزائر، وولد هو بدمشق سنة ١٨٥٢م، ولما نشأ دخل المدرسة الجقمقية وتخرج بعبد الرحمن البستاني، ثم لازم الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني حتى وافاه الأجل، وكان شيخه هذا معروفاً بوقوفه على لباب الشريعة وأسرارها وببعده عن البدع والأوهام وحب الظهور، فنشأ تلميذه مثله قد وعى إلى جانب العربية والفقه علوم الرياضيات والطبيعة، وأتقن الفارسية والتركية، وتعلم الفرنسية ومبادىء السريانية والعبرية والحبشية، وكان يعرف البربرية، وتعلم كثيراً من الخطوط القديمة كالكوفي والمشجر والعبراني وغيرها. تولى أول أمره التعليم وشارك في تأسيس جمعية علمية اجتماعية مع بعض العلماء والوجهاء دعيت (الجمعية الخيرية) دفعاً لشبهة العمل السياسي. ثم التقى بالوالي مدحت باشا وأقنعه بضرورة إنشاء مدارس حكومية حديثة، واقترح عليه أن تتولى الجمعية =

= المذكورة تنفيذ الخطة المرسومة، وعلى ذلك استطاع بمعونة بعض الشباب تأسيس تسع مدارس اثنتان منها للإناث. ولما عين مفتشاً عاماً لمعارف سورية بدأ جهوداً إضافية جبارة لإصلاح أساليب التعليم والدعوة لطلب العلم. وعمل إلى جانب ذلك على تأسيس دور عامة للكتب منها دار الكتب الظاهرية بدمشق، جمع لها بتفويض من الحكومة ما تبقى من المخطوطات الموقوفة في الجوامع والمدارس بعد أن كان قد سُرق كثير منها أو تلف، ولقي في سبيل ذلك عنتاً ومشقة حتى إنه هدد بالقتل، كما أسس المكتبة الخالدية في القدس الشريف. ثم عرضت عليه وظيفة لا يكون فيها اتصال بالناس بعد أن ألغيت وظيفة المفتش العام فأباها، وانقطع إلى داره للتأليف والمطالعة، وعاش على بيع الكتب. ولكنه لم ينقطع عن الاتصال بالعلماء المتنورين من أمثال عبد الرزاق البيطار وجمال الدين القاسمي وسليم البخاري؛ وقد كانوا يُعَدُّون مدرسة واحدة في اتجاه تفكيرهم المتحرر. وتحلَّق حوله جماعة من الشباب النابهين، فزاد نشاطه الاجتماعي ودعوته للعلم، وألف منهم حلقات يجتمع كل يوم بواحدة منها يوجهها. وكان له صلات ومراسلات مع كثير جداً من المستشرقين. ولما اضطربت السياسة وضيق عليه في المراقبة رجال الأمن هاجر إلى مصر سنة ١٣٢٥هـ واعتزل الناس إلا بعض العلماء، وعاش هناك فقيراً صابراً. ورفض وساطة أحمد تيمور من أجل وظيفة في دار الكتب، وانزعج من صاحب جريدة المؤيد الذي سعى لدى الخديوي لإجراء راتب له. ولما أعلن الدستور عام ١٩٠٨ وخلع عبد الحميد لم يرجع إلى دمشق، لأنه لم يطمئن لسياسة الاتحاديين، وقال: «لم يزل كل شيء على حاله، وما هذا الانقلاب الخلاب إلا انتقال من نير استبداد الفرد إلى نير استبداد الجماعة» وبقي في مصر حتى عام ١٩١٩ حين

فقد استطاع إقناع الوالي مدحت باشا[1] ورئيس ديوان الولاية التركي بهاء بك بضرورة تأسيس مدارس حكومية تدرس فيها العلوم بالعربية، وتعنى بتدريس آداب هذه اللغة. واحتج لرأيه بأن مدارس الإرساليات الأجنبية كلها تدرس العربية وآدابها خلافاً لمدارس الحكومة العثمانية، فإذا طالت هذه الحال نشأ في المدارس الأجنبية جيل له تفكير خاص ومذاهب سياسية لا تسر الدولة، فيجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التي يتبعها

= قامت الدولة العربية، فرجع إلى دمشق مريضاً بالربو وبقي فيها أشهراً كذلك حتى داهمه الموت عام ١٩٢٠. ترك الشيخ طاهر مؤلفات كثيرة وشعراً بالفارسية والعربية وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي عند تأسيسه.

(للتوسع في ترجمته انظر: تاريخ علماء دمشق، ١/٣٦٦ ـ ٣٨٠. وقد أطلنا في ترجمته لأهميتها في دراسة جمال الدين القاسمي).

(١) مدحت باشا أو أحمد مدحت باشا لقب أبو الأحرار. ولد في استانبول عام ١٨٢٢ لأب قاضٍ، وتعلم العربية والفارسية وتقلب في الوظائف حتى ولي على الدانوب وقضى على ثورات البلغار بشجاعة، ثم انتقل إلى الآستانة رئيساً لمجلس شورى الدولة، وعين والياً على بغداد (١٢٨٦ ـ ١٢٨٨هـ) ودعي إلى الآستانة معزولاً، فما لبث أن تولى منصب الصدارة العظمى، ثم جرد منها وضيق عليه، فسافر إلى أوربا، واستقر في لندن حتى صدر أمر تعيينه والياً على الشام، فأجرى فيها إصلاحات مهمة، ونقل منها إلى إزمير حيث اعتقل وحوكم متهماً بالمشاركة في قتل السلطان عبد العزيز، وحكم عليه بالإعدام، وخفف إلى النفي إلى قلعة بالطائف في الحجاز، ثم قتل بعد بضع سنوات بأمر السلطان، وقيل غير ذلك (الأعلام ٧/ ١٩٥).

الأجانب. ولم تتحق الفكرة سريعاً لأن مدحت باشا عزل، ولكن الوالي الجديد حمدي باشا تابع الطريق مع الشيخ طاهر ورئيس الديوان، فأنشئت جمعية شبه رسمية باسم «الجمعية الخيرية» أعانتها الحكومة بالمال، وخصصت لها أبنية وقفية وحكومية تفتتح فيها المدارس، وألحقت بها مطبعة لطبع الكتب المدرسية وغيرها من أجل نهضة المعارف. وعين الشيخ طاهر مفتشاً عاماً للولاية[1].

كذلك استطاع الشيخ طاهر جمع ما بقي من الكتب المخطوطة الموقوفة المفرقة على المساجد والمدارس في دمشق، ولقي في سبيل ذلك عنتاً شديداً من الجهلة وناظري الوقف الذين ضيعوا من قبل خزائن كتب لا تحصى عدتها، وتعرضت في زمنهم للسرقة والإهمال.. فأنشأ منها نواة دار الكتب الوطنية في المدرسة الظاهرية، ضمت بضعة آلاف من المخطوطات النفيسة، ما لبثت أن زادت فيما بعد[2].

وتتوجت هذه الأعمال الثقافية بافتتاح المكتب الإعدادي الملكي سنة ١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م وهو المدرسة التجهيزية الثانوية الأولى في دمشق التي اشتهرت فيما بعد باسم مكتب عنبر، وبه

---

(١) من ذكريات الحركة القومية العربية، المرجع السابق، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري لمحمد مطيع الحافظ ونزار أباظة ١/ ٣٩٣ وما بعد.

(٢) المرجعان السابقان.

تخرج رجال البلد ومثقفوه ووطنيوه فيما بعد[1].

على أن إنشاء المدارس الحكومية النظامية بدأ بعد خروج جيش إبراهيم باشا حين تبين للدولة العثمانية أن سر نجاح جيش المصريين كان بسبب أخذهم بالعلم، فعملت على إنشاء المدارس وخاصة بعد أن كثرت مدارس الإرساليات الأجنبية، فأحدثت في دمشق مدارس عدة منها المكتب الرشدي (المدرسة الابتدائية) في جامع يلبغا، والإعدادية العسكرية في جامع تنكز، ومكتب الصنائع في خان البطيخ، وغيرها[2].

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الناس عموماً أخذوا يميلون نحو الأخذ بالتعليم في المدارس النظامية لتغير طبيعة الحياة، قال محمد كرد علي: «والناس في الجملة قويت رغبتهم في تعليم أبنائهم، ولكن المسلمين مالوا إلى التترك لأخذ الوظائف الجندية والملكية، والمسيحيين واليهود مالوا إلى التفرنج لتعلمهم في مدارس الأجانب التي ظهرت تأثيراتها» ولكن المدارس الأجنبية أسست لغايات نشر نفوذ الدول التي أسستها عن طريق نشر ثقافاتها تمهيداً لاستثمار هذه الأقطار بعد سلخها عن الدولة العثمانية. وكان إلى جانب تلك المدارس بدمشق وكبريات المدن مدارس دينية تأخذ بالنظام القديم في أسلوب التعليم كمدرسة سليمان باشا

(١) النور والنار في مكتب عنبر، ٢٢، وانظر ما كتبه ظافر القاسمي إجمالاً في كتابه (مكتب عنبر).

(٢) النور والنار، ٢١ ـ ٢٤؛ تاريخ سورية، ١١٩.

العظم، ومدرسة إسماعيل باشا العظم والمدرسة الباذارئية والمرادية والصادرية بدمشق. وكالمدرسة الإسماعيلية والأحمدية بحلب. وهذه كانت تقوم على أموال الأوقاف[١].

هذا وقد تأسست في مطالع القرن الحالي مدارس أهلية جيدة المستوى كالمدرسة العلمية الوطنية لأبي الخير الطباع والمدرسة الريحانية لمحمد المبارك والمدرسة التجارية للعقاد والمدرسة العثمانية. وقد كتب محمد كرد علي يفضل المدارس الأهلية مع قلتها على المدارس الحكومية، ويحض الأهلين لإرسال أبنائهم إليها: «للمسلمين مدارس أهلية تعنى بالعربية في حلب، كما لليهود مدارس أهلية. والمسيحيون يتشبعون بالعربية أكثر من المسلمين، وليس للمسلمين مدارس أهلية خاصة بهم، فهم يدخلون المدارس الحكومية لدخول الوظائف». ولم يكن هناك اهتمام بمدارس البنات، إذ كان بدمشق في مطلع القرن الحالي مدرسة واحدة لهن فقط[٢]. ولم تنقطع حلقات العلم العامة والخاصة التي أخذت بالانتشار الواسع في المساجد والبيوت، يقوم عليها عدد من العلماء، اشتهروا ولمعت أسماؤهم في العلوم الإسلامية والعربية، وهم أنفسهم كانوا يرشدون العامة في دروس الوعظ

---

(١) خطط الشام ٣/ ١٢٤؛ تاريخ سورية، ١٣٨؛ سورية ١٦٦؛ الروضة الغناء، ١١٩.

(٢) دمشق في مطلع القرن، ١٩٧، تاريخ سورية، ١٣٤، المقتبس، العدد ٣٥٦، ٢٨ نيسان ١٩١٠، العدد ٣٦٥، ٧ آب ١٩١١ .٥

ويفتونهم في مسائل حياتهم اليومية[1]. وقد اشتهرت أسر توارث أفرادها العلم أجيالاً خلفاً عن سلف كأسرة الغزي والبيطار والكزبري والشطي والعطار وغيرهم من الأفراد الذين خدموا الحركة العلمية بصدق وإخلاص. ولذا فقد ترددت على الألسنة أسماء أعلام منهم، مثل بكري العطار (ـ ١٣٢٠) وسليم العطار (ـ ١٣٠٧) ومحمد المبارك (ـ ١٣٣١) وعبد الغني الغنيمي (ـ ١٣٠٠) وسليم الكزبري (ـ ١٣٣١) وعيسى الكردي (ـ١٣٣١) وعبد الله السكري (ـ ١٣٢٩) وبهاء الدين البيطار (ـ ١٣٢٨) وسليم سمارة (ـ ١٣٢٧) وعبد الحكيم الأفغاني (ـ ١٣٢٦) وأبو الصفا المالكي (ـ ١٣٢٥) وسليم المسوتي (ـ ١٣٢٤) وعبد المجيد الخاني (ـ ١٣١٨) ومحمد الخاني (ـ ١٣١٦) وأحمد الشطي (ـ ١٣١٦) ومحمد الطيب (ـ ١٣١٣) وأحمد الحلواني الكبير (ـ ١٣٠٧) ومحمد الطنطاوي (ـ ١٣٠٦) وحسن جُبَيْنَة (ـ ١٣٠٦) ومحمود حمزة (ـ ١٣٠٥) وعبد الرزاق البيطار (ـ ١٣٣٥) وغيرهم كثير[2].

ولم يخرج أحد من هؤلاء العلماء كلٌّ عن مذهب من المذاهب الأربعة، وكان إلى جانبها المذهب الجعفري الإمامي عند الشيعة، وكان لكل مذهب مفتٍ يعول عليه في مذهبه ويرجع إليه. وكان القضاء والحكومة يعتمدان المذهب الحنفي، والمفتي العام لا يكون إلا حنفياً. وظل الوضع كذلك حتى وقت متأخر.

---

(١) انظر تاريخ علماء دمشق في كثير من التراجم؛ وكذلك علماء دمشق وأعيانها.

(٢) انظر تراجم هؤلاء العلماء في تاريخ علماء دمشق في الوفيات المذكورة. =

وكان للمساجد الكبيرة كجامع السنانية وجامع التوبة إمامان الأول شافعي، والثاني حنفي، وللجامع الأموي كما هو الآن أربعة محاريب لكل محراب إمام في مذهبه يعد عمدة يقصده أهل المذهب في أسئلتهم.

ولقد امتزج العلم بالدين عند هؤلاء العلماء، وكانوا يمثلون ثقافة المجتمع والمرجعية الدينية لديه. وكان الناس جميعاً ينظرون إليهم نظرة احترام وثقة على الغالب ويُقَبِّلون أيديهم عند التحية، ويفترضون فيهم العفة والزهد والخلق. بل كان بعضهم وخاصة طلابهم يتقربون إلى الله بخدمتهم.

وكانت الصلة بين الطالب وشيخه تتجاوز الصلة العلمية وتتعداها إلى العلاقة الروحية الصافية، ولربما أحب الشيخ تلميذه أكثر من ابنه، وعظَّم التلميذ شيخه أكثر من أبيه. وتجلت هذه الرابطة أكثر عند مشايخ الصوفية ومريديهم.

وتعددت طرق التصوف على نحو ظاهر، وكان لأصحابها دولة وشأن. وكان من أهمها وأوسعها انتشاراً في المنطقة الطريقة النقشبندية؛ دخلت دمشق على يد خالد النقشبندي مع هجرته إليها. والطريقة الشاذلية، وجاءت مع المغاربة الذين نزحوا من ديارهم على إثر دخول الاستعمار إليها. ورأينا كيف كان السلطان عبد الحميد واحداً من مريدي الشيخ محمود أبو الشامات. وانتشرت على نحو أقل طرق المولوية والقادرية والرفاعية.

وكان للأمير عبد القادر الجزائري أحد أعلام التصوف أثره الكبير آنذاك، ألف كتباً فيه، وجمع حوله ثلة من العلماء المتصوفة،

بعث بعضهم إلى مدينة قونية لمقابلة نسخة مخطوطة فيها من كتاب الفتوحات المكيّة لابن عربي.

وقامت في دمشق وما حولها حلقات الذكر واشتهر ذكر الخواجكان النقشبندي والحضرة الشاذلية والفتل المولوي. وأدخل عبد القادر سوار من أعلام القرن الثاني عشر الهجري ذكر المحيا اقتبسه من مصر[١].

وبوجود الجهل والأمية لم يفهم كثير من العامة حقيقة العلم والتصوف على الوجه الصحيح؛ فدخلت إلى الأفكار خرافات كثيرة وبدع متنوعة وضلالات متفرقة، يُخرج بعضها معتقديها إلى الكفر، علموا أم لم يعلموا. وأخذ الجهلة يعظمون قبور الصالحين ويقدمون لها النذور ويستعينون بأصحابها ويقصدونها لقضاء حوائجهم، ويعتقدون بالرقىٰ والتمائم وغيرها من الاعتقادات الباطلة، ويأتون من البدع ما لا نهاية له[٢].

واشتط أصحاب الطرق كثيراً حتى كانوا يخرجون في مواكبهم بالأعلام والخيول والبغال والموسيقا والحشود، يملؤون المدينة بضجيجهم، وكان بعضهم يبدي خوارق كضرب نفسه بالسيف، أو المشي فوق النار، أو الاستلقاء على الأرض لتمر عليه الخيول[٣].

---

(١) للتوسع في معرفة الحياة الدينية انظر المرجعين السابقين من خلال تراجم العلماء والصوفية والأعيان.

(٢) إصلاح المساجد من البدع والعوائد، جمال الدين القاسمي، ٢٣٠ - ٢٣٤، ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٣) المرجع السابق، ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

لكن الأخلاق اليومية الإسلامية كانت شائعة في الناس على وجه العموم كالصدق والعفة والتعاون والرحمة والتعامل السليم وتعاطف الجيران وإغاثة الملهوف وإعانة المعسر والتجمُّل للضيف، حتى صار ذلك طبعاً من طباع الدمشقيين وغيرهم من أهل البلدان المجاورة، والأمثلة على ذلك كثيرة، وإن شذ بعض الجاهلين شذوذاً منكراً في اقتراف الآثام، مما لا يمثل القاعدة العامة[١].

في هذا المجتمع كان للغة التركية أهميتها بالطبع لكونها اللغة الرسمية للدولة ولغة التعليم، حتى أن النحو العربي كان يدرس بالتركية في أكبر ثانوية بدمشق وهي مكتب عنبر. وقد زادت هذه الأهمية في بدايات القرن الحالي حينما صارت الدولة تشترط لدخول سلك الوظائف معرفة التركية، فكثر إقبال الطلاب على دراستها، فنافست العربية التي أهملت بدورها[٢].

ومع ذلك فإن الجهل والأمية كانا فاشيين في المجتمع، وكان الذين يعرفون الكتابة والقراءة قلة قليلة وخاصة في القرى والأطراف التي كانت تكتفي من التعليم بالكتاتيب.. وربما افتقر بعض القرى إلى شخص يستطيع قراءة رسالة[٣].

ومع أن المطبعة دخلت إلى الآستانة ولبنان وحلب في زمن مبكر يعود إلى القرن السابع عشر إلاّ أن دخولها إلى دمشق تأخر

---

(١) مذكرات البارودي، الصفحات الأولى من الجزء الثاني.

(٢) تاريخ سورية، ١٣٠، ١٣٢، الدكتور صلاح الدين القاسمي، الصفحة ب.

(٣) تاريخ سورية، ١١٩ ـ ١٢٣.

حتى سنة ١٢٧٢هـ = ١٨٥٥م حين تأسست فيها مطبعة الدوماني التي عملت بضع سنين. ومن المطابع التي عرفت بدمشق آنذاك المطبعة الحفنية لصاحبها محمد الحفني سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م، ومطبعة ولاية سورية ١٢٨١هـ = ١٨٦٤م وعليها طبعت جريدة سورية أول صحيفة رسمية، والمطبعة العسكرية، والمطبعة الخيرية، أنشأتها جمعية انتشار العلوم ومطبعة نهج الصواب لحبيب خالد ١٢٩٧هـ = ١٨٨٠م، ومطبعة روضة الشام لخالد عطار حسن ١٣١١هـ = ١٨٩٣م، والمطبعة العلمية ومطبعة روضة الفيحاء ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م، والمطبعة الحميدية لسليمان لطفي ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م. وفيها طُبعت مدةً مجلة الشمس[(١)].

ولم تستطع هذه المطابع رغم تعددها أن تسدّ حاجة البلاد للكتب، وكانت المراقبة عليها قائمة من الدولة، فبقي للناسخين أهميتهم الخاصة. واستمرت العناية بالخط قائمة[(٢)].

وانتشرت الصحف الخاصة مع ظهور هذه المطابع في لبنان ودمشق وحلب، وكانت تخضع للمراقبة. وقد أقفلت صحف كثيرة وعوقب أصحابها. فلما صدر الدستور عام ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م وأطلقت الحريات لم تعد الصحف في خدمة الاستبداد ولم تعد تعطل بمجرد أمر إداري من قائد أو وزير[(٣)]. وإلى ذلك

---

(١) تاريخ الطباعة، خليل صابات، ٩٦ ـ ١٠٦، سورية، ١٨٤، تاريخ الطباعة، لويس شيخو، مجلة المشرق، العدد ١٩، سنة ٤، ١٩٠١.

(٢) ظافر، ٥٩٧، سورية، ٢١٣.

(٣) تاريخ سورية، ١٥٥.

يشير محمد كرد علي بقوله: «إن من أعظم حسنات الدستور أنه أتاح للعثمانيين الحرية كي يقولوا ما يشاؤون».[١] وقد استفادت من حرية الصحافة جريدة المقتبس خاصة، وهي أهم جريدة سورية في ذلك العهد[٢].

وسهلت الحكومة إصدار الجرائد، وكان يمكن الحصول على امتياز جريدة جديدة بعد يوم واحد من تقديم الطلب. وكثرت الصحف خلال الأسابيع الأولى لإعلان الدستور، فوصلت في ولاية سورية وحدها إلى مئة تقريباً. ولكن كثيراً منها كان تافهاً. ولم يكن أصحابها يعرفون مهنة الصحافة، بل صار بعضها مسرحاً للمهاترات والشتائم[٣].

ولقد تنوعت اتجاهات الصحف آنذاك، فكان منها الصحف الوطنية أو القومية أو الممالئة للدول الأجنبية أو المائلة مع هوى الدولة أو الداعية لدين أو حزب. كما حاول الاتحاديون استمالة بعض الجرائد ورشوتها[٤]. لكنّ هؤلاء الأخيرين ما لبثوا أن أخمدوا الحريات ولاحقوا الصحافة فتراجعت. وأضرب الصحفيون

---

(١) المقتبس، العدد ٣١٤، ١٠ آذار ١٩١٠.

(٢) تاريخ سورية، المرجع السابق، أنشأ جريدة المقتبس اليومية السياسية الاقتصادية الاجتماعية محمد كرد علي في ١٩٠٨/١٢/١٧. وقد تعطلت مراراً، وتنازل عنها لأخيه أحمد كرد علي في صيف سنة ١٩١٦. ثم توقفت سنة ١٩٣١، وهي غير مجلة المقتبس التي أنشأها هو نفسه في ١٩٠٦/٢/٢٥. (انظر مدونة الصحافة العربية ١/ ٤٦١، تطور الصحافة العربية في مئة عام ٢/ ١٢٩).

(٣) تاريخ سورية، ١٥٦.

(٤) المرجع السابق، ١٥٧ ـ ١٥٨.

في لبنان سنة ١٩٠٩. ومع بدء الحرب عام ١٩١٤ عادت الأحكام صارمة من جديد[١].

وهذا الجدول يبين عدد الصحف السورية بين عامي ١٨٥٥ و١٩١٦[٢]:

المدينة	عدد الصحف	عدد المجلات
دمشق	٦٩	١٥
بيروت	١٥٨	١١٠
حلب	٤٦	٧
طرابلس	٢٠	٦
حمص	١٤	٢
صيدا	١٥	٤
القدس	٣١	٦
حماة	١٠	٤
اللاذقية	١٤	—

ومع وجود هذه المطابع التي أشرنا إليها فإن الكتب التي صدرت عنها قليلة جداً ومحدودة تعدّ بالعشرات، بخلاف ما كانت عليه الطباعة في مصر من نشاط. ذلك لأن الإبداع العلمي كان نادراً قليلاً. بالإضافة إلى أن الحلقات اعتمدت في تدريسها على

(١) تاريخ سورية، ١٥٩.

(٢) المرجع السابق، ١١٦؛ وانظر تاريخ الصحافة السورية في العهد العثماني لشمس الدين الرفاعي ١/ ٢٦.

كتب معينة لا تخرج عنها.. بل لم يكن كثير من المدرسين العلماء يجاوزون عباراتها، بالإضافة إلى زهد علماء دمشق بالتأليف.. ونادراً ما كان يصدر عن أحدهم كتاب جديد، رغم الحاجة إلى التجديد ورغم سقم الكتب التي يقررونها أحياناً[١].

وعرفت دمشق المسرح على يد الموسيقي أبي خليل القباني (ـ ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م) الذي كان صديقاً لمحمد سعيد القاسمي، وقد اقتبس التمثيل من فرقة لبنانية وصلت دمشق عام ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م، تلتها فرقة فرنسية، عرضتا تمثيليات في حي باب توما. واستطاع القباني بتشجيع الوالي عبد اللطيف صبحي باشا عام ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م تمثيل رواية في بيت جده، ثم ما لبث أن شكل فرقة مع اسكندر فرح بتشجيع الوالي مدحت باشا، أحضرا لها ممثلات من لبنان، وأقاما مسرحاً في خان الجمرك بباب البريد. لكن جماعة من أهالي دمشق ثاروا عليهما، وشكوهما إلى السلطان، فأصدر أمراً بإغلاق المسرح الذي لم يُستأنف في دمشق إلا في مرحلة متأخرة[٢].

* * *

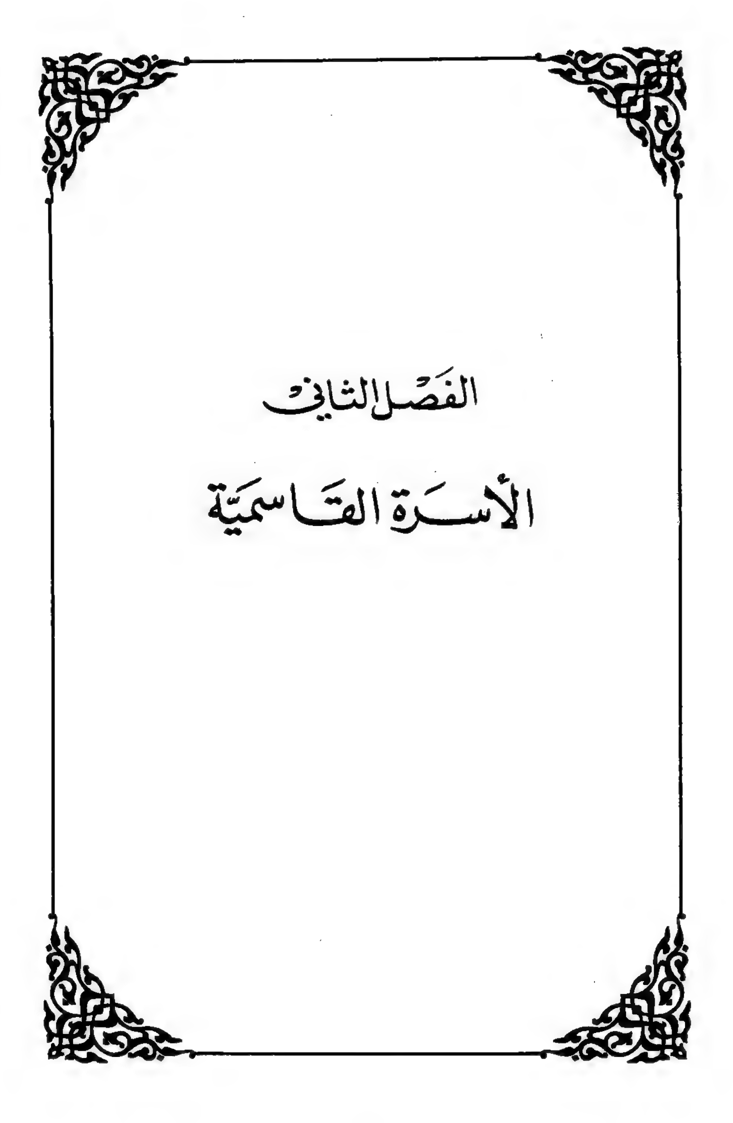
هكذا كانت الأوضاع العامة حينما ولد محمد جمال الدين القاسمي وعلى هذا كانت الحياة اليومية تجري.

* * *

---

(١) انظر تاريخ علماء دمشق، وعلماء دمشق وأعيانها.

(٢) سورية، ١٩١؛ الأعلام، ١/ ٢٤٨.



الفَصل الثاني

الأسـرة القـاسمـيَّة

الأسـرة القـاسميّة

نَجَلَتْ محمد جمال الدين أسرة طيبة خدم أفرادها العلم، ينتهي نسبها إلى أرومة النبوة؛ فهو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن إسماعيل بن أبي بكر بن محمد أمين ابن أبي بكر قاسم بن عمر بن ياسين بن عبد الرزاق بن محب الدين وشرف الدين محمد بن جلال الدين بن شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد أبي العباس بن علاء الدين علي بن بدر الدين حسين بن شرف الدين يحيى بن شهاب الدين أحمد بن تاج الدين محمد بن عبد الرزاق بن أبي النصر محمد بن نصر أبي صالح عماد الدين بن تاج الدين أبي بكر عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي الحسني[١] .

كما أنّ لجمال الدين نسباً آخر من جهة جدته لأبيه أثبته في كتابه شرف الأسباط[٢] ذكر أنه محمد جمال بن محمد سعيد بن عائشة بنت فاطمة بنت محمد الدسوقي الدمشقي ابن محمد

(١) علماء دمشق وأعيانها ٢/ ٦٦٦.

(٢) ص ٨٢.

الدسوقي بن يحيى بن أحمد بن شرف الدين بن رضي الدين بن محمد بن رضي الدين بن بهاء الدين محمد بن حمزة بن إبراهيم ابن محمد بن عبد الرحمن بن عثمان بن جمال الدين عبد الله بن بدر الدين محمد بن موسى بن عبد العزيز أبي المجد بن قريش بن محمد الناجي أبي النجا بن زين العابدين بن عبد الخالق بن محمد أبي الطيب، بن عبد الله بن عبد الخالق بن أبي القاسم بن جعفر الزكي بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، بن علي زين العابدين ابن أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[١].

ومنذ ثلاثمئة سنة تقريباً هاجر من بغداد جده السادس أبو بكر قاسم ابن عمر، هو وأخ له يسمى محمداً، فوصل إلى قرية دير عطية في جبال القلمون، فحطّ رحاله بها وتوطنها، في حين مضى أخوه محمد إلى قرية قريبة منها تسمى حُلى، فسكنها واستقر بها، وأنشأ كل منهما أسرة كانت له ذرية[٢].

كان أبو بكر المشار إليه على علم أخذ ينشره في القلمون، وأقبل عليه الطلبة هناك، واشتهروا حتى عرفوا فيما بعد بتلاميذ الشيخ أبي بكر، كما عرفت أسرته في تلك القرية بأسرة بكر حتى اليوم. وقد بقي هذا الجد في دير عطية، وبها مات[٣].

---

(١) انظر صورة هذا النسب مصدقة من نقيب الأشراف بمصر في كتابه شرف الأسباط.

(٢) علماء دمشق وأعيانها، المرجع السابق.

(٣) علماء دمشق وأعيانها، المرجع السابق.

ثم إنّ جماعة من ذرية الأخوين رحلوا إلى دمشق فتديَّروها، ونَبَـهَ شأنهم فيها، وأخذ بعضهم بحظ من العلم وفير، نشروه بين الناس. وقد تشكلت منهما أسرتان كبيرتان مع الأيام، عرفت إحداهما بالأسرة القاسمية وهي المنتسبة لأبي بكر قاسم، بينما عرفت سلالة أخيه محمد بآل الخطيب[1].

أما الذي خدم العلم بدمشق حق الخدمة من الأسرة القاسمية فهو الشيخ قاسم جدّ جمال الدين، وهو الذي أسس المجد لسلالته من بعده في عاصمة الشام[2].

ولد قاسم بدمشق سنة ١٢٢٣هـ = ١٨٠٨م[3] ونشأ برعاية والدٍ صالح كان كثير العبادة والدعاء له بالعلم والفلاح. تكسَّب في حداثته بمهنة الحلاَّق فاشتهرت أسرته بها أولاً، ثم أقبل على الاشتغال بالعلوم فأخذ عن فحول العلماء، منهم صالح الدسوقي ومحمد الدسوقي، وحضر مدة عند سعيد الحلبي، ولازم محدث الشام عبد الرحمن الكزبري فكان من أجلِّ تلاميذه المقربين إليه، وأجازه بالطريقة بالقادرية وألبسه الخرقة، ثم كتب له سنة ١٢٥٢هـ = ١٨٣٦م إجازة سنيّة بسائر مرويَّاته، وكان يصحبه في كل رحلة وينوِّه بفضله. وقد زار معه بيت المقدس.

ولما مات لازم ابنه أحمد مسلم الكزبري وقرأ عليه كتباً كثيرة

---

(١) علماء دمشق وأعيانها، المرجع السابق.

(٢) ظافر، ٢٠.

(٣) في منتخبات التواريخ: ١٢٢١هـ.

كان آخرها الرسالة القشيرية[١].

اهتم قاسم بالتصوف على نحو ما كان يشيع في عصره، فلم يكتفِ بالطريقة القادرية وإنما سلك الطريقة النقشبندية أيضاً، أخذها عن أحمد الإربلي خليفة الشيخ خالد النقشبندي. واغتنم فرصة قدوم الشيخ عبد القادر الكيالي الرفاعي إلى دمشق فأقبل عليه وبايعه على الطريقة الرفاعية[٢].

وحصل قاسم على إجازات غير التي ذكرناها؛ فقد أجازه الشيخ مصطفى المبلط والشيخ إبراهيم الباجوري الأزهريان وكتب له هذا الأخير على إجازته له عبارات ثناء في فضله ونبله. . كان ذلك عندما رحل إلى مصر سنة ١٢٧٠هـ = ١٨٥٣م وزار الأزهر الشريف[٣].

وإذ برع الشيخ على نحو خاص بالتفسير والحديث والفقه الشافعي فقد أخذ يتصدر للإقراء في حياة شيوخه، وانتفع به طلاب كثيرون، وقد أضاف إلى ذلك الإمامة والخطابة والتدريس في جامع حسان. فلما توفي عبد الله الكردي[٤] إمام الشافعية بجامع السنانية خلفه في الإمامة وأحيى دروسه العامة، منذ عام ١٢٧٩هـ=١٨٦٢م،

---

(١) علماء دمشق وأعيانها، المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر ترجمة عبد الله الكردي في علماء دمشق وأعيانها ٢/ ٥٩٤ في وفيات سنة ١٢٧٨هـ.

وترك جامع حسان لابنه محمد[1].

عرف القاسم من التآليف رسائل في الفقه والعقيدة والنحو منها «إعانة الناسك على أداء المناسك» و«محرمات النكاح برضاع أو نسب» و«فيمن حج البيت الحرام ومات وعليه ذنوب وصغائر وتبعات» و«عقيدة أهل السنّة» و«نظم الآجرومية» لم يتم، و«مورد الناهل بمولد النبي الكامل ﷺ»[2] و«التوسلات الحسنى بنظم أسماء الله الحسنى». وكان إلى جانب ذلك تجود قريحته ببعض أشعار مستحسنة في المديح النبوي. وقد ضمّن قصيدة البردة في قصيدة سماها «الدرة الزاهرة بتضمين البرأة الفاخرة». كما شطّر لاميّة ابن الوردي إلا أنه لم يتمها.

ومن شعره قصيدة من ٢٩ بيتاً نظمها وهو مريض بالرمد الذي اشتد عليه، فأخذ يتلوها ويكررها حتى شفي. وقد بدأ كل بيت فيها بحرف من حروف المعجم، مطلعها:

(أ) أشكو إلى الله ما ألقاه من لمِ ... وما أقاسيه من ضري ومن ألمِ

وآخرها:

(ي) يسر وأصلح وأحسن منك لي كرماً ... أمري وديني مع الدنيا ومختتمي[3]

وكان الشيخ قاسم حسن الأخلاق لطيف المعاشرة قنوعاً كثير

---

(١) تاريخ علماء دمشق: ١/ ٣٦٣.

(٢) من هذا المولد نسخ مخطوطة في المكتبة الظاهرية برقم ١١٢٥٧، في ٢٨ ق، و١١٤٠٤ في ٢٧ق، و١١٤٠٠ في ١٣ق.

(٣) طبعت هذه القصيدة بدمشق سنة ١٢٨٤هـ مع قصائد نبوية.

الصمت فصيح اللسان حلو المحاضرة يتحرى في عبادته. وهو إلى ذلك لا يخالط الكبراء، و«له ولع بالانقباض عن أهل الرسوم». ولذا حظي بين الناس بجميل الذكر، وأحبوه، حتى أدت صلته الطيبة بشيخيه المذكورين من آل الدسوقي الشرفاء إلى أن ارتبط بهما بعلاقة مصاهرة، فتزوج من عائشة بنت فاطمة بنت محمد الدسوقي، وكانت فاطمة أمها زوجاً للشيخ أحمد بن عبد القادر جُبينه، فسعد بتشرفه بنسبهم وأضافه إلى شرف نسبه[1].

رزق هذا الجد الذي توفي ليلة ٢٨شعبان سنة ١٢٨٤هـ= ١٨٦٧م ـ ما عدا ولده محمد سعيد ـ ثلاثة أبناء آخرين؛ محمد وعبد الرحمن وعبد الغني وثلاث بنات هن آسية زوجة مصطفى الحلو أحد خلفاء الطريقة النقشبندية الذين عهد إليهم الشيخ خالد النقشبندي بالوصاية من بعده. وميمونة زوجة الشيخ عمر الصغير من خلفاء النقشبندية كذلك، فلما توفيت تزوج أختها عائشة[2].

وكان هؤلاء الأبناء المذكورون على علم كلهمْ وفضل، قرأ محمد على مشايخ دمشق وأتقن الفقه الشافعي، ثم تولى الإمامة والخطابة في جامع حسان، وانتفع به طلاب كثيرون، واشتهر بالجهر بالحق. توفي سنة ١٣٣٧هـ=١٩١٨م عن أولادٍ ثلاثة، برز منهم مدير دائرة الأوقاف

---

(١) شرف الأسباط، ٧٣، ٧٨ ـ ٧٩؛ علماء دمشق وأعيانها: ٢/ ٦٦٦؛ منتخبات التواريخ: ٢/ ٦٧٤.

(٢) مشافهة الشيخ أحمد القاسمي؛ منتخبات التواريخ ٢/ ٦٧٤. وانظر لمعرفة ما قيل عن قاسم بن صالح والتوسع في ترجمته: علماء دمشق وأعيانها ٢/ ٦٦٦.

أحمد الذي طال عمره فجاوز التسعين، وكان يتقن التركية والفرنسية[1].

ولا نعرف عن عبد الرحمن سوى أنه اشتغل بتعليم القرآن الكريم في مكة المكرمة وقد جاور فيها، وأنه توفي عقيماً.

وأما عبد الغني فبعدما حفظ القرآن الكريم واشتغل بالعلم وحصّل عُيّن مفتياً في بعض فرق الجيش العثماني، وتوفي سنة ١٣٧٤هـ=١٩٥٤م عن ولدين[2].

وأما والد جمال الدين محمد سعيد فقد نَشَّأه أبوه على التقوى كإخوته ولَقَّنه العلم، فحضر دروسه كلها، إلى جانب حضوره على أجلة مشايخ الشام من أمثال محمد الطنطاوي وسليم العطار وعمر العطار ومحمد المنير ومحمد سعيد الأزهري النابلسي وغيرهم[3].

وإلى جانب ذلك فقد أكبَّ بنفسه على الكتب يطالع أسفارها، وأَكثَرَ من قراءة دواوين الشعر وكتب التاريخ والأدب على نحوٍ لم يكن معه يعرف الملل أو السآمة، فحفظ منها الكثير، وجمع من فوائدها. حتى إنه طالع تذكرة داود الأنطاكي في الطب فحفظ كلياتها ومهمات مفرداتها[4].

وتولى محمد سعيد وظائف أبيه بعد وفاته، فَأَمَّ الناس في جامع

---

(١) منتخبات التواريخ ٢/ ٧٩٥، تاريخه علماء دمشق، ١/ ٣٦٣، مذكرات المؤلف.

(٢) مشافهة الشيخ أحمد القاسمي؛ علماء دمشق وأعيانها، المرجع السابق.

(٣) ظافر، ٢١؛ تاريخ علماء دمشق: ١/ ١٦٩؛ قاموس الصناعات الشامية ١/ ٨.

(٤) تاريخ علماء دمشق: ١/ ١٧١.

السنانية، وقرأ الدرس العام فيه مكانه، وقام مقامه. وقصده كثير من الطلبة في داره وانتفعوا به[1].

وكان إلى جانب ذلك يتكسَّب ببيع الأدوات المنزلية في دكان له بمحلَّةِ العصرونية.. إلا أن نفسه عزفت عنها، فتركها لينصرف إلى العلم إقراءً وقراءة وكتابة، وجعل ينسخ الكتب النافعة بخطه الجميل كلما سنحت له فرصة مواتية. ولقد شغف بالنسخ حتى إن أقلامه ومحابره كانت أنيسه، يضعها إلى جانب فراشه[2].

وتميز محمد سعيد بحدّة المزاج، يسرع إليه الغضب على حين غرة، مثلما يلبيه الرضا والسماحة في يسر وسهولة.. ذلك لأنه حمل في صدره قلباً سليماً ينبض بالمرح وخفة الظلّ. وكان إلى هذا يؤثر الانزواء عن أكابر زمانه، فلا يستجيب لدعواتهم، ولا يغشىٰ مجالسهم إلا على الندرة النادرة[3].

ولقد غلب على الرجل حب الموسيقى، فاهتم بها، وعرف أنغامها وأصولها، وضم إليها صوتاً شجياً عذب التلاوة والإنشاد، نزلت به منحة القدر حتى أن كل الذين صلوا وراءه في مسجده افتقدوه حينما توفي، فكانوا يذكرونه بالخير كل حين[4].

---

(١) ظافر: ٢١؛ قاموس الصناعات، المرجع السابق؛ تاريخ علماء دمشق: ١/ ١٦٩.
(٢) ظافر، المرجع السابق؛ قاموس الصناعات، المرجع السابق.
(٣) ظافر، المرجع السابق؛ قاموس الصناعات: ١/ ٩.
(٤) المرجعان السابقان.

ولعل الموسيقى هي التي جمعته بأبي خليل القباني[١]، ولعلهما تعاطياها زمناً في خلوة تجمعهما وحدهما، وتدارساها دهراً.. وأعجب كل منهما بالآخر. ولا أدل على ذلك من أنّ الشيخ نظم في القباني قصيدة مدح، ضمّن كل بيت منها نغماً من الأنغام الشرقية، استوفاها كلها.. فأعجبت الممدوح، فاهتبلها فرصة مواتية، فلحنها وفقاً لما يناسب كل نغم فيها وغنّاها فسحرت أهل الذوق آنذاك، وشهد الخبراء بأنها آية من آيات الفن الباهرة[٢].

كان محمد سعيد إذن شاعراً إلى جانب كونه فقيهاً، ولذا فقد تميّز من سائر الفقهاء في زمنه، فلم تخالطه خشونتهم، بل تنكَّب عن طريقتهم في الدعوة، وجانب أساليبهم العويصة، وخالف عما جفّ من طرائقهم. ذلك لأن الأدب غلب عليه، وجرى في دمه مزاج الأدباء. ولهذا كانت مجالسه منوّعة الأحاديث، كما كانت دروسه كثيرة الاستطراد، أعانه فيها على ما يريد ذوقه الأدبي وحسن أدائه.. ولهذا أيضاً لم تخلُ تلك المجالس ولا هاتيك الدروس من بعض مجون ومن قليلٍ من هزل وفكاهة.. وكذلك لم يخل شعره من أولئك كله. وقد جمعه في ديوان سماه «بيت القصيد»[٣].

---

(١) مر الحديث عن أبي خليل القباني في آخر الفصل السابق.
(٢) قاموس الصناعات، المرجع السابق.
(٣) تاريخ علماء دمشق، المرجع السابق؛ قاموس الصناعات، المرجع السابق.

كان في شعر الشيخ ما يدل على فطرة صحيحة وسليقة رقيقة، فهو لم يقتصر على فنون زمانه التي درج عليها شعراء وقته، وما توقف عند أغراضهم التي ربطوا أنفسهم بها، وإنما تعداها إلى غيرها، فأنشد في المديح والتهاني وفي الفخر والعتاب وفي الأخوانيات والتاريخ، مثلما نظم في وصف الشتاء وأخلاق المداهنين وفي العلم والجهل والحج والزيارة، بل وفي تصوير أغنياء السوء من البخلاء[1].

ومن شعره قوله:

من رام يدخل باب النصر والفرج ... فليجتنب صحبة الأوغاد والهَمَج
وليعتزل أهل هذا الوقت أجمعهم ... إلا لمن كان ذا دين بلا عوج
أو كان صاحب علم عاملاً ورعاً ... أو ذا سخاء فما في ذاك من حرج
واستعمل الناس مثل النار منقبضاً ... منها وخذ نفعها واحذر من الوهج
فاسمع خليلي نصحي إنني رجل ... قد جرب الناس في ضيق وفي فرج

وقال في المنافقين:

يقول لك المنافق وهو أدرى ... بأسلوب النفاق بما تمادى
إذا صلح الزمان فزد صلاحاً ... وإن فسد الزمان فزد فساداً

وقال:

إذا لم أجد لي في الزمان مؤانساً ... جعلت كتابي مؤنسي وجليسي
وأغلقت بابي دون من كان زاغني ... وأمليت من مال القناعة كيسي

وقال:

---

(١) قاموس الصناعات، المرجع السابق.

قصور عزائمي أبداً بواذخ ودور فضائلي بنيت شوامخ
ومن وصفي التعفف وهو حسبي به استغنيت من بين المشايخ

ولم يكن محمد سعيد كثير التأليف، ما تعدت تصانيفه بضعة كتب، انحصرت في الجزء الأول من «قاموس الصناعات الشامية» ومجموعٌ وضعه على طريقة كشكول العاملي، سماه «سفينة الفرج فيما هبّ ودبّ ودرَج» وكتاب «الثغر الباسم بترجمة العلامة الشيخ قاسم» ذكر فيه سيرة أبيه، وديوان شعر. ونقح كتاب «حوادث دمشق اليومية» لأحمد البديري الحلاق[١].

وأصاب محمد سعيد على ما يبدو بعضاً من الشهرة، وعرف في زمانه، فمدحه من حوله من معارفه، فهذا هو الأديب حسين الحبال البيروتي يقول فيه قصيدة مطرزاً (مولاي سعيد):

(١) هو يوميات في حوادث دمشق المهمة دَوَّنها بين سنتي ١١٥٤و١١٧٥هـ =١٧٤١-١٧٦٢م أحمد البديري، وهو حلاق عامي انفعل بما كان يجري في زمنه، فأخذ يسجل ما يقع تحت بصره وما يسمعه مما حوله، وجاء كتابه هذا صورة صادقة للحياة في دمشق من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وقع الكتاب في يد محمد سعيد القاسمي فهذب لغته وأصلح منها قدر الإمكان، ويبدو أنه أراد الإبقاء على السمة العامة فيه؛ لأن أسلوبه بقي ركيكاً أقرب إلى كلام العوام. ثم ضاع الأصل، وبقي تهذيب القاسمي. ثم في أواخرالخمسينات من القرن الحالي حققه تحقيقاً علمياً الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، وكتب له مقدمة مستفيضة في التعريف به وبعصر البديري، ونشرته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة. وانظر قاموس الصناعات ١/ ١٠؛ والأعلام ٦/ ١٤١؛ ظافر، ٢٠.

(م) منازلهم بالشام بين الجداول سقاك وحياك الحيا من منازل
(و) ولا برحت تلك الرياض حمائم تهيج إذا تبدي الهديل بلابلي
(ل) لها مثل نوحي غير أني بأدمع تسيل ومنها الدمع ليس بسائل
(ا) إليك حمام الأيك مني رسالة توصّلها نحو الحبيب المواصل
(ي) يمدّ لها كفاً أودّ بأنني أفوز بمرآها ولثم الأنامل
(س) سليل كرام فاق قساً فصاحة وجر على سحبان ذيل الفضائل
(ع) علا منبراً لو كان يعلم ما انبرى عليه لأبدى الفخر في زي باسل
(ي) يؤم الورى في جامع فيه للورى صلاة وتسبيح وتنبيه غافل
(د) دعوه سعيداً والسعادة ذاته ولا زال بدراً سعده غير آفل

ومع أنّ في هذا الشعر شيئاً من تكلُّفٍ وإطالة لا تُنبئان عن كثير معنى إلا أنه يدل على محبة صادقة، وأشار إلى صفة استفدناها في صفات الشيخ وهي فصاحة خطبه التي لفتت نظر الشاعر أكثر من أية صفة أخرى[1].

وكان جمال الدين شديد الإعجاب بأبيه يفاخر فيه، وقد افتقده وحزن عليه حين توفي عام ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م، كما حزن عليه من عرفوه وأسفوا إذ واروا جثمانه في جنازة عظيمة، صلى فيها عليه الشيخ بكري العطار أحد أعلام العلماء. وكتب بعد ذلك ولده كتاباً خصصه له، عنوانه «بيت القصيدة في ترجمة الوالد الإمام السعيد»[2].

---

(١) تاريخ علماء دمشق، المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق، ١/ ١٧٢، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٢٢، حلية البشر، عبد الرزاق البيطار، ٢/ ٦٥٤، تعطير الشام، جمال الدين القاسمي (خ)=

وكان لجمال الدين إخوة ثلاثة، كلهم أصغر منه، وهم صلاح الدين يوسف وقاسم خير الدين ومحمد عيد، وأختهم عائشة زوجة خليل العظم. ولئن كنا لا نعرف عنها شيئاً فإن لدينا معلومات مقبولة عن زوجها الذي كان من أسرة عريقة مشهورة، حكم دمشق منها أفراد معروفون. وصف خليل بأنه تقي ورع أمين، تحلى بمكارم الأخلاق، وأحب العلم، وأنس بمجالس العلماء، اشتغل بالزراعة والتجارة، وعيّن رئيساً لمحاسبة البلدية بدمشق قبل الحرب العالمية الأولى، وفي أثنائها رئيساً لمحاسبة المحروقات، ثم تفرغ للزراعة حتى وافاه أجله عام ١٣٤٥هـ= ١٩٢٦م. ويبدو أن الرجل كان على صلة طيبة بأحمائه من آل القاسمي، ولذا فقد شارك جمال الدين في تأليف الجزء الثاني من كتاب قاموس الصناعات الشامية الذي كان بدأه أبو زوجته، ولا يعرف له غيره من المؤلفات(١).

ولا نعلم كثيراً عن سيرة أخوي جمال الدين محمد عيد وقاسم خير الدين سوى أخبار متفرقة يمكن أن تعطينا لمحة موجزة تفيد في دراستنا لأسرة القاسمي، فكلا هذين الأخوين كان على طريقته في الأخذ بالعلم وإكبار شأنه.

نعرف محمد عيد يوم كان يتابع محاكمة أخيه في الفتنة المعروفة

= ق ٢٤ـ٤٤، الأعلام الشرقية، زكي مجاهد، ٢/ ١١٠، معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ١٠/ ٣٤.

(١) قاموس الصناعات: ٢/ ٢٠٧.

بحادثة المجتهدين، يشفق عليه من تعنت القضاة واتهاماتهم، فكان ينتظر الفراغ من الجلسة بفارغ الصبر، حتى إذا خرج المتهمون وانقضت المحاكمة واحتجز أخوه بادر إلى المفتي رئيس الجلسة فاستطال عليه بقوارع الكلم والتوبيخ الشديد، وسأله عن سبب توقيف أخيه. «فخاف المفتي على نفسه من أن يناله الضرب لما رأى من مساعدة بعض العوام له»(١).

ويبدو أن محمد عيد كان يتصف بالجرأة والاندفاع، يدلُّك على هذا حادثة أخرى ذكرها جمال الدين في مذكراته تشير إلى أن هذا الأخ تسلح بمسدس حرص عليه في أثناء الفتنة التي أثارها خصوم القاسمي ضده بمناسبة زيارة السيد رشيد رضا لدمشق سنة ١٣٢٦هـ واضطروه وقتها إلى اعتزال الإمامة في جامع السنانية مدة طويلة ولزوم بيته. مما دعا هذا الأخ إلى أن يحسب حساب المفاجآت ويحتاط لها، خاصة وبعدما روَّج العامة أن سبب الفتنة والهياج هو محمد عيد(٢).

ونعلم عن قاسم خير الدين أكثر مما نعلم عن أخيه المذكور. فقد كان هذا تلميذاً لأخيه جمال الدين، يتولى وظيفة الإعادة(٣)

---

(١) انظر تفصيل الحادثة في الفصل التالي، وقد أوردها ظافر القاسمي بحذافيرها عن أبيه، ٤٨ـ٦٩.

(٢) انظر تفاصيل الحادثة في الفصل التالي.

(٣) لم أقع على تعريف يوضح عمل المعيد بالضبط وإنما قال ابن طولون وقد ذكره في كتابه نقد الطالب ص١٥٤ : «عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة وإلا فهو والفقيه سواء» انتهى. والمعروف في العصر المتأخر أن المعيد ـ ويكون من =

في دروسه. وقد ذكره القاسمي في مذكراته فقال: «أعاد الدرس أخي محمد قاسم خير الدين سلّمه الله تعالى»[1].

ويظهر أنه كان ملازماً له ملازمة التلاميذ المقربين لأستاذهم، ولذا فقد صحبه إلى الاجتماع الذي عقده في دار الشيخ سليم الكزبري بعض الرجال المناهضين للأتراك بعد إعلان الدستور، فتلا الخطبة التي كتب مسوَّدتها جمال الدين على ما يعتقد. ويبدو أنه كان يصحبه دوماً، وينزل منه منزلة المحبة، ويأتمر بأمره كما يفعل التلاميذ عادة مع شيخهم؛ فقد ورد في مذكرات القاسمي أنه صحبه لنزهة في بستانٍ لآل العظم بالمزَّة، وأنه كلفه هناك أن يكتب له ترجمة الغزالي من كتاب «تكذيب المفتري لابن عساكر»[2].

ولقد كان محمد قاسم أميناً على أولاد أخيه بعد وفاته، أحسَّ نحوهم بعاطفة مرهفة وأشفق عليهم من اليتم، فكَفِلَهم، وتوفَّر على خدمتهم. ومن أجل ذلك عزف عن الزواج فناءً في القيام بواجباتهم وتنشئتهم التنشئة الصالحة، فكان لهم أباً بعد الأب. وحينما توفي مسلّم بن جمال الدين في ميعة الصبا بكاه هذا العم

= أنبه طلبة الشيخ ـ يحضِّر الدرس قبل مجيئه إلى الحلقة وهو الذي يقرأ في عبارة الكتاب المقرر ـ والشيخ يستوقفه كل حين للشرح. وكان له في الأوقاف راتب معلوم. ووظيفته من الوظائف المقررة.

(١) ظافر، ٣٨.

(٢) ظافر، المرجع السابق، نقلاً عن مذكرات أبيه اليومية ٢٦ جمادى الآخرة، ١٣٢٤هـ.

بكاء مراً، ولم يرقأ له دمع منذ ذاك الحين حتى وافاه أجله هو الآخر[١].

وكان قاسم يدرّس في حياة أخيه، وسافر لهذا الغرض إلى بعلبك، وكان له فيها مناظرات مع الشيعة[٢]. كما دَرَّسَ في مدارس الحكومة[٣]. وكان له حلقات علم خاصة، أشار إلى بعضها ابن أخيه ظافر فقال: «وكانت لنا ساعة في النحو نقرأ فيها كتاب شذور الذهب على عمي قاسم رحمه الله»[٤]. وعرف له من التآليف تحقيقه لرسالة «المسح على الجوربين» و«الاستئناس في تصحيح أنكحة الناس» لأخيه جمال الدين[٥].

بقي أن نذكر أن قاسماً هذا كان عصبي المزاج حاد اللسان كما قيل عنه[٦].

أما صلاح الدين يوسف ثالث الإخوة وآخرهم فقد كان في الثانية عشرة يوم رحل أبوه محمد سعيد عن الدنيا، درس في مدارس الدولة، وتعلم التركية والفارسية والفرنسية والعلوم الكونية إلى جانب ما كان يتلقى في البيت من العلوم الإسلامية والعربية في حلقات أخيه. فلما أتم دراسة الثانوية انتسب إلى المدرسة الطبية

---

(١) مكتب عنبر، ٧.

(٢) ظافر، ٥٨٣.

(٣) ظافر، ٤٢٠.

(٤) مكتب عنبر، ٩٢.

(٥) انظر مؤلفات جمال الدين القاسمي في الفصل الخاص بآثاره.

(٦) ظافر، ٤١٩.

بدمشق، فنال شهادتها عام ١٣٣٢هـ=١٩١٤م. وإلى جانب ذلك فقد استفاد كثيراً من توجيه أخيه جمال الدين ودرس عليه أمهات الكتب. ظهر عليه آثار النبوغ والموهبة منذ كان طالباً في الثانوية، فكان يدبج الخطب وينظم الشعر، وأنشأ مجلة «نقطة الأدب» ولم يجاوز عمره وقتها الخامسة عشرة. ثم أخذ يكتب دون انقطاع في المواضيع التي شغلت مجتمعه، واشترك في تأسيس جمعية النهضة العربية[١]، وكان أصغر أعضائها سناً، إذ كان دون العشرين ومع هذا فقد عُيّن فيها أول كاتم سر. كتب في تاريخ الجمعية مقالتين وألقى محاضرات منذ أن كانت سرية وبعدما أعلنت في مواضيع مختلفة، من عناوينها «العلم والاجتماع»، «القومية في الأمم»، «التعليم بالعربية»، «الثورة الفرنسية»، «الخطابة والخطباء». ولما أعلن الدستور عام ١٣٢٦هـ=١٩٠٨م كتب صلاح الدين في الصحف عن «المسألة العربية ونشأتها» و«ضائقتنا العلمية» و«العلم والعامة» و«فوضى الأقلام» و«الحشوية والوهابية»، و«ضراء العلماء»[٢]. ويسمع أن شركة عثمانية مساهمة أسست عام ١٣٢٩هـ=١٩١١م بهدف شراء الأراضي في فلسطين، فيفزعه النبأ، لأنه كان يعلم أغراض الصهيونية ومطامعها، ويعلم أن انتقال سندات الشركة لم يكن يخضع لقيود، فيكتب مقالة «الخطران الأصفران» يقرن فيها بين خطر الصهيونية وخطر الكوليرا الذي

---

(١) انظر لمعرفة الجمعية المذكورة الفصل الأول، تاريخ الحركة القومية العربية، المرجع السابق، الدكتور صلاح الدين القاسمي: آثاره، المقدمة.

(٢) كتب هذا المقال بسبب محاكمة أخيه وجماعة سنة ١٣٢٧هـ.

كانت البلاد تخاف من اجتياحه آنذاك[1].

وكان صلاح الدين نشيطاً جداً متفتح الوعي، يعد من الدعاة الأوائل لإثارة «المسألة العربية» كما سمّاها، ودعا للأخذ بمبدأ القوميات. وقد تطلع إلى حصول العرب على حقوقهم حينما خلع السلطان عبد الحميد الثاني، فذهب إلى استانبول بتلك المناسبة سنة ١٣٢٧هـ=١٩٠٩م مع وفد أعيان دمشق للتهنئة بالحكم الدستوري، وتولى هناك مهمة مراسلة جريدة المقتبس، وخطب بين يدي السلطان محمد رشاد في زيارة الوفد الرسمية، فأعجب به. ونشر ١٢ مقالاً عن هذه الرحلة[2].

وبعدما يتخرج صلاح الدين في المدرسة الطبية يسافر للعمل في مدن الحجاز، وخلال ذلك يكتب رسائل تصلح أن تكون دراسات اجتماعية وتاريخية وسياسية، كما يكتب مقالات، نقد فيها المنفلوطي وكتابه النظرات، جاءت تحت عنوان «نظرة في النظرات»[3].

ولصلاح الدين أشعار رقيقة سقنا بعضها في رثاء أخيه جمال الدين[4]. وله قصيدة يرثي فيها الشيخ محمد عبده، مطلعها:[5]

---

(١) انظر الدكتور صلاح الدين القاسمي، ٣٩، جريدة المقتبس، العدد ٧٨٣.
(٢) ظافر، ٦٠٠، الدكتور صلاح الدين القاسمي، المقدمة.
(٣) انظر الدكتور صلاح الدين القاسمي، ٢١٩، مجلة المقتبس، مج٥، ج٥، ٦.
(٤) انظر رثاءه لأخيه في الفصل التالي.
(٥) الدكتور صلاح الدين القاسمي، ٢٩٤.

رأيتك يا دهر تبدي العجب   بفعلك إما ونىً أو وثب

ومن شعره أبيات من قصيدته صحائف الأمل، يقول فيها:

ينام الدجى وتنام العيون   وذاك الفؤاد يعاني القلق
أبيت وفي الروح يأس سرى   وها أملي في الحياة انسحق
أبيت وفكري يخوض البحا   ر ويمشي القفار ولا من رفق
يجول ففي وهدة تارة   أراه وفي ذروة قد سمق
أراه يقلب صحف الرجا   ء بهذا الفضاء ولا من ورق
فيشهد أسطرها سودت   بأيدي الظلام وفيها نمق

وعلى حين غرة انطفأ هذا السراج المتلهب وخفت.. إذ أُصيب وهو في الحجاز بخراج في كبده اضطره إلى دخول المستشفى لإجراء جراحة توفي على أثرها وله تسعة وعشرون عاماً وبضعة أشهر بين رمضان وشوال من سنة ١٣٣٤هـ=١٩١٥م ودفن بمدينة الطائف[١].

أما جمال الدين، الشخصية التي نقدم دراستها في هذا الكتاب فقد رزق أربع بنات، لا نعرف من شأنهن كثيراً سوى أنه رباهن على الصلاح وعلمهن مبادىء العلوم حتى أخذ بعضهن الشهادة الابتدائية التي هي غاية ما كانت تصل إليه فتاة في دمشق وقتذاك، كما شجع بعضهن على تعلم الخياطة وإتقانها[٢].

وخلف كذلك ثلاثة أبناء؛ ضياء الدين ومسلم وظافر. سلك

---

(١) المرجع السابق، المقدمة، الأعلام، ٣/٢٠٨.

(٢) ظافر، ١٩٣ ـ ١٩٦.

الأول مسلك أبيه، وجرى على طريقته في الأخذ عن الشيوخ، وقد صرفه أبوه لطلب العلم ليكون على مثاله، وكان ضياء الدين من الكادحين في سبيل الحفاظ على كرامة بيت العلم وإقامة أود أفراده، لكن الأقدار كتبت عليه أن يموت وهو دون الثلاثين[١].

وكان أخوه مُسَلَّم أقصر منه عمراً، وافاه أجله في الرابعة والعشرين بعدما نال شهادة الطب بأسابيع معدودة، وكان قدر عليه قبل ذلك أن يعيش يتيماً، فقد مات أبوه وهو في السابعة، ومع حداثة سِنِّه فقد عشق الفصحى حتى كان يستعملها في حديثه بين رفاقه الذين كانوا يعجبون كيف تتدفق على لسانه عذوبة دون إعراب ولا إسفاف ولا تقعر، يختار لكلامه منها السهل الممتنع. وكان مسلَّم نبيهاً بين رفاقه مع إتقانه العربية، مما دعا أستاذه الدكتور مرشد خاطر رئيس التحرير لمجلة المعهد الطبي العربي بدمشق أن يفسح له مجالاً على صفحاتها، فنشر بحوثاً لغوية منذ السنة الدراسية الأولى. وحدث لهذا الطالب مرة خلال درس السريريات أن نبّه أستاذه الدكتور ترابو Trabaud إلى حادثة شاذة لم ينتبه الأستاذ إليها، فكتب مقالاً عنها، نشر في مجلة أمراض البلاد الحارة التي تصدر في باريس، مصدَّراً باسم الأستاذ ترابو والطالب مسلَّم القاسمي[٢].

وآخر من نذكرهم من أفراد الأسرة القاسمية الأستاذ ظافر أصغر

---

(١) ظافر ٦٢٥، مكتب عنبر، ٧.

(٢) مكتب عنبر، ٧ ـ ٩.

أبناء أبيه، ولعله أصغر أولاده كلهم، إذ كان عمره يوم وفاة والده سنة وثلاثة أشهر، فنشأ يتيماً في رعاية أمه وكفالة عمه قاسم، تعلم في المدرسة الابتدائية، ثم تابع في مكتب عنبر وهي المدرسة الثانوية التي درس فيها أخوه مسلّم. وكان في أثناء ذلك كإخوته يتلقى العلوم الإسلامية والعربية على تلامذة أبيه، ومنهم عمه المذكور في حلقات خاصة. والتحق بعد ذلك بكلية الحقوق في دمشق، وتخرج بها عام ١٣٥٥هـ=١٩٣٦م، فاشتغل بالمحاماة ثلاثين سنة، وانتخب نقيباً للمحامين سنة ١٣٧٤ـ١٣٧٥هـ = ١٩٥٤ـ١٩٥٥م. وكانت له مشاركات في مؤتمرات حقوقية. وشغل منصب نائب الرئيس لمنظمة المحامين الدولية. انتخب عضواً مراسلاً للجمعية الدولية للعلوم التاريخية، كما اختير مستشاراً لوزارة التجارة والصناعة السعودية عام ١٣٨٦ـ١٣٨٧هـ= ١٩٦٦ـ١٩٦٧ . ومنذ هذا العام كان أستاذاً لتدريس العلوم العربية والحضارة الإسلامية في كلية التربية وكلية الآداب بالجامعة اللبنانية.

ترك ظافر عدداً من المؤلفات في الأدب والتاريخ والتراجم والقانون، عرفنا منها «مكتب عنبر: صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية»، «فصول في اللغة والأدب»، «وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى»، «جمال الدين القاسمي وعصره»، «نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي: الحياة الدستورية»، «غزل من الصحراء: يزيد بن الطثرية». «نظرات في الشعر الإسلامي والأموي»، «الحياة الاجتماعية عند العرب»، «نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي: السلطة القضائية».

حقق كتاب «قاموس الصناعات الشامية»، وقدم له مقدمة وافية مهمة بالعربية والفرنسية. وعُرِفت له مؤلفات بالفرنسية؛ «مساهمة الطبقات الشعبية في الحركات الوطنية التي أدت إلى الاستقلال: سورية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين»، «الهجرة من سورية وإليها منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى اليوم». وكلا الكتابين قدم إلى الجمعية الدولية للعلوم التاريخية[١].

وبعـــد:

فهذه هي الأسرة القاسمية منذ استقر جدها في دمشق وتفرعت فيها أسرته، عرضناها على نحو سريع مما يفيد في دراستنا لقلادة عقدها العلامة محمد جمال الدين القاسمي.

ولقد تحلت هذه الأسرة ـ التي قال عنها عبد الحفيظ الفاسي بـأنهـا «بيـت شـرف وعلـم ومجـد وفضـل[٢]» ـ بصفـات ميـزتهـا وأبرزتها، فهي كما رأينا قد حازت النسب الشريف الذي ينتهي طرفه إلى الحسن بن علي بطريق الشيخ عبد القادر الجيلاني، وطرفه الآخر إلى أخيه الحسين رضي الله عنهما.

ولم تكتف الأسرة بشرف النسب، بل جمعت إليه فضل العلم، فأخذ به أفرادها، وانكبوا عليه صغاراً يرتوون من حياضه وينهلون

---

(١) استخلصت ترجمة ظافر القاسمي من كتابه مكتب عنبر ومن الأعلام: ٣/٢٣٦، ومن نشرة وزعتها الجمعية الدولية للعلوم التاريخية، عام ١٩٨٤.

(٢) معجم الشيوخ: ١/١٧٨.

من منابعه، وخدموه كباراً يُعَلِّمونه وينشرونه ويدعون إليه، حتى كان عنوان أسرتهم الأول منذ حل جدّها أبو بكر قاسم بن عمر في بلدة (دير عطيه) في القلمون قادماً من بغداد كما رأينا، وتابعت ذريته طريقه من بعده.

وقد أخذت الأسرة في دمشق بحظٍّ من التصوف عظيم، وليس في ذلك غرابة ما دامت تنتسب إلى الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني، وقد رأينا كيف سلك قاسم بن صالح طريق النقشبندية، ولعله كان تلميذاً من تلاميذ الشيخ خالد النقشبندي، ولا أدل على ذلك من اتصاله بخلفائه من بعده اتصالاً وثيقاً، وقد رأيناه يزوج بناته من اثنين من هؤلاء الخلفاء. ولا يكتفي قاسم بطريقة واحدة بل يضم إليها القادرية والرفاعية يأخذهما عن شيخين من كبار الشيوخ يبايعهما.

ولم يعزف جمال الدين نفسه عن التصوف أول أمره، فكان أحد المريدين النابهين عند الشيخ محمد الخاني (من كبار النقشبنديين الشيوخ) ثم كان له من بعد ذلك شأن آخر مع التصوف، سنعرفه في الفصول التالية إن شاء الله.

ونلاحظ من جملة الملاحظات على أفراد الأسرة القاسمية أنهم لم يكونوا يتصلون بالحكام ولا بالكبراء ولا بالأعيان. بل إن بعضهم كالشيخ محمد سعيد كان ينكمش عن غشيان مجالس الوجهاء ولا يلبي دعواتهم، في حين لم يفكر ابنه جمال الدين ـ كما سنرى ـ في المطالبة بوظيفة أو الحصول على امتياز إلا ما كان يأتيه عرضاً. وأما قاسم بن صالح فكان «له ولع بالانقباض

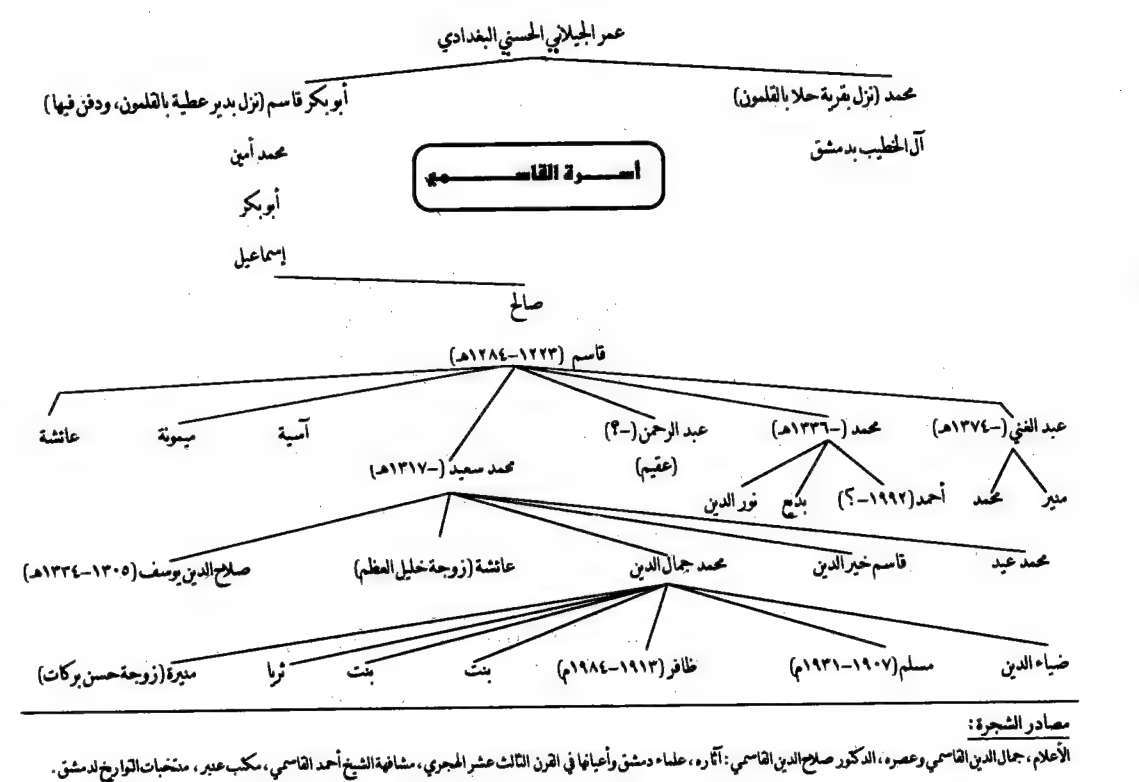
عن أهل الرسوم». وما كان ذلك منهم جميعاً إلا لأنهم يبتغون الحفاظ على عزة العلم وترك التدبير اعتماداً على الله.

في هذه الأسرة نبتت شخصية محمد جمال الدين القاسمي، وفيها تفتحت، واكتسبت صفات معينة اتصف بها.

(انظر شجرة عائلة القاسمي في الصحيفة التالية)

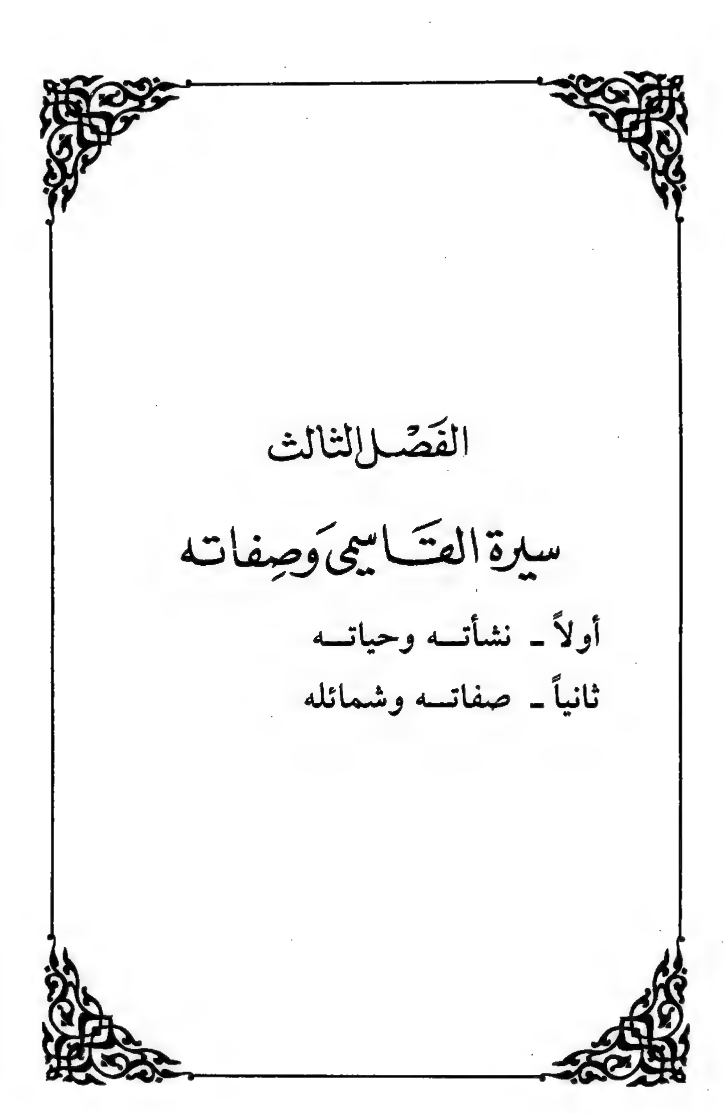


تصغر صحيفة شجرة العائلة وتوضع في هذا المكان



مصادر الشجرة:

الأعلام، جمال الدين القاسمي وعصره، الدكتور صلاح الدين القاسمي: آثاره، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري، مشافهة الشيخ أحمد القاسمي، مكتب عنبر، منتخبات التواريخ لدمشق.



الفصل الثالث

سيرة القاسمي وصفاته

أولاً - نشأته وحياته

ثانياً - صفاته وشمائله

سيرة القاسمي وصفاته

أولاً ـ نشأة القاسمي وحياته:

حينما كانت شمس يوم الإثنين، الثامن من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٨٣هـ الموافق للسابع عشر من شهر سبتمبر/ أيلول عام ١٨٦٦م ترتفع قليلاً بعد شروقها كان بيت الشيخ قاسم الحلاق في زقاق المكتبي بمَحَلَّةِ القنوات(١) يشهد حركة غير عادية في الوقت الذي عاد فيه الشيخ الجليل لتوّه من صلاة الفجر بعد أن أمَّ الناس بجامع السنانية عند باب الجابية، وقد أَهَمَّه ما كان يشغل النسوة المجتمعات في مخدع(٢) كِنَّتِهِ التي أخذها المخاض منذ السحر.

سمع الشيخ أنين النفساء الذي كان يشق السكون في لحظة حرجة ألجم الجميع وأربكهم.. فأخذ يدعو لها بالسلامة وهو جالس يتململ في الإيوان المطل على ساحة الدار الشامية الطراز الفسيحة الأرجاء التي تميس فيها أشجار النارنج والكبّاد والليمون

(١) ظافر، ٢٢؛ قاموس الصناعات: ٢/ ١٩١.

(٢) المخدع: من فصيح العامي، غرفة صغيرة. المصباح المنير: خ د ع.

متناثرة في أرجائها حول البركة المتدفقة بماء نهر قنوات أحد فروع بردى الكبير[1].

وفجأة سمع الشيخ بكاء الوليد، فتهلل وجهه وحمد الله متلهفاً لسماع البشرى وعينه على باب المخدع الذي ما لبث أن فُتح وأطلت منه إحدى الصبايا، هرعت مسرعة إليه، فأحنت على يديه تقبلهما بإجلال.. وبشرته بمولود ذكر.. فخر ساجداً لله، شاكراً على ما أولاه من نعمه وعطاياه.. فهذا أول حفيد عرفه من أكبر أبنائه محمد سعيد. وأين هو محمد سعيد؟ لِمَ تأخر إلى هذه الساعة!.. ها هو ذا يأتي متشوقاً حينما كانت القابلة قد جهزت الوليد، فقدمته إليه، فحمله إلى جدّه، فوضعه في حجره.. ونظر إليه بحنان فياض، ودعا له بما يرجو حصول بركته.. وسماه محمد جمال الدين[2]. وكناه أبا الفرج.

وبين تلك الأسرة التي عرفناها، وفي ذلك البيت الدمشقي الهادىء المشبع جوه بحرمة الدين وجلاله وهداه وسلطانه ورقة أدبه وروائه وتهذيبه وصفائه.. وطلاوة الموسيقى وحلاوتها وعذوبتها ونشوتها نشأ الوليد[3].. وعيون المحبة من أبويه ترعاه.. ويزداد شغفهما به بعدما رأيا عليه مخايل النجابة وهي تظهر يوماً بعد يوم، حتى لفت أنظار من حوله وخصوصاً أنظار

---

(١) ظافر، ٢٢.

(٢) ظافر، المرجع السابق.

(٣) ظافر، ٢٠، ٢٣؛ قاموس الصناعات، المرجع السابق.

معلميه وأساتذته فيما بعد.. فكانوا يقولون: إن له مستقبلاً زاهراً ينتظره[١].

فلما بلغ الطفل سن التمييز سعى به أبوه إلى مكتب (كتّاب) في القنوات قبالة جامع الشاذبكية يقوم عليه مؤدب لتعليم الأطفال القرآن الكريم، يدعى الشيخ عبد الرحمن بن علي بن شهاب المصري نزيل دمشق، فعلَّمه الترتيل والتلاوة، وكان يقوم عليه خير قيام، مع من يقوم عليهم من أطفال المحلة[٢].

وبعدما أوفى على ختم الكتاب العزيز صَحِبَهُ والده إلى الخطاط الشيخ محمود بن محمد بن مصطفى القوصي نزيل دمشق، وهو أحد صلحاء الأتراك وكرامهم، فانخرط في جملة الذين كانوا يجوِّدون الخطّ عليه في تربة درويش باشا في القبة التي على الساباط جوار جامع الدرويشية على الجادة، حيث كان يسكن هذا الخطّاط، فبقي عنده ثلاث سنين، فما جاءت سنة ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م حتى أتقن قلم الرقعة والقلم الفارسي[٣].

وانتقل به والده إذ ذاك إلى مكتب (مدرسة) في تربة الملك الظاهر كان في إيوانها القبلي، فقرأ عند الشيخ رشيد قزيها المعروف بابن سنان[٤]. مقدمات في علوم شتى قراءة جد واجتهاد،

---

(١) استانبولي، ١٧.

(٢) ظافر، ٢٤؛ قاموس الصناعات: ٢/ ١٩٢؛ تاريخ علماء دمشق: ١/ ١٥١.

(٣) ظافر، المرجع السابق.

(٤) صوفي شاذلي شاعر، برع في أساليب التعليم، وأتقن علوم العربية =

من توحيد وصرف ونحو ومنطق وبيان وعروض وسوى ذلك[1].

ولم يكتف والده بما كان يلقاه جمال في مكتب أستاذه، بل ضمه إلى حلقة جمعت طلاباً من أنداده، أخذ يقرئهم فيها مختصرات الفقه والنحو، يشرع بها في دارهم قبل أن يغدو ولده في الصباح إلى الظاهرية، ويقيم مثلها في الحديث إذا راح في المساء، يعقدها لهم في جامع السنانية[2].

حتى إذا كبر هذا الصغير الذي كان نحيل الجسم كبير الروح[3]، وتقدمت به أيامه، وصح له أن يتردد على حلقات كبار المشايخ الخاصة، قصد الشيخ أحمد الحلواني الكبير[4] شيخ قراء الشام، فجوّد عليه القرآن المجيد، قرأ عليه ختمة، ثم قرأ كذلك عليه أكثر من نصف ختمة أخرى على رواية حفص عن عاصم. وحضر دروسه في الميدانية وشرح الجزرية لشيخ الإسلام مرتين، وللشيخ خالد الأزهري مرة، وقرأ عليه معظم شرحه على منظومته في التجويد المسمى «اللطائف البهيّة». كل ذلك في صباحات أيام الثلاثاء والجمعة، ما عدا حصة قراءة من التنزيل العزيز، كان

= والأصول، توفي سنة ١٣٣٣هـ. انظر تاريخ علماء دمشق: ٣١٦/١.

(١) ظافر، المرجع السابق؛ قاموس الصناعات، المرجع السابق.

(٢) ظافر، المصدر السابق.

(٣) استانبولي، ٤٩.

(٤) قارىء جامع، انفرد بعلم القراءات في جميع بلاد الشام وأحيا الله به هذا العلم بعد اندراسه فيها. توفي بدمشق سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م. انظر للتوسع في ترجمته تاريخ علماء دمشق: ٧٨/١.

يقصده من أجلها عند كل صباح. وقد لازم قراءته عليه مدة تزيد عن ثماني سنين[1].

وإذ ينتهي الفتى من حصته الصباحية تلك مستفتحاً بها يوماً مباركاً طيباً، فإنه يغادرها إلى باب السلام داخل السور، حيث دار الشيخ سليم العطار[2] أحد أجلة العلماء الدمشقيين، فيقرأ عنده في الكتب التي درج أهل العلم بالشام على إقرائها، فحضر عنده في شرح شذور الذهب لابن هشام مع مراجعة الحواشي، وفي شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وشرح قطر الندى للفاكهي، ومختصر السعد، وجمع الجوامع وتفسير القاضي البيضاوي، وكتاب الشنشوري مع مطالعة حواشي كل أولئك. وحضر عنده كذلك في حصص من حواشي البجيرمي على كتاب الإقناع، وقرأ عليه الأربعين العجلونية، وأسمعه الدور الأعلى للشيخ محيي الدين بن عربي، كما حضره في حصة وافرة من صحيح الإمام البخاري رواية. وسمع من شيخه العطار أيضاً مجالس من صحيح البخاري دراية في الجامع الأموي ليلة الثلاثاء والجمعة بين العشاءين، وفي خميس رجب وشعبان بالتكية السليمانية سنين عديدة. وبالإضافة إلى ذلك قرأ عليه بمشهد الحسين بن علي رضي الله عنهما من الجامع الأموي في رمضان، وخاصة بعد صلاة

---

(١) ظافر، ٢٥؛ قاموس الصناعات، المرجع السابق؛ تاريخ علماء دمشق ١/ ٨١.

(٢) توفي سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م. وانظر للتوسع في ترجمته تاريخ علماء دمشق ١/ ٨٩ وما بعد.

العصر أسفاراً، منها بعض موطأ الإمام مالك وكتاب الشفا للقاضي عياض بتمامه، ومعظم كتاب مصابيح السنّة، وكتاب الجامع الصغير، وكتاب الطريقة المحمدية، وغيرها من الكتب الأمهات[1].

وما بلغ الفتى الثامنة عشرة حتى كتب له شيخه هذا إجازة عامة بجميع مروياته مذيّلة بتاريخ سنة ١٣٠١هـ = ١٨٨٣م. ولعلها كانت أول إجازة مكتوبة تصل إليها يده من عالم يشار إليه في دمشق بالبنان[2].

ويتذوق الفتى حلاوة العلم، ويجري في دمائه حبه، فيملأ نهاره كله بالقراءة والدرس والتلقي عن الشيوخ، يطوف على حلقاتهم.. ويبحث عن كبارهم مستعيناً بتشجيع أبيه الذي كان لا ينقطع عن الدعاء له وإهدائه الكتب وتنشيطه شعراً بأبيات يوجهها إليه أو نثراً برسائله. ولقد كتب الفتى في تلك المرحلة من عمره يقول: «كان سيدي الإمام الوالد رضي الله عنه حينما يراني مواظباً على دروسي ومطالعتي يزداد في دعواته الصالحة للفقير، وينظم في رضائه عني أبياتاً يشوقني في دوام الاجتهاد. وأما دعواته النثرية لي في مكاتباته فلا تحصى. وأعظم شيء عندي من جليل أدعيته قوله لي في أغلب الأوقات: الله يرضى عليك كما رضي على الصدِّيق، وفي جمل غيرها متنوعة..» فأعانه ذلك كله على نشأة صحيحة صالحة، لم يعرف فيها لهو الفتيان إلا بالقدر

(١) ظافر، ٢٥؛ قاموس الصناعات، المرجع السابق.
(٢) ظافر، ٢٦.

المشروع، ولم يستمله من مفاتن الشباب ما يمكن أن يحرفه عن الطريق القويم[1].

ثم قاده بحثه سريعاً إلى حلقة الشيخ بكري العطار[2]، فأخذ يَعبُّ مما يلقى فيها من علوم متعددة، وينهل من كتب كانت نفسه المتوثبة تشتاقها، فقرأ عليه شرح الشافية في الصرف للسيد عبد الله بتمامه وشرح العزّي على كتاب السعد، وشرح لامية الأفعال لبحرق وكتاب إيساغوجي في المنطق، وشروحه للفناري ولشيخ الإسلام، وكتاب مغني الطلاب، وكتاب المقصود، وشرح الشمسية للقطب مع حواشيه للسيد، ومراجعة حواشيه للسيلكوتي. وإلى جانب هذه الكتب كلها حضر عليه في حصص من كتاب المُلاَّجامي مع حواشي العصام، وكتاب مغني اللبيب، ومختصر السعد، والتحرير في اللغة، وكتاب شذور الذهب، وحواشي السمرقندية في البيان، وحواشي السنوسية، وجوهرة التوحيد. وسمع منه حصة وافرة من صحيح البخاري، ومعظم صحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، والشمائل للترمذي، وغيرها من الكتب. وقد حظي من شيخه العطار الثاني بإجازة مكتوبة كذلك، عليها تاريخ غرة المحرم من سنة ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م[3].

---

(١) المرجع السابق، ٢٣، ٢٦، ٣١.

(٢) توفي سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م وانظر لترجمته تاريخ علماء دمشق ١/ ١٩٧؛ حلية البشر ١/ ٣٧٢؛ منتخبات التواريخ ٢/ ٧١٤؛ تعطير المشام (خ) ق ٧١ ـ ٧٨؛ الأعلام الشرقية ٢/ ٩١.

(٣) ظافر، ٢٦.

وإذ يسمع بما عند الشيخ محمد الطنطاوي[1] من تميزه بعلم الفلك وسبقه فيه، فإنه يسعى إليه يعبُّ من علمه ويكتب عنه التعليقات الدقيقة والفوائد الجليلة في ذلك العلم حتى يعي منه ما يعي. ويقرأ عليه كذلك رسالة الأمير في فضل عاشوراء، ويدوِّن له بخطه إجازة عامة[2].

وتاقت روح الفتى إلى نهج آخر بعدما أخذ حظاً وافراً من العلوم، فأحب أن يجرب صنفاً مختلفاً من الشيوخ، فانتجع واحة الشيخ محمد بن محمد الخاني[3] شيخ المتصوفة النقشبندية الذي ذاع صيته. وقد لقي عنده الفتى الرقيق الحاشية الذي لم يجاوز الرابعة عشرة ما لم يلق عند غيره؛ ذلك أنه لقنه الذكر على الطريقة النقشبندية، فأقبل عليها كسائر الطلاب، ولازم مثلهم حلقته مدة، وقرأ عليه في عدد من كتب التصوف، منها لطائف الأعلام للقاشاني، وشرح نصوص الحكم لملاّجامي، والمواقف للأمير عبد القادر الجزائري، وبعضاً من شرح مواقع النجوم، وغير ذلك.

---

(١) انظر لترجمته تاريخ علماء دمشق ١/ ٧٣؛ حلية البشر ٣/ ١٢٨٤ - ١٢٨٨، منتخبات التواريخ ٣/ ٧٦٥؛ النعت الأكمل ٣٧٦ - ٣٧٨؛ الأعلام الشرقية؛ ٢/ ١٧٥؛ معجم المؤلفين ١٢/ ٣٧؛ تعطير المشام (خ) ق ٨ - ١٤.

(٢) ظافر، ٢٩؛ استانبولي، ١٦؛ تعطير المشام، المرجع السابق.

(٣) انظر لترجمته تاريخ علماء دمشق ١/ ١٥٢؛ حلية البشر ٣/ ١٢١٥؛ منتخبات التواريخ ٢/ ٧٦٦؛ تعطير المشام (خ) ق ٢٣ - ٢٤.

وحضر عنده في كتاب البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية[1].

ولم يقتصر أخذه عن شيخه الخاني على التصوف، بل اغتنم ما عنده من علوم. على أنه جاءه وفي جعبته حصيلة من علوم لا يستهان بها ولذا فقرأ عليه كثيراً من الحواشي التي لا يقرؤها عادة إلا متقدمو الطلاب وكبارهم؛ فدرس عليه حاشية الخضري على الملوي على السمرقندية، وحواشي الصبان على العصام على السمرقندية، وحواشي ابن أبي شريف على العقائد، ونصف حاشية الصبان على الأشموني، وحاشية الأمير على عبد السلام بتمامها. وهذه قرأها قراءة تحقيق وإتقان، وعلّق عليها تقريراته. كما حضر عنده في حواشي عطية على شرح المنهج، وفي حواشي ابن سليمان على شرح الحضرمية، وفي حاشية الخضري على الشنشوري، وفي حاشية عطية على شرح البيقونية في مصطلح الحديث، وفي حاشية العطار على شرح المعقولات، وفي شرح جمع الجوامع مع مراجعة حواشيه، وفي حاشية الصبان على شرح آداب البحث[2].

ولقد سمع منه في الحديث الشريف أبواباً كثيرة من صحيح البخاري، ومن شرحه للقسطلاني، ومن الموطأ، وشرحه للزرقاني، ومن سنن أبي داود مع حاشيته للسندي، ومن سنن الترمذي. كما سمع عليه من الأربعين العجلونية، ومسلسلات ابن عقيلة[3].

---

(١) ظافر، ٢٧، ١٨٨.

(٢) ظافر، ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) ظافر، ٢٧.

وكان الفتى الشاب الذي بدأ يستحكم علمه أثيراً عند الشيخ الخاني، كما كان الشيخ الخاني أثيراً لدى نفس الفتى، وقد وصفه مرة بأنه من أجلاء مشايخه. وقال فيه مرة أخرى: «من أفضل أشياخي الذين انتفعت بمجالسهم وتأدبت بآدابهم واغتبطت بصحبتهم»[(١)].

ولما كان الشيخ الخاني صوفياً يعنى بتربية المريدين فقد كان يوجه للفتى ملاحظات على سلوكه؛ حضر يوماً عنده في أثناء برد الشتاء القارس متلفع الرأس بكوفية من صوف، فسأله الشيخ متعجباً: ما هذا يا جمال؟ فأجاب الفتى: إنها (حَطّة) يا سيدي [على تسميتها عند الدمشقيين] فقال الشيخ مداعباً: بل هي حِطَّة. وفهم مراد شيخه الذي كان يريد أن يدربه على الاحتمال فنزعها عنه وحطها عن رأسه نزولاً عند نصيحته، ومنذ ذلك اليوم أخذ يدرب جسمه على الاحتمال.. وكان يؤثر عنه قوله: اجعل جسمك كله مثل الوجه. أما ترى فيه جميع الحواس الدقيقة وهو مع ذلك يستطيع مواجهة البرد القارس ولا يتأثر.. ويرى في ذلك طرحاً للخمول وابتعاداً عن الكسل[(٢)].

وكان الطالب معجباً بأستاذه لأخلاقه التي كتب يصفها: «وكان مفرداً في اللطف والبشاشة ومؤانسة الجليس، موصوفاً بالعقل الوافر، قوي الفراسة، كثير الحلم، لا تأخذه حدة، محبباً لدى

---

(١) ظافر، المرجع السابق.

(٢) ظافر، ١٨٨.

الخاصة والعامة، عنده جمعية وافرة يوم الثلاثاء والجمعة في جامع المرادية لإسماع الحديث، فيجلس لديه عدد من عيون الطلبة وغيرهم، على وقار وهيبة إلى انتهاء الدرس»[١].

ومع هذا كله فقد كتب في مذكراته يقول عنه: «ثم تركت حلقته لأمر ما»[٢]. ولم يصرح فيما بعد ما هذا الأمر الذي أبعده عن شيخ كبير يحبه، ويشهد بعلمه وفضله، وتوافيه عيون الطلبة للأخذ عنه. وقد نضج علمه هو عنده وترقى على يديه.. كما لم يُعرف رأي الشيخ كذلك في ترك طالب له قدره.. ما سببه.. ما تاريخه بالضبط.. وأية حادثة مباشرة خطيرة تلك التي أدت إليه؟!..

ولكن الفتى مع هذا ظل يشيد بفضل شيخه، ولا ينقطع عن زيارته حتى انتقال هذا الأخير إلى دار البقاء. وكانا كلما اجتمعا يأنس أحدهما بالآخر، ويتفقد أحواله. كما كان الشيخ نفسه يتودد لتلميذه العالم ويعظمه وخصوصاً في آخر أمره.. وكثيراً ما كان يقصد القاسميَّ وأباه بالزيارة التي تحمل الود والمحبة[٣].

ولعل الخاني ـ على مخالفة تلميذه لرأيه كما نرجح ـ كان يرى في الشاب ما لم يكن يراه في غيره من الطلاب الكثيرين والمريدين الذين كانوا يترددون عليه من أنحاء الشام. ولهذا فكان يخصُّه بالمحبة والزيارة، ولهذا أيضاً كان يحثه دوماً على التأليف

(١) تاريخ علماء دمشق، ١/ ١٥٤.

(٢) ظافر، ٢٧.

(٣) ظافر، ٢٨.

والكتابة، مع أن المعروف عن علماء دمشق وخصوصاً في القرن الرابع عشر وما قبله عزوفهم عن التأليف اكتفاءً بما بين أيديهم من كتب، كانوا يعدونها المثل الأعلى في العلوم، ويعتقدون جازمين أنها تغني عن كل جديد يجدّ. وكان الواحد منهم يمضي عمره في قراءتها وإقرائها، لا يستبدل بها سواها. وهذا ما أخذه الشاب عليهم فيما بعد، فوجَّه إليهم سهام نقده. ولكن الخاني قد يكون رأى بثاقب نظره الذي ينظر فيه بنور الله سبحانه وتعالى ـ وهو ذو حدس وفراسة كما يقول تلميذه ـ فرأى مخايل نجابة في إهاب التلميذ، يمكن أن تنفع العلم وتفيد المتعلمين والدعوة، وأنه يمكن كذلك أن يصنع ما لا يستطيع غيره أن يصنع[١].

ومن البديهي أن ينتفع القاسمي بعلماء أسرته مثلما انتفع بوالده من قبل، فها هو ذا يتردد على حلقة قريبه الشيخ حسن بن أحمد جبينه[٢] خال والده وتلميذ جده قاسم فيتفقه بفقهه، يسمع منه كتاب الشمائل للترمذي والأربعين النووية وغير ذلك، ثم يتوّج قراءته عليه بإجازة عامة يكتبها له، كما كتب له مثلها أشياخه من قبل[٣].

وتأثر الشاب بقريبه هذا في أسلوب حياته وأخلاقه وجميل طبائعه، ولذا كتب يقول فيه: «وقد انتفعت بصحبة هذا الأستاذ، وتهذبت بآدابه وإرشاداته ونوادره عن الأقدمين، وكان يحضُّ على

(١) تاريخ علماء دمشق، المرجع السابق؛ ظافر، ٢٨.
(٢) انظر لترجمته تاريخ علماء دمشق ١/ ٥٩؛ معجم المؤلفين ٣/ ٢٠١؛ حلية البشر؛ ١/ ٤٩٧؛ تعطير المشام (خ) ق ٦ ـ ٨.
(٣) ظافر، ٢٨.

الأخلاق الحسنة دائماً ودواعي رقة الحاشية. وله لطائف كثيرة ومحاسن غزيرة رحمه الله تعالى»[1].

ولقد حفل سجل القاسمي بكثير من إجازات كبار الشيوخ الدمشقيين الذين اعتز الشاب بالأخذ عنهم والتردد إليهم. فكان يقبل عليهم ويحبهم.. مثلما كانوا هم بدورهم يوسعون له في قلوبهم، وينزلونه المكانة التي يستحق. فكتب له مفتي الشام وعلّامته محمود حمزة[2] إجازة عامة بعدما تردد إليه في داره، وسمع منه حديث الرحمة المسلسل بالأولية. وقرأ عليه الأربعين العجلونية رواية عنه، عن مسند عصره الشيخ عبد الرحمن بن محمد الكزبري[3]، عن أحمد بن عبيد العطار[4]، عن إسماعيل

---

(١) ظافر، المرجع السابق.

(٢) انظر لترجمته تاريخ علماء دمشق ١/ ٥١؛ منتخبات التواريخ ٢/ ٧٦٨ ـ ٧٨٧؛ الأعلام الشرقية ٢/ ١٨٣؛ حلية البشر ٣/ ١٤٦٧، ١٦٥٦؛ تعطير المشام (خ) ق ٣ ـ ٤؛ معجم المؤلفين ١٢/ ٢٠٠؛ أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، ٢٤٨.

(٣) انظر لترجمته: علماء دمشق وأعيانها ٢/ ٤٨٨؛ حلية البشر ١/ ١٦٥؛ ٢/ ٨٣٣، فهرس الفهارس والأثبات ١/ ٤٨٥؛ منتخبات التواريخ ٦٦٦؛ أعلام الفكر، ٢٦٦؛ الأعلام ٣/ ٣٣٣؛ معجم المؤلفين ٥/ ١٧٧.

(٤) انظر لترجمته: علماء دمشق وأعيانها ١/ ١١٥؛ تاريخ حسن آغا العبد ١٧؛ تعطير المشام (خ) ق ٦؛ حلية البشر ١/ ٢٣٩ ـ ٢٤١؛ فهرس الفهارس ٢/ ٨٢٧؛ معجم المؤلفين ١/ ٣٠٧.

العجلوني جامع تلك الأربعين[1]. وأجازه أيضاً مفتي الشام طاهر بن عمر الآمدي[2].

وطمحت بعدئذ نفس الشاب إلى خارج بلده، فاستجاز نعمان خير الدين الآلوسي[3] من بغداد، فبعث إليه بإجازة بديعة[4]. وراسله بالإجازة من طرابلس الشيخ المربي محمد بن خليل القاوقجي[5]. وأجاز له من فاس الشيخ أبو المواهب جعفر الكتاني[6].

ولم يكن الشاب يكتفي بما عند شيوخه من علوم يدرّسونها وكتب يقررونها، وإنما كان يكبُّ على ما يصل إليه من مصنفات،

---

(١) انظر الفضل المبين؛ ٥٤ ـ ٥٥، وانظر لترجمة العجلوني: سلك الدرر ١/ ٢٥٩؛ هدية العارفين ١/ ٢٢٠؛ فهرس الفهارس ١/ ٦٤، ٢٦٩؛ وقد توفي سنة ١١٦٢هـ.

(٢) ظافر، المرجع السابق، وانظر لترجمة طاهر الآمدي تاريخ علماء دمشق ١/ ٢٨؛ منتخبات التواريخ ٢/ ٧٣٧؛ تعطير المشام (خ) ق ١ ـ ٢.

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٨/ ٤٢ نقلاً عن أعلام العراق ٥٧ ـ ٦٨؛ المسك الإذفر ٥١.

(٤) ظافر، ٢٩.

(٥) ظافر، المرجع السابق، وانظر لترجمته: الأعلام ٦/ ١١٨، فهرس الفهارس ١/ ٦٩، ٣٣٥، فهرس الخزانة التيمورية ٣/ ٢٣٧، فهرس المكتبة الأزهرية ١/ ٥٤٧، إيضاح المكنون ١/ ٩٨.

(٦) فهرس الفهارس ١/ ٤٧٧، وانظر لترجمته: الأعلام ٢/ ١٢٢، معجم المطبوعات ١٥٤٥، شجرة النور ٤٣٣، معجم الشيوخ ١/ ١٧٣، فهرس الفهارس ١/ ١٣١.

يطلع عليها اطلاعاً واعياً، يقرأ ما يقرأ، ويتأمل ما شاء الله له أن يتأمل، يقف هنا وهناك، يسجل الفوائد والملاحظات في دفتر أعده لها، ليعود إليها كل حين، أو يحتفظ في ذاكرته بما يعجبه منها. ولقد أصيب لما كان في الخامسة عشرة من عمره بمرض ألزمه الفراش ثلاثة أشهر، فصار يتسلى بمطالعة الكتب، وجمع وهو على تلك الحالة من فوائده وملاحظاته، مصنفاً كبيراً غريباً مملوءاً باللطائف والنوادر والأبيات الرائقة، سماه السفينة، نقل إليها ما أعجبه من كثير من الكتب الأمهات كالحيوان للدميري، والمفيد للسيوطي، والتبر المسبوك للغزالي، ودقائق المنهاج للنووي، والتذكرة للأنطاكي، والميزان للشعراني، وشرح العزيزي على الجامع الصغير، ووصايا شمس الدين العمري، ومختار الصحاح للرازي، والمستطرف للأبشيهي، وشرح شروط الإمامة، ومناهج الفكر ومناهج العبر، لمحمد بن إبراهيم الوطواط، وألف نادرة ونادرة، والطلعة في السبعة، وغيرها من الكتب[1]. التي قلما تصفَّحها أمثاله في مثل سِنِّه، أو وصلت إليها أيديهم.

ومن هنا فقد كانت نفس الرجل ومنذ سن مبكرة منفتحة على آفاق رحيبة، مما أكسبه شخصية متميزة في عصر اتسم الكثيرون فيه بالجمود، فلذلك كاد في ذاك العصر يكون متفرداً في تكوينه واستعداداته وفكره.

وأَلِفَتْ نفس الشاب جماعة من لداته صحبهم على علمِهم ونَيِّر

---

(١) ظافر، ٣١.

أفكارهم، فشرعوا يدرسون ويطالعون في مصنفات مفيدة، فانتفع بهم، كما استفادوا منه بوجوه من المعارف الدقيقة. وكان من أجلّ هؤلاء عبد الرزاق البيطار[1] الذي جمعته بالقاسمي صداقة خاصة، امتدت حتى أولاد هذا الأخير إذ كان سبطه محمد بهجة البيطار من أجلِّ تلامذة القاسمي[2]. ومن لداته هؤلاء وأصدقائه أحمد بن محيي الدين الحسني الجزائري[3] أخو الأمير عبد القادر، ربطته بجمال الدين اجتماعات وديّة ومجالس، صرفاها في المذاكرة بأهم المسائل وأدق المشاكل على محاورات ومراجعات في لطائف التحقيقات، ولم يكونا ينقطعان عن التزاور. فإذا نأت الدار بينهما حيناً تواصلا بالمراسلة[4]. كما كان من صحبه سليم

---

(١) سيأتي الحديث عنه في الفصل المتصل بعلاقات القاسمي، وانظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٣٤٠، حلية البشر، المقدمة بقلم سبطه محمد بهجة البيطار، و٣/ ١٤٤٦ ـ ١٤٤٧؛ مصادر الدراسة الأدبية ٣/ ٢٢٠؛ الأعلام ٤/ ١٢٥؛ الأعلام الشرقية ٢/ ١٢٥؛ معجم المؤلفين ٥/ ٢١٧؛ منتخبات التواريخ ٢/ ٧٦٠؛ مجلة المتقبس مج ٩، ج١/ ٨١ ـ ٨٣.

(٢) استانبولي، ١٦، وانظر لترجمته تاريخ علماء دمشق ٢/ ٩١٨، مجلة المجمع العلمي مج ٥٣، ج١. محمد بهجة البيطار: حياته وآثاره، عدنان الخطيب (كتيّب).

(٣) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق، ١/ ١٩٣، حلية البشر، ١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥، تعطير المشام (خ) ق ٦٥ ـ ٧١، الأعلام الشرقية ٢/ ٧٢، ٨٤، ٤/ ١٧٧.

(٤) ظافر، ٣٠.

البخاري[1]. وقد استفاد من الشيخ طاهر الجزائري علماً بنوادر الكتب وغرائب المسائل، وانتفع بنيّر عقله فأصفاه ودّه[2].

على أن صحبة الشاب لهؤلاء المتألقين، وتلمذته على ذلك النمط من الشيوخ الذين كانوا يمثلون الطبقة الأولى من أهل العلم في الشام آنذاك أثرت في نفسه التأثير العظيم، ووجهت حياته العلمية الوجهة المتفتحة التي أضاف إليها استعداده الفطري واستقلاله الوهبي، ففتح ذلك كله في نفسه أبواب البحث والتحقيق، وإذا به لا يقف عند المسلَّمات من التقاليد.. وإذا به كذلك يشعر بحاجة الأمة إلى الإصلاح المدني وإلى الإصلاح الديني[3].

وازداد غرامه بالكتب وهو يدرس بعضها دراسة تعمق وإتقان وخاصة الكتب الأمهات.. فأخذ يقتني ما يستطيع اقتناءه من إنتاج المطبعة العربية لعصره في استانبول ومصر والمغرب والهند والشام. إضافة إلى مواظبته على قراءة المجلات العلمية والتاريخية والأدبية كالمقتبس والمقتطف والهلال، والمجلات التي تصدرها الجمعيات

---

(١) استانبولي، ١٦، وانظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٤٣١، مصادر الدراسة الأدبية ٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥، الأعلام الشرقية ٤/ ٢٠١، أعلام الأدب والفن؛ ٢/ ١١٨، منتخبات التواريخ ٢/ ٨٤٤، مجلة المجمع العلمي مج٩/ ٧٤٢ ـ ٧٤٩، معجم المؤلفين ٤/ ٢٤٣، أعلام الفكر الإسلامي، ٢٩٣.

(٢) استانبولي، المرجع السابق؛ ظافر، ٤٢٥ ـ ٤٤١، ٥٠٩ ـ ٥٢١. وقد مرت في الفصل الأول ترجمة عنه.

(٣) استانبولي، المرجع السابق.

الدينية المسيحية كمجلة المشرق. وبالجملة فقد صرف اهتمامه إلى جميع المعارف الآخذة بالانتشار عازماً أن يتعلم في شبابه وكهولته ما فاته تعلمه في طفولته. فها هو ذا بعد أن تقدمت به سنه يتعلم الجغرافية والفلك على شابين أصغر منه، لأنه رأى ضرورة ملحّة لذلك[١].

على أن هذا الشاب الذي قطع هذا الشوط، وأخذ حظاً وافراً من المعرفة الشائعة في عصره لم يخلص للتلقي وحده، وإنما جمع إليه كذلك الإقراء المبكر، وهذا أمر عجب؛ فقد طُلب للتدريس وهو في نحو الرابعة عشرة. فقام به بالإضافة إلى تولِّيه وظيفة الإعادة في درس والده. ولم تذكر تراجمه منذا الذي دفعه إلى الإقراء وشجعه عليه. ولعل والده هو الذي أراد له ذلك من أجل أن «يتقوى بالإقراء» على العلم؛ لأن العلم يزكو على الإنفاق[٢].

بدأ بإقراء مقدمات العلوم، فكان له درس بعد صلاة المغرب في جامع السنانية، وعقد حلقة في شرح ابن القاسم على متن الغاية والتقريب في فقه الشافعية أقرأه مراراً. ولم يزل على تلك الحال حتى سنة ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م. وفي عامه هذا المذكور بلغ القاسمي العشرين، فأسندت إليه وظيفة الإمامة في جامع العنابة بحي باب السريجة، فاستمر بها حتى عام ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م حين توفي أبوه، فَأَمَّ الناس مكانه بمحراب جامع السنانية[٣].

---

(١) ظافر، ٧٩ ـ ٨٠؛ استانبولي، ١٩.

(٢) ظافر، ٣٥؛ قاموس الصناعات، ٢/ ١٩٢.

(٣) ظافر، ٣٥ ـ ٤٢.

وفي هذه الأثناء وعلى وجه التحديد في منتصف ذي الحجة من عام ١٣٠٧هـ = ١٨٨٩م يفرح أبوه بزواجه من فاطمة بنت محمد أبو قورة أحد كرام التجار المتعاملين مع العشائر. ولم نعرف كثيراً عن حياته الخاصة معها سوى أنها كانت امرأة كغالب نساء دمشق في عصرها، أميّة لا تقرأ ولا تكتب. فعلَّمها زوجها ما يجب عليها معرفته من أمور دينها، وحفَّظها شيئاً يسيراً من القرآن الكريم، وسمعت منه بعض الفوائد فوعتها وحفظتها[١].

فلما كان للرجل ست وعشرون سنة بحلول عام ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م عُرِف في البلد عالماً يقر له العلماء، ويختاره أعضاء مجلس إدارة الولاية مع نفر من العلماء، ليتولوا وظائف تدريس وإرشاد ووعظ في الأقضية السورية خلال شهر رمضان. واجتمع هؤلاء بالوالي عثمان نوري باشا، فتذاكر معهم سبب إحداث هذه الوظائف. ولعل القاسمي كان أشد اندفاعاً من كل أحد فيهم، لأنه كان يرى في هذا التكليف طريقاً مهماً للدعوة ولنشر العلم الذي أخذ نفسه على حمله وتبليغه للناس كافة دون نظر إلى ما يحصل له من نفع بسببه وهو ألفا قرش، مكافأة مجزئة تعادل عشرين ليرة ذهبية[٢].

وإذ اختار قضاء (منطقة) وادي العجم، فقد سافر إلى قراه الكبرى منذ أول الشهر المبارك، وأخذ يبث دروسه العامة فيها. واهتبلها فرصة فألَّفَ كتاباً، وصف فيه مشاهداته وأعماله، سماه

---

(١) ظافر، ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) ظافر، ٣٦.

«بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم»[١].

وتكررت دعوة الحكومة في العام التالي، واختار هذه المرة قضاء النبك وفعل مثلما فعل في الأولى، ووضع كتابه «حسن السبك في الرحلة إلى قضاء النبك»[٢].

وفي السنتين التاليتين كان نصيبه في بعلبك، وكان فيهما آخر عهده بمثل هذه الوظيفة، إذ ألغتها الحكومة لكثرة المتقدمين إليها[٣].

وقد وقع له في هذه السنة الأخيرة قبيل سفره إلى بعلبك وهي سنة ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م محنة سماها «حادثة المجتهدين» كان لها كما يقول ولده: «أكبر الأثر في توجيه تفكيره، وفي طريقة التأليف ومواعظه ودروسه العامة، لا بل يمكن أن تعدّ هذه الحادثة أعظم حادثة تتعلق بالحياة الدينية والفكرية في ذلك العصر»[٤].

وكان سبب الحادثة أنّ القاسمي أخذ مع فريق من علماء دمشق المتنورين يجتمعون للمذاكرة في حلقة تضم عدداً محدوداً انتهت بعشرة منهم جمعهم حب العلم والإخلاص له وحرية العقل والبحث، وكانوا يقرؤون كتباً منها كتاب كشف الغمة للشعراني[٥].

وحدث أن حساداً ومفسدين اندسوا بينهم، سعوا فيهم،

---

(١) ظافر، المرجع السابق، وانظر في مؤلفاته الكتاب المشار إليه.

(٢) ظافر، المرجع السابق.

(٣) ظافر، المرجع السابق.

(٤) ظافر، ٤٣.

(٥) ظافر، ٥٤.

واختلقوا عليهم ما لم يكن، وجعلوا ينشرون بين الناس أخبارهم، يتزيدون فيها، حتى سماهم الناس «جمعية المجتهدين»، ونسبوهم إلى جمال الدين زاعمين أنه يدعو إلى مذهب خاص، يسمى المذهب الجمالي.. وحتى وصل خبرهم إلى الوالي عثمان نوري باشا فأكبر أمرهم، وأهمه شأنهم، فذاكر المفتي محمد المنيني[1] في موضوعهم

(١) لم يذكر القاسمي في كتابته عن الحادثة اسم محمد المنيني، وإنما أشار إليه بقوله المفتي. والمنيني هذا فقيه محدث عالم، قرأ على أجلة العلماء وأقرأ في العادلية الكبرى بباب البريد وتولى وظيفة تدريس صحيح البخاري تحت قبة النسر وحصة من الخطابة في الجامع الأموي، وكان عضواً في محكمة الاستئناف ورئيساً لمحكمة الحقوق بدمشق، فاستمر بها خمسة عشر عاماً. ترأس لجنة إعمار الجامع الأموي بعد احتراقه عام ١٣١١ (انظر تاريخ علماء دمشق ١/١٥٧، وحلية البشر ٣/١١٨٣، أعيان دمشق ٣٧٨، منتخبات التواريخ ٢/٧٨٨، عرف البشام ٢٢٦، الأعلام الشرقية ٢/٧٨٨) وما كان لمثل هذا المفتي أن يفتئت على القاسمي وصحبه ويعاملهم بقسوة لولا الظروف التي قامت حول القضية فيما يبدو من ضغط الوالي من جهة ومن هياج بعض الوجهاء والعلماء من جهة أخرى، وإلى ذلك أشار القاسمي في مذكراته بقوله: «ونحن لا ننكر أن كثيراً من الأعيان أغروا المفتي علينا، بل الأغرب ما وشى له بعض من يخلص الحب ظاهراً إلينا. ولقد قال له بعض المشايخ المتصدرين: إن هؤلاء إن دام جمعهم لا نأمن أن يردوا فتوى المفتي إذ إنهم يناقشون الأقدمين. كما أن بعض المشهورين قال له: لو كان المفتي الحمزاوي حياً ماجسر أحد على دعوى الاجتهاد، وقد مات من كان يغار على مثل هذا الحال من الأمجاد (مفكرات القاسمي من كتاب ابنه ظافر، ص٦٣) وقد تراجع المفتي فيما بعد وصالح الجماعة.

يوم اجتماع مجلس الإدارة، فعقد لهم هذا مجلساً خاصاً في المحكمة الشرعية برئاسته، وأخبرتهم الشرط بوجوب حضورهم يوم السبت ١١ شعبان[١].

ووجهت التهمة فضلاً عن القاسمي إلى كل من عبد الرزاق البيطار، وسليم سمارة، وتوفيق الأيوبي، وأمين السفرجلاني، وسعيد الفرا، ومصطفى الحلاق، وأحمد الحسني الجزائري[٢]. ولكن الأخير لم يدع إلى المحاكمة، لمكانة أخيه الأمير عبد القادر من الدولة الفرنسية، مع أنه من الجماعة. وضموا إليهم الشيخ بدر الدين الحسني[٣]، وليس هو منهم ولا من جمعيتهم، ووجهت إليه تهمة تحريمه الدخان، وذمه ترك العمائم، وتشنيعه على المحاكم التي تحتال في الربا، وقوله: إن الخلافة صارت ملكاً عضوضاً. في حين اتهم توفيق الأيوبي بالحكم على أعيان المشركين بالنجاسة. أما بقية المذكورين فأُخذ عليهم أنهم يعدون أنفسهم مجتهدين وأنهم يجتمعون

---

(١) ظافر، ٤٨، ٥٣.

(٢) انظر لمعرفة هؤلاء العلماء الفصل المتصل بعلاقات القاسمي.

(٣) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٤٧٣ ـ ٤٩٤؛ المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني، ليسرى دركزنلي؛ عالم الأمة وزاهد العصر، لمحمد رياض المالح؛ حلية البشر ١/ ٣٦٢ـ ٣٦٤؛ مجلة حضارة الإسلام، السنة الرابعة وما بعدها، ٨١٧، وما بعدها؛ مصادر الدراسة الأدبية ٣/ ٣١٦؛ الأعلام ٨/ ٣٨؛ الأعلام (سلسلة رسائل الجامعة) رقم ١٣، لسعيد الطنطاوي؛ معجم المؤلفين ١٢/ ١٣٩؛ رياض الجنة للفاسي ٢/ ١٦٥؛ معجم المطبوعات، ٦٠٨.

على قراءة الحديث الشريف لاستنباط الأدلة، وأنهم يبحثون في أقوال الفقهاء يطلبون عليها الأدلة. إلى غير ذلك مما نسب إليهم[1].

ويبدو أن الذي زاد الطين بلة وأدى إلى حنق الوالي عليهم قول الشيخ بدر الدين عن الخلافة ذلك القول الذي يمس الدولة في كيانها ويهزها هزاً. وقد ظنّ الوالي أن هؤلاء كلهم متعاضدون معه على قوله ذاك. ومع ذلك فحينما اعتذر الشيخ بدر الدين عن عدم الحضور متعللاً بانشغاله لم يجرؤ أحد على إجباره، رغم أنهم راجعوه في الحضور ثانية فلم يفعل[2].

وتخلَّف عن المجيء عبد الرزاق البيطار، ولما تفقَّده الشُّرَط وجدوه في فراشه، فشرحوا على ورقة التبليغ أنه موعوك غير سليم. والحقّ أنه تخلص بالتمارض من الذهاب إلى المحكمة نزولاً عند نصيحة أحد خاصته. مع أنه كان أشار على الجماعة ليلة المحاكمة بالذهاب ما دام أمرهم لا يشين[3].

صلى المتهمون صلاة الظهر في مسجد المحكمة، ثم استدعي القاسمي وحده أولاً، فسئل عن صحة اجتماعهم على تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف بالرأي، وردّهم على الأئمة المجتهدين، وعن ماهية المسائل التي يتذاكرونها، وعن قوله بطهارة الخمر، وعن مطالعة كتاب كشف الغمة للشعراني وكتابته حاشية عليه، وعن

---

(١) ظافر، ٥١ ـ ٥٢.

(٢) ظافر، ٥٣.

(٣) ظافر، المرجع السابق.

المذهب المبتدع المسمى بالمذهب الجمالي، وعن بحث جماعته في حديث: «من قال أنا مؤمن فهو كافر»[1].

وأجاب القاسمي بوضوح تام، فشرح طبيعة اجتماعه وأصحابه، وأنكر أن يكون قال بطهارة الخمور، وأخرج من جيبه رسالة بعنوان «تنبيه الغمر في رد شبه طهارة الخمر» من تأليفه رداً على من قال بطهارتها. ولم يتبرأ من مطالعتهم كتاب الشعراني إذ ليس فيه ما ينكر، وقال: إن له حاشية على أوائله في حل ألفاظ لغوية أو ضبط كلمات خفية، وتبرأ من اتهامه باستحداث المذهب المشار إليه. وبيَّن أن الجماعة استشكلت الحديث المذكور حتى وقعت على شرحه في إحياء الغزالي[2].

وانزعج المفتي رئيس الجلسة وأربد وجهه وتَغَيَّـرَ واصفرّ واكفهرّ وخاض في مسائل، وثرثر وبربر، وأعانه بعض جماعته من هيئة المحكمة، وسكت آخرون. كل ذلك والقاضي صامت مطرق يفكر.

---

(١) ظافر، ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) ظافر، ٥٣ ـ ٥٥، وانظر الكتاب المذكور في مؤلفات القاسمي. وأما الحديث المشار إليه فقد أورده الغزالي في الإحياء في باب الإيمان ٢/ ٢٧ طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦هـ. وقال المحقق في حاشيته: «حديث من قال أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال أنا عالم فهو جاهل؛ الطبراني في الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر، وفيه ليث ابن أبي سليم. والشطر الأول روي من قول يحيى بن أبي كثير، ورواه الطبراني في الأصغر بلفظ: من قال أنا في الجنة فهو في النار، وسنده ضعيف».

حتى إذا انتهت الأسئلة واستوفيت الأجوبه طُلب إليه الانصراف، ووضع في حجرة فيها ابن المفتي وبعض الوجوه، فجلس فيها ساعة، ثم رافقه شرطي إلى دائرة الشرطة، فأدخله على رئيسهم الذي رحب به، وسأل عن سبب حضوره، فأجيب بأن المفتي حكم عليه بالتوقيف على ذمة التحقيق[1].

واستجوبت هيئة المحكمة بقية رفاق القاسمي، وطرحت عليهم أسئلة، تنصبُّ كلها حول اجتماع الجماعة. وكان المفتي قد صمم على معاقبتهم بالنفي من الشام لو استطاع إثبات إقرار واحد منهم بالاجتهاد فما أفلح. ولهذا فقد جمعهم بعدما كان فَرَّقهم في الحجرات، وأبلغهم قرار القاضي بتسريحهم والعفو عنهم. وقد غصَّت أبواب المحكمة الثلاثة بالناس الذين انشغلوا بالحادثة انشغالاً أقام دمشق وأقعدها[2].

وعندما خرج المفتي من باب المحكمة بادره محمد عيد أخو جمال الدين، فسأله عن سبب توقيفه مع إطلاق رفاقه كلهم.. فلما لم يحر جواباً استطال عليه حتى خاف المفتي على نفسه الضرب، وانسل هارباً، فقصده والد القاسمي في المساء وعنَّفه، وكان مما قال له: «ألأن ولدي أصغر الجماعة سناً فعلت به فعلتك.. أظننت أن آله يذرون ما صنعت وهناً» وذكَّره بانتقام المولى ـ وكان قد فجع بولد له كبير مات قبل شهرين من الحادثة ـ فخاف المفتي وتلطف له

(١) ظافر، ٥٥ ـ ٥٦؛ استانبولي، ٤١ ـ ٤٢؛ تاريخ علماء دمشق ١/ ٣٠٠.
(٢) ظافر، ٥٩.

في الكلام ولان، وقال له: «خذه غداً من ذقني»[1].

وأكرم الله القاسمي في محبسه، فجعل الشرط يعنون به، ودعاه رئيس لهم إلى عشاء فاخر معه، ولاطفه، وهيأ له سريراً مريحاً في غرفة أنيسة مطلة على منظر جميل. كما زاره كثير من الأهل والأصدقاء ولم يبارحوه[2].

أما القاضي فسهر تلك الليلة عند الوالي، فأبلغه أن القضية كلها لا تعدو وشاية مغرضة، وأنّ أمر الجماعة لا ينافي رضا الدولة، وليس لدى ذلك الجمع سر سياسي، وإنما هم يجتمعون على العلم وحسب. وكان ذهب أيضاً إلى بيت الوالي أحدُ الوجهاء المحترمين، وقال له: لا أحب يا سعادة الباشا أن ينال العلماء في أيامكم سوى غاية الإكرام، كي يخلد لكم الثناء الحسن، وهؤلاء الجماعة زهرة الشام، فالأولى ملاحظتهم بالإحسان التام. فأمر عند ذاك بالإفراج عن القاسمي بالحال[3].

أسرع القاضي إلى دائرة الشرطة بنفسه يحمل أمر الوالي، فاجتمع بجمال الدين وأخذ يلاطفه ويقول له: «لا تأسفوا . . فما حصل إلا كل خير ولطف، فانصرفوا بالأمان، وادعوا لمولانا السلطان»[4]. وحين علم الناس بالخبر هرعوا للسلام على

(١) ظافر، المرجع السابق.
(٢) ظافر، ٦٠.
(٣) ظافر، ٦١.
(٤) ظافر، المرجع السابق.

القاسمي في داره التي لم يغب عنها أكثر من عشرين ساعة. وكانت الحادثة سبباً لرفعته وظهور فضيلته، كما قال شيخه الخاني[1].

فلما انقضى أسبوع واحد على الدعوى كتب أمين السفرجلاني عرضاً إلى الوالي يطلب فيه جزاء المفتري، فوافقوه كلهم، وذيلوا عرضه بأختامهم. لكنهم مالبثوا أن أشاروا عليه بالعدول عن عرضه، والعفو عما مضى، واستمرت الاجتماعات على ما كانت عليه[2].

وإذ وافى شهر رمضان سارع القاضي فصنع للجماعة وليمة خصهم فيها بالإكرام والاحترام، فأجابوه. أما المفتي فلقي منهم كل ازورار وانقباض وأنفة، وما بقي من العقلاء والكبراء أحد إلا وعاد عليه باللائمة من جميع الأنحاء[3].

ثم إن المفتي سعى إلى استرضاء عبد الرزاق البيطار أكبر الجماعة سناً ودعاه ظناً منه أن سيأتيه، فأقسم ألا يبدأه بزيارة، وعندئذ زاره المفتي بداره وصالحه، ثم صالح الجماعة، فقبلوا منه بعد تردد، ومن أجل ذلك دعاهم البيطار في أحد الجمادين من عام ١٣١٤ إلى وليمة حضرها أخوه عبدالغني البيطار[4] وبكري العطار[5] شيخ

(١) ظافر، المرجع السابق.
(٢) ظافر، ٦٦ ـ ٦٧.
(٣) ظافر، ٦٧.
(٤) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ١٤٢؛ حلية البشر ٢/ ٨٧٣؛ منتخبات التواريخ ٢/ ٧٦١.
(٥) سبقت الإشارة إلى ترجمته في هذا الفصل.

مشايخ الشام لعصره ووالد القاسمي. . وصفت بعدها الأجواء[1].

واستأنف جمال الدين حياته بعدئذ قوياً، وخرج من محنته صامداً يقول: «ليفعل أعدائي ما يريدون، فأنا أعتبر حبسي خلوة ونفيي سياحة وقتلي شهادة»[2] وبدأ مرحلة جديدة من عمره غدا فيها معروفاً مشهوراً كما قال: «وبعد هذه الحادثة ارتفع بحمد الله قدرنا، وعلا بفضله وستره أمرنا. أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله فالحمد لله ثم الحمد لله»[3].

ولقد تطلعت نفسه إلى آفاق أخرى هي آفاق المعرفة والثقافة، ولكنها معرفة وثقافة من نوع مختلف، ليس يتحصل مثلهما من الكتب ولا المطالعة، إنها آفاق الرحلات التي عرف بعضها حينما كان يسافر إلى الأقضية والبلدات فيما حول دمشق، يدعو ويعظ، ويدرّس بتكليف الحكومة. ولقد أحب هذه السياحات العلمية، فلما توقفت رحل هو بنفسه تطوعاً للدعوة والتعليم في المناسبات، فقصد حوران عام ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م[4].

وليس لدينا عن أعماله في حوران تفصيل، إذ لم يقع بين أيدينا شيء مدون في رسالة ولا كتاب، ولم يصل إلى أسماعنا رواية شفوية عنه في ذلك إلا ما ذكره عرضاً في كتابه الفضل المبين فقال: «وردتها

(١) ظافر، المرجع السابق.
(٢) استانبولي، ٤٢.
(٣) ظافر، ٦٩.
(٤) ظافر، ٩٧.

[قرية نوى] عام رحلتي إلى مركز الشيخ سعد في حوران في عيد الأضحى سنة ١٣١٤هـ إجابة لدعوة بعض الأحباء». ولا بد أنه كعادته قام فيها يدعو إلى الله مثلما فعل في رحلاته من قبل(١).

وعلى ذلك تمضي حياة الرجل بالدأب حتى توافي سنة ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م فتحمل إليه محنة أليمة، فيفقد والده الذي يموت عن ثمان وخمسين سنة.

وعند ذلك توحش نفسه، مثلما توحش مرابع جامع السنانية لفقد إمامه ومدرّسه، وتتعطل فيه حلقة الدرس العام التي كانت تأنس به بين العشاءين.. ويشعر الناس من حوله بهذا الفراغ، ويوقنون أن ابنه جمال الدين يستطيع أن يملأه.. فأخذوا يحثونه على إحياء الدرس المرسوم.. واحتذاء خطوات أبيه؛ فكان يعتذر إليهم في كل مرة بشتى الأعذار كـ «فقدان المفكرة والذاكرة لما دهمنا وحل بنا». لكنهم يلحون عليه كثيراً ويتوسلون بمن لا يستطيع ردّ كلامه. وعندئذ افتتح درسه ليلة الأحد في ٣ ذي القعدة من تلك السنة أي بعد نحو عشرة أيام من وفاة أبيه. واختار قراءة كتاب رياض الصالحين أسوة بما كان فعله جده وأبوه في هذه البقعة المباركة، ولأنه «كتاب لم يؤلف نظيره في موضوعه»(٢).

وابتدأ الدرس من أول الكتاب في حلقة مشهودة حافلة بأعيان العصر وعدد من أجلّة العلماء الدمشقيين الذين دعاهم عمه محمد

---

(١) الفضل المبين، ٣٠٥.
(٢) ظافر، ٣٧.

القاسمي(١)، كان فيهم شيخه بكري العطار، ومفتي الشام صالح قطنا(٢) وأحمد الحسني الجزائري، والشيخ سليم سمارة، والشيخ أبو النصر الخطيب(٣) والشيخ عبد المجيد الخاني(٤)، والشيخ محمد المبارك(٥) والشيخ أمين البيطار(٦) إمام جامع السنانية، والشيخ توفيق المنيني(٧)، وعبد الباقي الحسني الجزائري(٨).

وكتب جمال الدين عن درسه هذا بشيء من تفصيل، دل على

(١) انظر للتعريف به الفصل المتعلق بالأسرة القاسمية، وانظر: تاريخ علماء دمشق ١/ ٣٦٣، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٩٥.

(٢) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٣٣٦، عرف البشام ٢٢٦، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٣١.

(٣) انظر لترجمته تاريخ: علماء دمشق ١/ ٢٢٢، حلية البشر ١/ ١٠٠ ـ ١٠١، منتخبات التواريخ ٢/ ٧١٠، الأعلام الشرقية ٣/ ٣، معجم المؤلفين ١٠/ ١٨٣.

(٤) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ١٨١، معجم المؤلفين ٦/ ١٧٠، معالم وأعلام ٣٦٦، أعلام الأدب والفن ٢/ ١١٦، تعطير المشام (خ) ق ٥١ ـ ٥٩، الأعلام الشرقية ٢/ ١٣٨.

(٥) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق، ١/ ٢٧٤، حلية البشر ٣/ ١٣٥٤ ـ ١٣٦٨، المعاصرون لمحمد كرد علي ٣٦٧، مجلة الحقائق مج٢، ج١١، ١٢/ ٤٧٧ ـ ٤٨٠، تعطير المشام (خ) ق ٨٥ ـ ٨٧، معجم المؤلفين ١١/ ٢٦٣، أعلام الفكر ٢٦٦.

(٦) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٢٣٧، حلية البشر ١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٧، الأعلام الشرقية ٢/ ٩٠.

(٧) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق، ٣/ ١٢٥.

(٨) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٣٤٦، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٥٦.

اهتمامه، يَحْسُن أن نقف عنده، لأنه يؤرخ لطريقة التدريس في ذلك العصر، وها نحن أولاء ننقل نصه من كلام القاسمي:

«فبعد أن تلا أحد القراء شيئاً من القرآن الكريم كما هي العادة في الدروس العامة آنذاك، بدأ الدرس ـ وكان المعيد أخي قاسم خير الدين سلمه الله تعالى ـ وبعد فراغه قرأت خطبة الدرس بعونه تعالى. ثم قلت بعد أن تلوت شيئاً من خطبة رياض الصالحين: هذه المقالة، وهي: قد جرت عادة أسلافنا وأشياخنا المحققين قدس الله أرواحهم أجمعين أن يذكروا في مثل هذا المجلس سندهم لمؤلف مقروئهم، وأن يذكروا بعض مشايخهم والآخذين عنهم والمجازين منهم، تجديداً لذكرهم، وطلباً للترضي عنهم والترحم عليهم. وإني مع قصر باعي، وقلة بضاعتي، ووفور انكساري أتأسىٰ بهديهم، وأقتدي بصنعهم تشبهاً بهم، كما قيل:

إنِ لم تكونوا مثلهم فتشبهوا　　　إنَّ التشبه بالكرام فَلاَح

وأقول:

لولا التبركُ ما جلست بمجلس　　　حلت به الفضلاء والكبراء
فلئن أصبت فمنهم أو إن يكن　　　خطأ وسهو إنهم كرماء

فأقول متلطفاً على موائد عفوهم: إن من أعظم أشياخي عندي وأمنِّهم عليّ وأكثرهم حقوقاً لديَّ: سيدي وسندي والدي المرحوم، أغدق الله على روضته سحائب الرضوان، وأحلَّه في أعلى فراديس الجنان، وجزاه خير ما جزى والداً عن ولده ومرشداً عن مرشده. رب اغفر لي ولوالدي رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، فقد قرأت

لديه ـ عليه الرحمة ـ جملة كثيرة من فنون العربية وكتباً فقهية وحديثية وتوحيدية وقد أحسن تربيتي غاية الإحسان ولم يزل يربيني في حجره، ويغدق عليّ بما تصل إليه يد الإمكان، فجزاه الله أحسن الجزاء وأتمّه، ولقّاه من النعيم الأخروي أعمّه».

وذكر بعد ذلك كبار شيوخه الذين أشرنا إليهم واحداً بعد الآخر مع الاعتراف بفضلهم والتنويه بذكرهم والدعاء للأحياء منهم بالعمر المديد، وللأموات بالرحمة، وانتهى من التنويه بهم إلى قوله: «... ولنقتصر على هؤلاء الأساتذة الأخيار بوّأهم المولى دار نعيم الأبرار، وإلا فاستقصاء من شملتني بركته وإجازته لا يسعه هذا المجلس»[1].

وثنّى المدرّس الشاب بسنده الذي يعتز به فقال: «وأما أعلى سند للفقير إلى سيدنا النووي قدس سره مؤلف هذا الكتاب فهو روايتي لهذا الكتاب وسائر مصنفاته عن سيدي الوالد، عن سيدي وجدي بركة عصره العلامة الشيخ قاسم. ولسيدي الجد أسانيد عديدة، فإنه قدس سره أخذ عن مسند الشام الشيخ عبد الرحمن الكزبري[2]، وهو من أجلّ أساتذته. ومن مشايخه أيضاً العلامة الشيخ سعيد الحلبي[3]، ومنهم الإمام الجليل السيد الشيخ محمد

---

(١) ظافر، ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) مرت الإشارة إلى ترجمته آنفاً.

(٣) انظر لترجمته: علماء دمشق وأعيانها ١/ ٤٥٧، تعطير المشام (خ) ق ٤٩، حلية البشر ٢/ ٦٦٧، منتخبات التواريخ ٦٦٢، الأعلام ٣/ ٩٣، معجم المؤلفين ٤/ ٢٢٢.

الدسوقي[١] نسباً الدمشقي، منهم ولده العلامة السيد الشيخ صالح الدسوقي[٢] ومنهم العلامة الشيخ إبراهيم الباجوري[٣]، فإنه عام رحلته إلى مصر سنة ١٢٧٠هـ استجاز منه فكتب له إجازة فخيمة.

ومن مشايخه العلامة الشيخ يوسف الصاوي المدني، استجاز منه في إحدى حجاته سنة ١٢٦٦، وله أشياخ أخر[٤] وأعلى إسناد له في هذا الكتاب وسائر مصنفات الإمام النووي عن أستاذه جد جدتي السيد محمد الدسوقي المنوه به، وهو يرويه عن أستاذه العلامة الشيخ علي السليمي الصالحي المترجم في تاريخ المرادي[٥]، وهو يرويه عن شيخه العارف بالله تعالى الشيخ عبد الغني النابلسي[٦]،

---

(١) انظر لترجمته: شرف الأسباط ٦٩ ـ ٧٥، تعطير المشام (خ) ق ٢٣، حلية البشر ٣/ ١٣٥٢، منتخبات التواريخ ٨١٤، علماء دمشق ١/ ٢٨٣.

(٢) انظر لترجمته: شرف الأسباط ٧٦ ـ ٧٩، تعطير المشام (خ) ٢/ ٧٢٤، منتخبات التواريخ ٦٦٤، ٨١٤، معجم المؤلفين ٥/ ١٢، الأعلام ٣/ ١٩٥، علماء دمشق وأعيانها ١/ ٣٦٤.

(٣) انظر لترجمته: الأعلام ١/ ٧١، معجم المطبوعات ٥٠٧، إيضاح المكنون، الخطط التوفيقية ٩/ ٢.

(٤) ظافر، ٣٩ ـ ٤٠.

(٥) محمد خليل المرادي، وسمى تاريخه (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر)، وانظر لترجمته: علماء دمشق وأعيانها ١/ ٤٦، عرف البشام ـ المقدمة، تاريخ الجبرتي ٢/ ٢٣٣، إيضاح المكنون ١/ ١٤، حلية البشر ٣/ ١٣٩٣، منتخبات التواريخ ٦٥٥، ٨٤١، الأعلام ٦/ ١١٨، معجم المؤرخين الدمشقيين ٣٧٣.

(٦) انظر لترجمته: سلك الدرر ٣/ ٣٠، تاريخ الجبرتي ١/ ١٥٤، معجم المطبوعات ١٨٣٢.

وهو يرويه عن الإمام نجم الدين الغزي[1] عن والده بدر الدين الغزي[2]، عن القاضي زكريا الأنصاري[3] عن حافظ عصره أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني[4]، عن الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي[5]، عن علاء الدين العطار[6] عن شيخه الإمام النووي رضي الله عنه أحد أفراد الأعلام المنعوتين بشيوخ الإسلام، مشى على قدم السلف الأعيان، وسار سيرةً لم يختلف في كمالها اثنان. وقد ترجمه التاج السبكي في طبقاته والأسنوي وابن شاكر في ذيله على تاريخ ابن خلكان وغيرهم».

ثم ترجم للنووي باختصار[7].

وهكذا رسخت أقدام القاسمي بين علماء عصره وفي جامع من

---

(١) انظر لترجمته: لطف السمر وقطف الثمر، ط وزارة الثقافة ١٩٨٢ (المقدمة)؛ خلاصة الأثر ٤/ ١٨٩ ـ ٢٠٠.

(٢) انظر لترجمته شذرات الذهب ٨/ ٤٠٣، ريحانة الألبا ٧٢.

(٣) انظر لترجمته الكواكب السائرة، ١/ ١٩٦، الخطط التوفيقية ١٢/ ٦٢، معجم المطبوعات ١/ ٤٨٣.

(٤) انظر لترجمته نظم العقيان ٣١، الضوء اللامع ١/ ٢٠٥.

(٥) انظر لترجمته الضوء اللامع ٤/ ١٧١، غاية النهاية ١/ ٣٨٢، معجم المطبوعات ١٣١٧، حسن المحاضرة ١/ ٢٠٤.

(٦) انظر لترجمته البداية والنهاية ١٤/ ١١٧، شذرات الذهب ٦/ ٦٣، ٦٤، كشف الظنون ٣٦٨، ١١٧٠، ١٢٣٠، فهرس الفهارس ٢/ ٢٠٨، إيضاح المكنون ٢/ ١٥٧، هدية العارفين ١/ ٧١٧.

(٧) ظافر، ٤٠ ـ ٤١. وسند القاسمي من الأسناد العالية؛ فإن بينه وبين النبي ﷺ ١٤ رجلا فقط، انظر الفضل المبين٦٨.

أكبر جوامع دمشق وأشهرها، ولعله يأتي في الترتيب بعد الجامع الأموي.

ولقد أثبت له مشيخته عبد الحفيظ الفاسي فقال[1]: «أخذ عن والده العلامة الشيخ أبي الخير محمد سعيد الشافعي إمام جامع السنانية ومدرسه، وهو عن جماعة، منهم والده فقيه الشام الصالح الورع أبو البركات الشيخ قاسم ابن الشيخ صالح الدمشقي الشهير بالحلاق. وهو عن جماعة، منهم صهره العلامة الشيخ صالح الدسوقي لقباً الجيلي نسباً الدمشقي، وهو عن والده السيد محمد بن محمد الدسوقي والشيخ علي السليمي الصالحي، وهما عن الشيخ عبد الغني النابلسي.

(ح) وروى عن مفتي دمشق ذي التصانيف العديدة العلامة السيد محمود أفندي الحمزاوي الحسيني ومسند عصره الشيخ سليم العطار وصوفي الشام الشيخ محمد بن محمد الخاني شيخ الطريقة النقشبندية ثلاثتهم عن مسند زمانه الشيخ عبد الرحمن بن محمد الكزبري الدمشقي.

(ح) وروى المترجم عن نعمان الألوسي.

سمع المسلسل بالأولية، أولية حقيقة عن مفتي دمشق وعلاَّمتها صاحب التصانيف العديدة السيد محمود أفندي الحمزاوي عن الشيخ عبد الرحمن الكزبري عن مصطفى الرحمتي الأيوبي عن الشيخ عبد الغني النابلسي عن النجم الغزي عن والده البدر، عن السيوطي،

---

(١) معجم الشيوخ، عبد الحفيظ الفاسي، ١/ ١٧٥.

قال: وسمعت المسلسل بالأولية ومعظم ما روي بأنواع التسلسل من مسند دمشق الشيخ سليم العطار عن الكزبري بالسند المذكور. وسمعت مسلسلات ابن عقيلة بتمامه من العالم النحرير الصوفي الشيخ محمد بن محمد الخاني بالإجازة العامة عن الكزبري بالسند المتقدم.

ويروي محمد الخاني المذكور أيضاً عن والده الشيخ محمد بن عبد الله بن مصطفى الخاني النقشبندي وعن البرهان السقا والشيخ مصطفى المبلط والشيخ عثمان شطا الدمياطي المكي والشيخ إسماعيل البرزنجي. أما والده فعن الشيخ خالد النقشبندي عن جماعة، منهم الشيخ عبد العزيز الدهلوي والشيخ محمد الكزبري، وأما الشيخ مصطفى المبلط فيروي عن الشنواني وغيره. وأما الشيخ عثمان الدمياطي فعن أبي عبد الله محمد الأمير وعبد الله الشرقاوي والشيخ محمد الشنواني والشيخ محمد الدسوقي بأسانيدهم المذكورة في فهارسهم. وأما الشيخ إسماعيل البرزنجي فعن آبائه وعن الشيخ خالد النقشبندي. وأما الشيخ محمود أفندي الحمزاوي فعن الشيخ سعيد الحلبي والشيخ حامد العطار والشيخ عمر الآمدي. والشيخ سعيد الحلبي منهم عن الشيخ شاكر العقاد بأسانيده العديدة. أما الشيخ عبد الرحمن الكزبري شيخ مشايخ المترجم فله رواية عالية واسعة، فيروي عن والده محمد بن عبد الرحمن ومصطفى الرحمتي والنور علي الوفائي وعبد الملك القلعي وصالح الفلاني ومحمد طاهر سنبل وزين العابدين الباعلوي والأمير إبراهيم ابن اسماعيل الأمير الصنعاني والشرقاوي والأمير والشنواني والعروسي والشيخ مرتضى

وإسماعيل بن محمد بن صالح المواهبي عن أبيه عن البصري والنخلي وابن عقيلة. وممن أجازه عالياً تقي الدين محمد الشاذلي الحنبلي عن النابلسي، وروى عن غيرهم حواه ثبته.

(ج) ويروي الشيخ نجم الدين الغزي أيضاً عن قاضي القضاة بحلب محمد بن محمد المسعودي وعن الشمس الرملي وزين العابدين البكري ومحمود بن محمد البيلوني وسمع منه الأولية أيضاً وشمس الدين محمد بن عبد العزيز الزمزمي وغيرهم. وروى والده عن السيوطي وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، والشهاب القسطلاني والبرهان بن أبي شريف والمسند جمال الدين القلقشندي والتقي البرزنجي ووالده رضي الدين الغزي والمعمر قريش البصير العثماني، وهو عن ابن الجزري. ويروي عن المعمر أبي الفتح المزي الاسكندري، وهو عن عائشة بنت عبد الهادي عن الحجار بما له. ويروي عن تقي الدين أبي بكر ابن قاضي عجلون الدمشقي، وهو عن شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن ناصر الدين الدمشقي عن علاء الدين ابن الصائغ الدمشقي والحافظ أبي هريرة عبد الرحمن ابن الحافظ الإمام محمد بن أحمد الذهبي.

(ح) وأما نعمان الآلوسي فيروي عامة عن والده الإمام أبي الثناء محمود الآلوسي وعن صديق حسن خان ملك بوهبال الهندي والمعمر كاكه البرزنجي وصفاء الدين عيسى البندنيجي وداود باشا، وتدبج مع أحمد بن إبراهيم السديري النجدي. أما والده أبو الثناء محمود فيروي عامة عن عبد الرحمن الكزبري والشمس ابن عابدين وسميّه التميمي وعبد اللطيف ابن حمزة فتح الله البيروتي والملا علي

ابن محمد سعيد السويدي وعلاء الدين الموصلي وغيرهم، وتدبج مع شيخ الإسلام عارف حكمة الله. ولكل واحد منهم رواية واسعة».

وتذيع شهرة القاسمي، وتصل إلى أسماع الدولة، ويوضع فيما يبدو في قائمة الذين يُحسب حسابهم وتخشى مغبة أمرهم في زمن كبتت فيه الحريات وانتشرت العيون؛ ذلك لأنه كان امرأً تدعو أفكاره إلى التجديد في العلم والتجديد في أسلوب الحياة.. عالماً نَقَّادة متحرراً، من طراز آخر من العلماء الذين لا ترضى عنهم. ولذلك فقد كان يتعرض كل حين إلى المساءلات. ولئن خرج من حادثة المجتهدين منتصراً ظافراً إلا أن إشارات استفهام ظلت تحوم حوله، وظل بيته في القنوات ومسجده في باب الجابية موضع أنظار المفتشين والمراقبين والجواسيس.

فلما أُوقف عبد الحميد الزهراوي عام ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م خاف الشباب الأحرار والمتنورون، ووقع الإرجاف بهم، ونال القاسمي بهذه المناسبة مكروه عظيم؛ فأفزعه ذات ليلة طارق أدخل الرعب إلى قلوب أهل بيته وأنذرهم بالشر، وكان ذلك الطارق مختار المحلة، جاء بصحبة الشرط والمتنفذين، يطلبون منه كتاباً من تأليف الزهراوي فأذعن لطلبهم. لكنّ هماً مقيماً داخَلَه بعد رحيلهم، إذ توقع أن يلحقه أذى وتنكيل واتهامات، إلا أن الله تعالى فرّج عن الزهراوي همه، وانجلت الغمة عن القاسمي[1].

ويصاب القاسمي في عام ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م بالمرض على نحو

(١) ظافر، ٢٠٥.

عنيف أليم، ويعوده أحباؤه، ويداويه طبيبه. بيد أنّ مرضه لا يمضي عنه هكذا، بل يدفعه إلى البحث والنظر في علته البواسير، فيؤلف فيها رسالة طبية جامعة، كما شهد لها الأطباء المتخصصون فيما بعد، فقالوا: ليس قيمة هذه الرسالة في محتواها العلمي والأثري فحسب، وإنما تحمل في طياتها فضلاً عن ذلك معاني الدأب والدقة في البحث والحرص على الاطلاع[1].

ويدخل القاسمي بعدئذ مرحلة جديدة حينما يتطلع إلى أبعد مما سبق له، فيقرر القيام بالرحلات البعيدة. ويعزم على الرحلة إلى بيت المقدس يبدؤها في أواخر المحرم من عام ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م مع جماعة من أصدقائه ومعارفه، ذكر منهم الشيخ عبد اللطيف بن حسين الصفدي، والشيخ ياسين بن رشيد الفرا. وأغفل ذكر غيرهما[2].

زار في هذه الرحلة بلدة مزيريب محطة القطار الأولى ثم عمّان وجبلها، ثم السلط، وأمّ بعض متنزهاتها، ثم أريحا، ومنها توجه إلى القدس، فألم بغالب مزاراتها، وقصد منها الخليل وبيت لحم، ثم رجع إلى القدس، فألَمَّ بغالب مزاراتها، وقصد منها الخليل وبيت لحم، ثم رجع إلى القدس، فغادرها إلى يافا وقرية بيت دَجَن، ثم رجع بالبحر إلى دمشق عن طريق بيروت[3].

وكان سفر القاسمي سفر العالِم الدقيقِ النظرة العميق الفكر، المتفرد عن كثير من أقرانه، العارف البصير بما يريد، يضع أهدافه

(١) ظافر، ٤٨.

(٢) ظافر، ١٠٣ ـ ١٢٤.

(٣) ظافر، المرجع السابق.

لكل عمل يقوم فيه قبل أن يشرع بتنفيذه. وقد أراد أن يستثمر رحلته هذه في زيادة معرفته من جهة، كما أراد من جهة أخرى أن يكون بصيراً بكل مكان يذهب إليه فلا يأتيه على جهل؛ ولهذا حمل معه ثلاثة كتب، رأى أنها تفيده في مقصوده؛ كتاب في الجغرافية العمومية، وكتاب بتاريخ المملكة السورية وكتاب دليل الزوار. وكان يراجع لزيادة الاطلاع كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين العليمي[1]، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي[2]. ولهذا كانت رحلته رحلة دينية وعلمية وترفيهية في آن معاً[3].

ويستغلُّ القاسمي في سفره كل أمر يمر به، فيذكُره، ويعلق عليه، ويدونه في مفكرته؛ فحين كان يرى المناظر الجميلة مثلاً يعجب بها، ويكتب عنها ما يراه ويحسه بقلم الأديب ولو باقتضاب، ويأخذ منها حظه من المتعة، وعندما يشاهد آثار قوم بادوا يتجول في أرجائها، ويتأملها، ويعجب مما حل بها. كذلك يفصّل في الرحلة مشاهداته عن الشراكسة الذين اجتمع بفقهائهم ووصف عاداتهم فانتقد بعضها. ويزعجه في أثناء الرحلة مصادرة المتنفذين دوابَّ كانت أُرسلت إليهم ليستعملوها في السخرة، كما يضايقه قيام جباة يفرضون على الركب رسوماً للعبور فوق جسر نهر الشريعة. ولا يفوت القاسمي أن يزور الكنائس المشهورة راداً على

(١) الطبعة الأولى لهذا الكتاب في القاهرة: المطبعة الوهبية، ١٨٧١.
(٢) الطبعة الأولى، القاهرة: مطبعة وادي النيل، ١٨٧٠.
(٣) ظافر، ٩٩، ١٠٣ ـ ١٢٤.

المعترضين عليه في تلك الزيارة مستشهداً بآثار السلف الصالح رضوان الله عليهم[1].

ويسمع بمطبعة اللاتين فيقصدها ليرى ما فيها، فيدهش من عملها، ويهدي إليه أصحابها من الرهبان مختصر التوراة من إنتاج مطبعتهم[2]. ويفصّل الشيخ الحديث عن بيت المقدس ونزوله في حجرة بالمسجد الأقصى كانت بالأصل زاوية تسمى الخنشنية. ونراه يحرص على الصلوات الخمس جماعة، لا يفوته منها إلا بعض أوقات بسبب زياراته البعيدة التي يقوم بها للأماكن التاريخية المهمة فيصلّيها بعيداً عنه. ويمتنع عن إلقاء الدروس على الرغم من شكوى الأهالي قلة العلماء لأنه خاف من دخول العُجب إلى نفسه. ويرق شعوره أول مرة يدخل فيها المسجد المبارك فينهمل دمعه على خديه.. وعلى مثل تلك الحال يخرج. وفي أثناء إقامته يخالطه إلهام سام، فينظم أبياتاً يذكر فيها لواعج صدره[3]، مشيراً إلى المعبد المقدّس وما يضمه والزاوية الخنشنية والمكتبة الخالدية وقد طالع نفائس كتبها، وتردد إليها كثيراً، واستعار منها نسخة موثقة من كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض عليها سماعاتُ كثيرٍ من المحدثين ومقابلة على نسخة المؤلف، فقابلها القاسمي بدوره على نسخة معه، ساعده في قراءتها رفيقاه الصفدي والفرا[4].

---

(١) ظافر، ١١٩ ـ ١٢١.

(٢) ظافر، ١١٦.

(٣) انظر الأبيات في الفصل المتعلق بآثاره.

(٤) ظافر، ١١٢.

وكان الشيخ يلقى في كل مكان يفد إليه حفاوة بالغة واحتراماً عظيماً، ويتسابق الوجهاء والعلماء إلى دعوته وإكرامه، وهو يبدي تعففاً شديداً وتواضعاً جماً هما من بعض صفاته. وليس هذا فحسب، وإنما كانت رحلته هذه وغيرها من رحلاته تمثل نموذجاً من أخلاق العلماء.

وفي رجب من السنة نفسها ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م وقع في خاطر القاسمي أن يرحل إلى مصر بعدما استفاد من رحلة القدس، وكان الهدف أن يتعرف آثارها، ويزور أصدقاءه بها، ويقف على شأنها ومرتبتها من التقدم، ولعله كان يريد كذلك أن يتزود مما فيها من مطبوعات تلزمه. وقرر أن يبدأ رحلة مع نهاية شهر رمضان، صلى صلاة العيد بجامع السنانية، ثم استقل القطار إلى بيروت، حيث كان صديقه عبد الرزاق البيطار قد سبقه إليها. ومن هناك رحلا بالبحر والأصدقاء يودعونهما بالحفاوة[١].

وصلا بور سعيد فأقاما فيها، ثم سافرا إلى المنصورة فطنطا فالقاهرة، حيث نزلا في غرفة بالأزهر مع الحاج الشيخ محمد عبده بإنزالهما عنده[٢].

وكانت إقامتها في مصر حافلة، لقيا كثيراً من العلماء، والأدباء والوجهاء، منهم رفيق العظم[٣] الذي أقاما عنده كثيراً، وشيخ

(١) ظافر، ١٣٣.
(٢) ظافر، ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٣) انظر لترجمته الأعلام ٣/ ٣٠.

الأزهر علي الببلاوي[١] ومحمد رشيد رضا، ومحمد محمود الشنقيطي[٢]، وأحمد الشنقيطي[٣]، وأحمد الحسيني[٤]، وعبد القادرالرافعي[٥]، وحقي العظم[٦]، وحافظ إبراهيم، وزينب فواز[٧]، وغيرهم من المشاهير. ثم يعودان إلى بيروت ومنها إلى دمشق في منتصف ذي القعدة، بعد أن استغرقت الرحلة شهراً ونصف الشهر[٨].

ولقد دلت رحلة مصر على سعة أفق القاسمي، فهو إذ يلقى العلماء الفحول يأخذ في نقاشهم، ويباحثهم المباحث الجادة. استفاد كثيراً من لقاء الشيخ محمد عبده، ووصف لنا درسه بشيء من تفصيل، وصفاً يعد وثيقة لدروس أجلة العلماء بمصر في وقته. ونراه يطرح عليه عدداً من القضايا الجليلة فيعجب كل منهما بصاحبه[٩].

وكان من الثمرات العلمية التي جناها القاسمي في تلك الرحلة

---

(١) انظر لترجمته الأعلام ٥/ ١٨.

(٢) انظر لترجمته الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ٣٧٤ ـ ٣٨٦، والأعلام ٧/ ٨٩.

(٣) انظر لترجمته معجم المطبوعات ١١٤٨، والأعلام ١/ ١٠١.

(٤) انظر لترجمته الأعلام ١/ ٩٤.

(٥) انظر لترجمته الأعلام ٤/ ٤٦.

(٦) انظر لترجمته الأعلام ٢/ ٢٦٥.

(٧) انظر لترجمتها الأعلام ٣/ ٦٧.

(٨) ظافر، ١٣٣ ـ ١٦١.

(٩) ظافر، ١٢٨، ١٢٩، ١٤١.

أنه اشترى كتباً نفيسة كثيرة مما يهمه. والعجب أنه ألّف في أثناء إقامته بالأزهر مختصراً للسيرة النبوية وأنجز طبعه صاحب دار المنار رشيد رضا قبل رجوعه إلى دمشق، كما عقد العزم هناك على اختصار كتاب إحياء علوم الدين الذي اشتهر فيما بعد وكان له شأنه في الشرق والغرب حتى إنه طبع في أندونيسيا[1]. ثم إن القاسمي اطلع على كثير من عادات المصريين وآثار القدماء والمحدثين وسجل مشاهداته التي كان كثير منها يثير دهشته وإعجابه معاً؛ فتحدث عن الهاتف والكهرباء، وأشار إلى الأهرامات ومخلّفات الفراعنة.. وكان في كل ذلك يعلّق على كل ما يراه جديداً عليه، فينكر المنكر من البدع والضلالات، ويستحسن الحسن من السلوك والتصرفات[2].

وحملت إليه سنة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م محنة جديدة ومساءلة من قبل الحكومة شديدة، كان ذلك حينما قدم دمشق أحمد الحسيني فسارع القاسمي إلى زيارته لما لقي من حفاوته به حين زار القاهرة، ولم يعلم أن العيون كانت تراقب الضيف في حركاته وسكناته، كما كانت تحاذر جمال الدين الذي يدعوه مدير الشرطة متلطفاً، ثم يسير به لمقابلة الوالي ناظم باشا[3]، غير مستمع إلى الوجهاء الذين أخذوا يكلّمونه بشأنه.

---

(١) ظافر، ٦٨١.

(٢) ظافر، ١٣٣ ـ ١٦١، استانبولي، ٥١ ـ ٥٢.

(٣) مرت الإشارة إلى ترجمة حسين ناظم باشا في حواشي الفصل الأول.

ومع أن الباشا احترم الشيخ ورحب به وأدناه من مجلسه إلا أنه أنكر عليه قوله بالاجتهاد ومخالفة المذاهب، ورجا ألا ينقل إليه أحد عنه ما يؤيد ذلك. وكان مما قاله له: «لو أنّ والياً آخر كان مكانه لجرى ما لا يحمد عقباه، ولكنه عامله باللطف لما يعهده من ذكائه وفطنته»[1].

ثم إنّ الوالي سأله عن صلته بأحمد الحسيني، وهل هو من القائلين بالاجتهاد؟ فنفى أن يكون له رأي بذلك، وأبدى له أنه فقيه ومصنفاته معروفة في الفقه الشافعي. وقال بعض الحاضرين الذين استدعوا للمجلس: إن للحسيني مؤلفات ناقش فيها الحنفية بمسألة أوغرت بعض وجهاء المذهب بالشام، فسعوا به.

ثم أذن للقاسمي وللعلماء الذين كانوا في المجلس بالانصراف بعد أن حذَّرهم مغبة الاجتماع بالحسيني؛ ذلك لأن الوالي وصله تقرير من جواسيسه يصف الضيف بالريبة بسبب زيارة عدد من الأعيان له، قيل: إنهم من المجتهدين، ويشتبه أنه منهم[2].

ولا تسأل عن ألم القاسمي حينما بعث إليه الحسيني يبتغي ردّ زيارته بمثلها، فأعفاه من القيام بالواجب، وتباعد عنه نزولاً عند رغبة الحكومة[3].

وظل خصوم الشيخ وكذلك عيون الجواسيس يستهدفونه

(١) ظافر، ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٢) ظافر، ٢٠٨.
(٣) ظافر، المرجع السابق.

ويلاحظونه في دروسه وتصريحاته وكلامه، حتى أقاموا عليه فتنة جديدة عام ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م فاتهموا الشيخ عبد الرزاق البيطار بالوهابية وكانت تهمة غير هينة، ولما استدعي هذا الأخير إلى المحكمة واستنطق ورد اسم القاسمي. ومع أنه كان مسافراً مع الشيخ طاهر الجزائري في زيارة لبعلبك وبيروت وصيدا دامت ستة عشر يوماً ـ وكان قد لزمه طوال تلك السنة وأقام معه ليل نهار ـ إلا أن الجزع اشتد به وأخذ منه مأخذه طوال مدة الدعوى التي استمرت شهرين، بقي خلالها على «وجل شديد لا يعلمه إلا المولى»[١].

ويبدو أنه اغتنم فرصة وجوده في بيروت آنذاك، فاتصل بالدكتور عبد الرحمن الشهبندر[٢] فدعاه إلى زيارة الكلية السورية (الجامعة الأمريكية اليوم) وكان هو أستاذاً فيها، فزارها وكان قد شاهدها في السنة الماضية كذلك، كما زار المدرسة (الجامعة) اليسوعية[٣].

وما مضت هذ الفتنة وهدأت حتى عاد خصومه من الحشوية ـ كما كان يسميهم ـ فأثاروا عليه في رمضان من السنة نفسها عاصفة عاتية بسبب كتابه «مجموعة الأصول»[٤]، و«أهاجوا عليه القاضي والوالي شكري باشا[٥]، وكل حشوي وخائن» وكاد يحيق به

(١) ظافر، ٢٠٩، ٢١٣، ٤٢٨.
(٢) انظر لترجمته الأعلام ٣/٣٠٨.
(٣) ظافر، ٣٧٣.
(٤) انظر مؤلفات القاسمي في الفصل المتعلق بآثاره.
(٥) انظر لترجمته: ولاة دمشق ٩٥، منتخبات التواريخ ١/٢٧٨، وقال هذا =

السوء، لولا أنّ الله يَسَّر بعض المخلصين فتوسطوا له[1].

ومع هدوء عام ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م يرحل إلى حمص وحماة هو وأخوه قاسم صحبة الشيخ سليم الكزبري[2] بطريق القطار، وكأنه كان يريد أن ينفس قليلاً عن كربه، ويرتاح من متاعبه، ويطّلع على آفاق جديدة.

وقد التقى هناك بأعيان البلدتين وعلمائهما ومدرسيهما الأفاضل «ممن يطول سرد أسمائهم»، وزار مقام سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه، وشاهد سباق الخيل في عيد يسمى عند الحمصيين خميس المشايخ، فأعجبه ذلك، ولكنه تألم لانغماس بعض الناس في الترف الزائد والنعيم. وانتقد احتفال مشايخ الطرق بجماعاتهم وأعلامهم وطبولهم[3].

ويبدو أنه كان يقصد في هذه السنة الرحلة القريبة لزيادة معرفته مع الاستجمام ولهذا زار البقاع ونزل في قرية المعلقة، وتفرج على ما حولها[4].

ومع السنة التالية وفي صفر منها تعود الحكومة من جديد،

= عنه إنه كان لين العريكة سهل الانقياد ضعيف الإرادة بشوش الوجه يتأنى في أموره.

(١) ظافر، ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٢٨٢، منتجات التواريخ ٢/ ٦٩٢، حلية البشر ٢/ ٦٨٢.

(٣) ظافر، ١٧٦ وما بعد.

(٤) ظافر، ٣٧٤.

فتشعر بخطر يمكن أن يأتيها من أفكار القاسمي وأمثاله، وتلاحظه عيون الجواسيس من جديد، يرفعون تقاريرهم بأحواله، وكان وقتذاك قد دفع كتابه الجديد «دلائل التوحيد» إلى المطبعة دون أن يُعلم مراقبة المطبوعات، لأنه عرف أنها لن توافق عليه. ولكن خبره يتصل بالمسؤولين، فيضيقون به ذرعاً، فتتشكل هيئة رسمية في صفر من تلك السنة تتألف من قلم المكتوبجي (المطبوعات) وأفراد من الشرطة وغيرهم، توافيه في مسجده حينما كان يقرىء درسه في السدة، فتفتش كتبه في الجامع، وتفتش كل ما يخطر بالبال حتى جيوبه، ثم تصحبه إلى داره، فتصادر ثلاثة أكياس من كتبه المخطوطة والمطبوعة، منها مسوَّدات كتابه «دلائل التوحيد» وتمنعه من متابعة طبعه[1].

«ولما علم بعض الحشوية المتهمين بالجاسوسية نية الحكومة في إرجاع الكتب استأنف الكرة، وقدم معروضاً بأنّ الهيئة ليس فيها عالم، والأوراق كلها اجتهاد، وهم لا يعلمون مطاويها، فصدر الأمر بإحالتها إلى المحكمة الشرعية، وتألفت لها هيئة من القاضي وأمين الفتوى وعضو من المعارف وآخر من قلم الإدارة، ففتشت ورقة ورقة»، وبرأه القاضي بإعلام شرعي، وأعيدت كتبه في ١٨ ربيع الثاني من ذلك العام من غير اعتذار. كل ذلك وقد أخذه وأسرته خلال تلك المدة كرب عظيم ومخاوف من اتهامات باطلة، خشيت أن تحمل معها ما تسوء نتائجه[2].

(١) استانبولي، ٥٩.
(٢) ظافر، ٢١٠.

ويبتهج القاسمي حينما يجيء الخبر إلى الشام في جمادى الثانية من العام المذكور ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م يعلن صدور إرادة السلطان بإعادة تطبيق القانون الأساسي وانتخاب أعضاء مجلس المبعوثين، فيشارك بعض كبار الرجال المتنورين بالاحتفال سراً بهذا الحدث، خشية أن يكون الخبر مكذوباً، فيحدث ما لا يحمد عقباه، ويجتمع في دار الشيخ سليم الكزبري[١] هو وأخوه قاسم القاسمي مع وجهاء، فيهم عبد الرحمن اليوسف محافظ الحج وأحمد الشمعة، وعبد الله باشا الأمير، وسامي باشا، ومحمود باشا بوظو، وعطا باشا البكري ورفيق العظم وأسعد البيناشي وكيل حزب الأحرار الشاهاني. وقد أقسم الجميع لهذا الأخير على التكاتف والتعاضد فيما يبدو، بينما ألقى قاسم القاسمي خطبة، كتب مسودتها أخوه جمال الدين، بيّنت منزلة القانون الأساسي من الدين، مؤداها أن ليس فيه ما يخالف الشرع، بل هو ـ على العكس ـ مما أوجبه الدين وأمر به. وكان ذلك رداً على المرجفين الذين قالوا: «إن الدولة تريد أن تُخرج الناس عن دينهم، وإن القرآن والسنة لم يعد لهما مكان». ووقع الاضطراب بين الناس بسبب هذه المصطلحات الجديدة التي تساءلوا عن حقيقتها وماهيتها: الدستور، النظام، القانون[٢].

ولم تنجلِ هذه السنة على خير، حملت إليه منذ أواخر رمضان متاعب جمة، استمرت طويلاً، حين زار دمشق السيد رشيد رضا بعد إعلان الدستور، فاستقبله القاسمي والبيطار وثلة من العلماء،

---

(١) مرت الإشارة إلى ترجمة آنفاً.

(٢) ظافر، ٢١٥ ـ ٢١٨.

وصحبوه إلى الجامع الأموي غداة يوم وصوله، فقرأ فيه درساً، ووعد بقراءة درس آخر في اليوم التالي. لكن فتنة هوجاء ثارت عند ذلك، وجُوبِهَ الضيف بالأسئلة الغريبة، فكثرت الضوضاء، وأحاط به خصومه ومعهم جماعة من العامة، فقذفوه بما يغيظ من الكلام، وهاجوا به.. ثم نادى أعداؤه بعد صلاة التراويح في ذلك اليوم بذهاب الدين وضيعته، وصاروا يندبون ويبكون ويصرخون، وحرّضوا العامة على التجمع أمام دار الحكومة، ففعلوا، وتبعهم خلائق لا يحصون في ذلك اليوم المزدحم يوم الوقفة، وجعلوا يصرخون، ويشتمون السيد رشيد الذي اضطر لتهدئة الفتنة إلى مغادرة البلد، ولم يكن مضى على وصوله إليها سوى يومين. وعندئذ تفرد مثيرو القلاقل بالقاسمي، وأشاعوا في البلدة أنه هو الذي دعا السيد إلى الزيارة، وأشعلوا عليه حرباً اضطرته إلى لزوم بيته ثلاثة أشهر، فلم يغادره إلا لصلاة الجمعة في مسجد صغير قرب داره، وعانى في أثناء ذلك ضيقاً شديداً. ولعله كان يحاذر على نفسه الشر والأذى؛ لأن أخاه عيداً تسلح طوال تلك المدة بمسدس تحسباً للمفاجآت. وبقيت الأسرة في تلك المحنة تكابد «الأكدار والأحزان ولا أحزان المآتم». وحاول خصومه كذلك عزله عن الإمامة والتدريس والخطابة، فلم يقدروا، لأنه مكلف بها بموجب براءة سلطانية كانت لديه.. ثم إن العقلاء أعادوه إلى مزاولة نشاطه، فبدأ بالصلاة إماماً أول الأمر.. حتى إذا هدأت الفتنة تماماً رجع إلى الدروس[1].

---

(١) استانبولي، ٤١؛ ظافر، ٥٩٤ ـ ٥٩٥؛ الأعلام ٦/ ١٢٦.

ولقد أثارت هذه الحادثة الأمير عادل أرسلان[1] فنظم بها قصيدة، قال فيها يسخر من خصوم القاسمي:[2]

حزب التقهقر ما لعينك دامية   تبكي أسى وعن الهدى متعامية
حزب التقهقر ما لقلبك خافقاً   تسقي الثرى بمدامع لك هامية
يا أهل ذاك الحزب حزتم عندنا   شرف التقهقر رتبةً متسامية
ما بالكم والأمر فوضى بينكم   غضباً على الدستور ناراً حامية

* * *

يا أيها الفقهاء أول من درى   أنّ البطاطا شرح متن البامية
إني رأيت الشورباء حزينة   أضحت على أذيالكم مترامية
فكلوا المحاشي والمواشي جملة   تهتز من فوق بقول نامية
أظننتم الدستور حرم أكلها   لا والذي خلق العقول السامية
فابنوا من القرع الطويل دوارعاً   فالدهن عندكمُ بحور طامية
وتحصنوا في قلعة النيفا ولا   تنسوا المقادم أن تكون الحامية
واحموا حمى ستي ازبقي وتسلقوا   سور الكرنب مع القسيّ الرامية
ما دخل وهّابيتي في أمركم   ماذا اخترمت لتنكروا إسلاميه
هي شيعة لا تشتم الكوسا فما الداعي لتكفيري ودق عظاميه
آخذتم الدين الحنيف بأنكم   تستوجبون عليّ كأس حماميه
ما خنتكم في صحبة المحشي ولا   أفسدت بالتقليل منه صيامه
طباخ روحو شافع ليَ عندكم   مني عليه تحيتي وسلاميه

(١) انظر لترجمته: الأعلام ٣/ ٢٤٣.
(٢) ظافر، المرجع السابق، نقلاً عن مذكرات القاسمي.

أشهى لديّ لو أنه يودي بكم   من أكله وبذاك نيل مراميه
كذَّبت «دروينا» فحين بلوتكم   صدقته وكففت عنه ملاميه
سبحان من سمك السماك ومن برى   هذي الخلائق لا أطيل كلاميه

حصل هذا للقاسمي في ظل الدستور الذي ظن الناس أنهم سيكونون في زمنه أحسن حالاً بما سيقدمه من حريات، فتبين أن رجال الحكم المطلق كانوا أرحم بالعرب من الاتحاديين. وقد بقي القاسمي آمناً من قبل مع كثرة التقارير التي كانت ترفع ضده منذ عام ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م حتى عام ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م. ولم يكن يُتَّهم آنذاك بغير الاجتهاد، ولم يكن يؤذى بغير تفتيش كتبه.. لكنه مع العهد الجديد ـ وقد انتظره المتنورون طويلاً ـ يتعرض لاتهامات، كان بعضها كفيلاً أن يؤدي به إلى المشنقة أو الاضطهاد والنفي؛ فحينما يجيء رمضان من عام ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م يدعى القاسمي وصديقه البيطار إلى المحاكمة بتهمة تحريضهما على تأسيس جمعية النهضة السورية التي كانت تطالب بالاستقلال الإداري، وتدعو إلى قيام حكومة عربية. كما وجهت إليهما تهمة الاتصال بأمراء نجد والمتمهدي باليمن. وسألهما المحققون عن مذهب الوهابية، وعن عدد الوهابيين في الشام.. وواجهوهما بوشاية، رفعت إلى الحكومة، تزعم أنهما يخدمان فكرة عزة باشا العابد في الجمعية المذكورة[(١)].

---

(١) الدكتور صلاح الدين القاسمي، ٤ ـ ٦٨؛ ظافر، ٢٠٣؛ قاموس الصناعات ٢/١٩٨ ـ ١٩٩. وقد مرت ترجمة عزة باشا العابد في الفصل الأول. =

ودافع القاسمي وصاحبه عن نفسيهما، وتنصَّلا من هذه التهم كلها، ثم اتسعت القضية على المحكمة؛ إذ وجهت اتهامات أيضاً إلى عدد كبير من رجال البلاد المثقفين والشيوخ والأعيان، فاضطربت الأحوال، مما أدى إلى خوف المسؤولين من مغبة نتائجها، فطويت القضية من أساسها[1].

وفي العام التالي ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م يعقد الشيخ العزم على الرحلة إلى المدينة المنورة، بعدما تتوق نفسه لزيارة قبر النبي ﷺ، ويتلهف قلبه إلى مهبط الوحي، فيخرج بالقطار في ٢٤ ربيع الأول من ذلك العام. ولكن رحلته لا تطول أكثر من بضعة عشر يوماً، لأن رفقته وفيهم نسيبه خليل العظم[2] يستعجلون الأوبة، وهو يتمنى أن يبقى حولاً كاملاً ليستجلي أنوار الحضرة النبوية، ويزور قبور الصحابة رضوان الله عليهم. وقد قال في هذه المناسبة: «ودخل عليَّ من السرور برؤية المسجد الحرام والحجرة الشريفة والروضة الطاهرة وذكرى السيرة النبوية ومشرق نور الهداية ما لا يمكن التعبير عنه»[3].

وكان من أهم ما فعله في المدينة المنورة بعد التردد على الآثار التاريخية زيارة خزائن الكتب، وقد وقع فيها على نفائس المخطوطات، ونسخ منها شرح منظومة ابن البواب البغدادي

---

(١) ظافر، ٢٠٤.
(٢) مرت ترجمته في الفصل المتعلق بالأسرة القاسمية.
(٣) ظافر، ٦١٣.

الكاتب، وهي رسالة في الكتابة، ومقدمتي المحلَّ لابن حزم في مسائل أصول الدين وأصول الفقه، ونقل ثبتاً بأسماء كتب انتقاها من مكتبتي عارف حكمة والمحمودية، نشره فيما بعد على صفحات مجلة المقتبس الدمشقية، وقد أشار فيه إلى مكتبات أخرى غيرهما في المدينة، زارها وأحصى ما فيها إحصاءَ حصرٍ يدل على شغفٍ لا ينتهي بالعلم وأسفاره، كما يدل على عقلية العالم المتنورة الذي يريد نشر العلم ليستفيد من كتبه أكبرُ عدد ممكن(١). وهو إذ يتصل بعلماء المدينة المنورة ويسر بهم يؤلمه ما رأى فيها من «كثرة البدع المعروفة هناك وانتشارها، وأعجب من هذا العجب تلقين بعض المتعممين إياها ببعض دريهمات للزائرين.. وأعجب من كل ذلك سكوت العلماء. إلا أنه يظهر أن لا عالم يقدر على التفوه بذلك، لما تمكن في الأنفس من اعتقاد ذلك ديناً»(٢).

وينظر إلى المدينة نظرة عامة فلا تعجبه أحوالها، فيقول: «والمدينة في حاجة كبرى إلى مصلح وأمير منوَّر غيور، يسعى في تنوير طرقها، واتساع عمرانها، وتمهيد سبل رقيها المادي والأدبي»(٣).

وبعد رجوعه تطّرد الحياة لديه لا شيء طارئاً فيها.. لكنه بعد أعوام قليلة يتوق للسفر مرة أخرى إلى مصر ذاكراً أيامه الجميلة الأولى فيها، فيرحل إليها في ربيع الثاني من عام ١٣٣١هـ = ١٩١٣م

---

(١) ظافر، ١٦٣ ـ ١٧٥؛ مجلة المقتبس المجلد ٤، ج١٦/٧١٨ ـ ٧٢٠.

(٢) ظافر، ٦١٤.

(٣) ظافر، المرجع السابق.

صحبة رفيقيه البيطار وسليم البخاري.

ولا نعرف كثيراً عن هذه الرحلة، ولعل له مذكرات فيها ضاعت[1]. ولكننا نعلم أنه يتصل بالسيد رشيد رضا، يدلنا على ذلك أنّ هذا الأخير حمل له رسالة من صديقهما المشترك الأمير شكيب أرسلان يدعوه فيها إلى اللقاء. كما يتصل هذه المرة بالعلامة أحمد تيمور باشا فيعجب به تيمور، ويصفيه ودَّه، مثلما يعجب به القاسمي ويثني عليه الثناء الجميل[2].

ويشير رشيد رضا إلى بعض أعمال القاسمي في رحلته هذه فيقول: «عُني في آخر عمره بإثبات نسبه الحسيني بطريق الشيخ إبراهيم الدسوقي الشهري، وكتب شجرة له، وجاء مصر في العام الماضي [١٣٣١] لشؤون تتعلق بذلك. وكتبنا له كما أحب كلمات على نسبه. وقد صار بعض تلاميذه وأصحابه يطلقون عليه لقب السيد بعد تحرير هذا النسب، بناء على القول بعموم شرف الأسباط». وقد عقب رشيد رضا على هذا بقوله: «والشيخ غني عن هذا اللقب الذي لا يفهم المراد منه أحد»[3].

ولا نجد شيئاً غير عادي بعد رجوعه من مصر. وأظنه كان يمضي بقية عمره منكباً على الدرس والتدريس، مداوماً على البحث والتأليف، مواظباً على التوجيه وبث الدعوة التي اضطلع بها.

---

(١) يذكر ابنه ظافر أنه لم يرجع إلى عشرين دشتاً، فلعله يذكر في بعضها رحلته هذه وأشياء أخر.

(٢) ظافر، ٥٠٨، ٥٢٨.

(٣) مجلة المنار: مج ١٧، ج٧/ ٥٥٨.

إلا أنه يصاب بمرض يلم به في منتصف السنة المذكورة، فيرحل إلى البقاع مع إبلاله منه، لِيُرَوِّحَ عن نفسه ـ في شعبان ـ متنقلاً في قراه وأرجائه. ثم يعود إلى دمشق مثابراً على وظيفتي الإمامة والخطابة في جامع السنانية، جامعاً إليهما أخيراً وظيفة التدريس العام بتكليف من محمد باشا العظم ناظر أوقاف الدولة العثمانية[1].

وينزل القدر بالمكتوب، فلا يكاد ينهي الشيخ العقد الخامس من عمره حتى تعصف به الحمى، ويعوده طبيبه عبد الرحمن الشهبندر، يريد أن يعالجه، فلا يسعفه طبه مع القضاء المُسَطَّر، ويوقن أنّ الشيخ يعالج سكرات الموت، ويسقط في يده، ولا يملك لسانه إلا أن يقول: «لعن الله الطب إذا كان الطبيب عاجزاً عن إنقاذ حبيبه». وكانت ساعة أليمة على الأسرة والأصدقاء والتلاميذ الذين كانوا يحفُّون بالشيخ مساء السبت في الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام ١٣٣٢هـ = الثامن عشر من أبريل/ نيسان ١٩١٤م.. حين لحق بربه راضياً كريماً[2].

وخرجت جنازته في اليوم التالي حافلة جداً، انتهت إلى مقبرة الباب الصغير، حيث ووري جثمان أبي الفرج محمد جمال الدين القاسمي، بعد أن انطوت صفحة في سفر أعلام العلماء العظيم، وبعد أن خلّف منهجاً هو منهج العقل والتقوى والعلم[3].

---

(١) استانبولي، ٢٠.

(٢) استانبولي، ٩٥.

(٣) استانبولي، المرجع السابق.

ولقد نعاه أهل العلم في دمشق وبيروت ومصر والعراق، وتحدثوا في مآثره، وبكاه جماعة من الأدباء في شعرهم ونثرهم، وعددوا مآثره الحميدة؛ فقال الزركلي:[1]

ظهرتَ للناس والألباب مُظلمة ... تشكو إلى الله ما ألقت بها الحقب
والدين قد حجبت عنا حقائقه ... غشاوةُ الجهل والتمويهُ والكذبُ
ينتابه من أذاة الجاهلين به ... ما كل قلب له من لوعة يَجِبُ
كم مُدَّعٍ نصرة الدين الذي عظمت ... آياته كاد منه الدين ينشعب
من كلِّ أخرق في أخلاقه شرس ... في عقله لمم، في قلبه وصب
أحنوا على الدين إحناء الذئاب على ... سرب من الشاء أعيى حيله السغب
تعصبوا لأضاليل ادعوا كذباً ... بأن دين الألى يأبونها خرب
ما زال يعمل في أكبادهم قلم ... مسَيَّرٌ منكَ بادي الحد مرتهب
له إذا انهلّ في ألبابهم أثر ... تعنو القناة له والصارم الذَّرِب
مؤيد ببراهين له خضعت ... جباههم واغتدت بالخزي تنتقب
مؤزر بقوى العلم الذي بُهِرت ... منها النهى وعراها الذعر والرعب
حتى أضاءت لنا منهاج شرعتنا ... وبات من شاء شراً وهو مكتئب
يا أيها الموت هلا كنت تُمهله ... حيناً لعل به تُستأصل الريب
نعيت للموت ذخراً كان مدخراً ... للنائبات وبحراً ليس يضطرب
لو كنت تعلم من أرديت نمت على ... أجلِّ ملتحد يبكي وينتحب

---

(١) أورد القصيدة استانبولي، ٢٣، ٤٧، وقال: لم أجد في ديوان الزركلي هذه الأبيات، وكذلك لم يشر إليها في ترجمته للقاسمي. وكان الزركلي في العشرين من عمره سنة وفاة القاسمي». وهو أيضاً لم يذكر المصدر الذي استقاها منه ولعله أخذها من وثائق الشيخ حامد التقي.

ألم يكن سيداً طابت خلائقه ... مفضلاً أنجبته سادة نُجُبُ
ألم يكن كعبة القصاد منزله ... والمورد العذب ما يملي وينتخب
ما عابه قط إلا أنه أَنِفُ ... يأبى الهوان وإلا الجد والدأب
والحلم ما الحلم إلا شيمة غرست ... به وهيهات أن يهتاجه غضب
والجود ما الجود إلا من شمائله ... يعطي وما إن يبالي بالذي يهب
من لي بتعداد ما أحرزتَ من خلق ... وحزت من شيم تسمو بها الرتب

وقال أخوه صلاح الدين القاسمي في قصيدة سماها الدمعة اليتيمة(١):

ما لجوّ العلوم داجي الذيولِ ... أَتُرى مال بدره للأفولِ
أم هوى نجمه وغار ضياه ... ودهاه الردَى بليل طويل
فغدا الناس تائهين حيارى ... عن طريق بهديهم موصول
ما لهم قد عرتهمُ رعدة الخو ... ف وباتوا حسرىٰ بطرف كليل
وأقضت بهم مضاجعهم حز ... ناً وباتوا من الأسىٰ في ذهول
حق للقوم أن يطلبوا عزاء ... موجعاً حُفَّ بالبكا والعويل
فلقد فوجئوا بموت إمام ... كان في العلم آية للعقول
مَن إذا مشكل عرىٰ في مهمّ ... قام يسعى لحله بالدليل
نال مجدين: مجد علم، وأصل ... فسما كل ذي نِجادٍ أصيل
قد زكت نفسه بروض فنون ... هي غرس المعقول والمنقول
أطلعت أرضها زهوراً فلما ... أينعت آل فرعها للذبول

---

(١) الدكتور صلاح الدين القاسمي، ٢٩١، وقد صدَّر الشاعر القصيدة بقوله: إلى روح شقيقي الأستاذ جمال الدين القاسمي. وختمها بقوله: شقيقك البائس.

تلـك آثـاره تعهـدهـا الفكـ ـر فعاشت على ممر الفصول
كان يقضي النهار والليل بالدر س ويُحيي الأسحار بالتهليل
قد أذابت حياته لوعة البحـ ث فناب الضلوعَ داء النحول
لـو تـراه يسـوّد بعـد الـ فجر في جسمه الدقيق الهزيل
ذبلـت عينـه وخـارت قـواه تحـت ضوء من الصباح ضئيل
يقظاً للعلوم والناس غرقى في بحور من السبات الطويل
قلتَ: إن الحياة هٰذي وإن الـ ـموت فيما عليه أهل الخمول
ولـرمـتَ الخلـود للشَّبَحِ السا هـر لـولا تطلُّـب المستحيـل
ليت شعري ماذا جنى الشرق حتى أمطـرتـه سحـب الأسـى بسيـول
كلمـا أنجبـت حنـايـاه فـذاً شامخاً بالغاً مدى التحصيل
ورجـونـا على يـديـه نهـوضـاً وصـلاحـاً لخلـق هـذا الجيـل
عـاجلتـه المنـون كهـلاً وأبقـت ثلمـة مـا لسـدّهـا مـن سبيـل
ما لها لا أبا لها تخطف العا لي وتُبقي على السفيه السفيل
أتـرى أدركـت بـأن حيـاة الـ ـحرِّ ليست إلا كعبء ثقيل
فأطارت روحاً سجينة جسم قـد دعـاه صعـودهـا للنـزول
لهفَ نفسي قضى وآماله الغرّ (م) تـوارت مـزدانـة بحجـول
فبكتـه البـلاد شرقـاً وغـربـاً ورثتـه في عـرضهـا والطـول
بـديـار الشـآم بـاكٍ جـزوع وهلـوع شـاكٍ بـوادي النيـل
أين ذاك البيان يفعل باللب (م) بما قد يفوق فعل الشمول؟
أيـن ذاك الجنـان يخفـق بـالعلـ ـم فيبدي محاسن التأويل؟
أين منه ابتسامة البِشر تعلو وجهه ما لنورها من ضؤول
ذهبت كلها وأودعتِ الرمس فحـظ الجمـاد حـظ القـؤول

لم يـراعـوا فيـه العهـود وإلا ... لأحلّـوه في السهـى لا السهـول
يا أخي بعدك الديار غَدَتْ قفـ ... ـراً وحالت رسومها لطلول
ما مقامي بها وقد غاب عنها ... أنسها فهي في حداد وصول
آه يـا سيـدي ومـن بعـد اللـ ... ـه سـؤلي ومـوئلي ومقيلي
يا أحب الأنام عندي ويا من ... كان ردئي كالصارم المسلول
لم أمتـع طـرفي وقلبـي مليـاً ... منـك حتـى آذنتنـي بـرحيـل
يرحم الله والدي مات إذ كنـ ... ـت صغيراً فبتَّ أنـت كفيلي
فلقيـتُ الحنـان منـك وعطفـاً ... كـأبي يـوم عشـت وهـو معيلي
وتعلمـت في الأخـوَّة درسـاً ... نافعاً فوق درس ذكرى الجميل
إن أكن قد حفظت عنك خلالاً ... تـرتضيهـا فـأنـت كنت دليلي
أنـتَ أدَّبتنـي فـأحسنـت تـأديـ ... ـبي وأفهمتني مصير الكسول
أنت غذيتني بفضلك إذ سلّحـ ... ـت مستقبلي بعضب صقيل
لأخـوض الحيـاة فهـي عـراكٌ ... فـاز فيهـا القـويُّ بـالمـأمـول
نـم هنيئـاً في ذمـة الله نفـس ... طلبـت في حمـاه أسمـى مقيـل
قد صَفت جوهراً وخفَّت فطارت ... في فضـاء الفـردوس للتبجيـل
فاحرسيها ملائكَ الله دوماً ... إنـه كـان كـالمـلاك الجميـل
رفرفي فوقها ضحى، وضعيها ... من زهور التكريم في إكليل
أنشدي حولها مدائح شعر ... ذهبيّ يـزيـن شمس الأصيـل
إنها لن تموت ما دام في التا ... ريخ يحيى ذكر الإمام الجليل

وقال جميل الشطي:[1]

لله فاجعة الإمام القاسمي ... ما كان أسوأ وقعها في العالم
رزء غدا في الدين أكبر ثلمة ... وأتى لصرح العلم أعظم هادم
هو شيخنا وجمالنا وحبيبنا ... العالم ابن العالم ابن العالم
مَنْ مِثْله في القوم يرجى دينه ... والدين لا نلقاه غير مراسم!
مَنْ مثله في القوم يذكر علمه ... والعلم لا نلقاه غير عمائم!
من مثله في القوم يحسن خلقه ... والخلق أصل في صلاح الآدمي
من مثله في القوم يدهش حزمه ... والحزم يعرف منه عقل الحازم
من مثله في القوم يعشق لطفه ... واللطف يجذب منه قلب الناقم
كهل وقد خضع الشيوخ لفضله ... في مشرب يصفو وخلق هاشمي
نفس زكت وعن الحطام ترفعت ... وعلى الأنام سمت بفرط مكارم
يا شؤم يوم مستطير شره ... قلبت مفاتنها به طفارم
ولكم فتى قد صاح فيه كفازع ... ولكم فتى قد ناح فيه كهائم
حزنان حزن عم كل معاصر ... فاعجب وحزن خص كلّ ملازم
من بعده للدرس في تقريره ... والدرس يبكيه بدمع ساجم
من بعده للطرس في تحريره ... والطرس يرثيه بحزن دائم
يا نكبة في الشام بعد فراقه ... عقدت لها أبداً كبار مآتم
دعواه قال الله قال رسوله ... والعقل رائده فيا للواهم
ظهرت له حشوية من شأنهم ... نقد الجديد ونصرة المتقادم
فغدا يريهم كل يوم نكتة ... علمية فيردهم كبهائم

(١) استانبولي، ٩٦. ولم أظفر بديوان الشطي للرجوع إلى القصيدة.

من كل تأليف يفوق بوصفه   وبجمعه يحلو لكل منادم
حتى علا في كل قطر شأنه   ودرى المفكر صاحياً من نائم
مهلاً عداة المصلحين عدمتكم   إني لكم والله غير مسالم
ها نحن بالمرصاد أنصار الهدى   ندعو إلى الجولان كل مزاحم
إن كان مات القاسمي فإنكم   سترون منا كل يوم قاسمي!
نحمي طريقته ونرعى عهده   في الحق لا نخشى ملامة لائم
رحماك يا أستاذ كيف أمرتنا   بالوصل ثم قطعتنا بصوارم
فارقتنا من حيث يسقمنا النوى   أرضيت أن نبقى بسقم لازم
لكن روحك بيننا منشورة   فالفرد نعدله بجمع سالم
لا سيما في صنو فضلك من حكى   أوصافك الشهم المهذب قاسم
والله نسأل أن يثيبك رحمة   عما صنعت بناثر أو ناظم

وقال توفيق البزرة:[1]

ملأ الطروس مع الصدور علوماً   ومضى فأضحى في الجنان مقيما
أودعتها نوراً فناراً أعجزا   أن يفصلا أبداً ولست ملوما
أنى وأنت جمال القاسمي جمال أهل الشام حلماً واسعاً وعلوما
طافت معارفك البلاد فكيف بالتفـ   ـسير لو طاف البلاد عموما
لم يقدروه بنشره ولو انهم   فعلوا لكان النفع فيه عميما
فسيعلمون حياتك العليا بما   أورثت من فضل يدوم سليما
وسننت من طرق المكارم والتقى   هدياً يخلد بعدك التنظيما
إن المنية لا تجاوز حدها   فتغادر المجد العظيم رميما

(١) استانبولي، ٩٧.

فالعلم والإحسان والتقوى وما قدمت من خير يدوم عظيما
ولك الأيادي في التلاميذ الألى حملوا اجتهادك في الصدور مقيما
من فتية تبعوك في العلياء فاتخذوا الفضائل في الشريعة سيما
بل كل من ذكروا مقامك في العلا عطفوا عليك وسلموا تسليما
فعليك من رحمات ربي رفرف إذ لم يزل بالمحسنين رحيما

وقال محمد بهجة البيطار:[1]

ألا في سبيل الله ما نال شيخنا بدعوته وانتابه من متاعب
وأعجب من كل العجيب خصومه أفاعيلهم تقضي بكل العجائب
يسبون من للدين قد جاء ناصراً ويرمونه حمقاً بكل المثالب
وهذا هو الإسلام دين محمد أحاط به الأعداء من كل جانب
عليه لقد شدوا بفي مدارس وشدوا عليه بالقنا والقواضب
وهم يشهدون الطعن في دين أحمد وما منهم من غاضب أو معاتب
وتنظرهم ما بين كاسٍ وطاعم وتشهدهم ما بين لاهٍ ولاعب
فمن كان منهم غائباً مثل حاضر ومن كان منهم حاضراً مثل غائب
وليس لهم همٌّ بغير رئاسة وما همهم إلا صدور المناصب
سندفع عن أستاذنا طعن طاعن وندرأ عن أستاذنا إفك كاتب
فنحن إذا عنه رددنا خصومه نكون قضينا نحوه بعض واجب
فيا أيها الأستاذ نم بسلامة وقلب ركين ثابت غير واجب
على السُّنَّة الغرَّا التي قد سننتها غدا كل فرد سالكاً غير هائب
عليك سلام الله ما ذر شارق ورحمته تنهل مثل السحائب

(١) استانبولي، ١٠٠.

وقال عبد الرحمن القصار:[1]

على فقد ركن بالوقار مجلل ... قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
قفا نبك من ذكرى إمام قضى ولم ... يدع أملاً في راحة لمؤمل
قفا نبك من ذكرى عزيز قضى ولم ... نذق بعده إلا مرارة حنظل
قفا نبك ركناً هد ركن اصطبارنا ... بمعول رزء بل مصاب مزلزل
قفا نبك شمس العلم والحلم والتقى ... ونندب كنز الفضل غيث التفضُّل
لنبك جمال الدين بدر كماله ... بدمع حديث عن أسانا مسلسل
سأبكيه بالعين التي كم تمتعت ... بمرأى محياه البديع المكحل
سأبكيه بالدمع الذي إن نثرته ... تَنَظَّمَ دراً في مراثيه ينجلي
له الله فرداً في الفضائل جامعاً ... فيا لك من فرد يعد بجحفل
ويا قبره بالله كيف وسعته ... فإنك من بحر الجواهر ممتلي
فتىً كان كالروض الأنيق لمجتنٍ ... وكالشمس فضلاً وابتهاجاً لمجتلي
وقالوا قضى نحباً ولكنه قضى ... على كل حشوي غوي معطل
قضى قبل أن يقضي على كل باطل ... بصارم برهان من الحق منزل
لئن أنكروا شمس العلوم فإنهم ... يهيمون في ليل من الجهل أليل
رحلت جمال الدين منا مشيعاً ... بكل فؤاد في لظى الحزن يصطلي
أتيت بعصر كنت فرداً به وقد ... رحلت بوقت من مثالك يحمل
تحل بعفو الله والخلد لائذاً ... بظل لواء المصطفى خير مرسل
أنالك في الأخرى شفاعته غداً ... ومن حوضه يسقيك أعذب منهل
ويا لك من رزء به كم تقوضت ... مجالس وعظ بالجمال مكلل

---

(١) استانبولي، ٩٥.

ويا لك من خطب بمنعاه كم قضى   على خُطَب تزري بترجيع بلبل
أيا نعش لم لم تَسْمُ فيه إلى بنا   ت نعش فمأوى البدر بالمنزل العلي

وقال جرجي حداد[1]:

أجمل عزاءك فالمصاب جليل   والدمع في خطب الإمام قليل
جلّ الأسى يا قوم فاصطبروا له   صبر العظام على العظيم جميل
قد كنت أول من يذيل دموعه   لو كان يشفى بالبكاء غليل
جزعت دمشق وقد رأت علم الهدى   يلوي به عادي الردى فيميل
وإلى ظلم القبر يحمل نعشه   والفضل في أعواده محمول
واستشعرت أرض العراق كآبة   والهند خامرها الأسى والنيل
وبكىٰ أفاضلها على رجل قضى   في أمة فيها الرجال قليل
ومجاهر بالحق ليس يصده   قالٌ تردده الوشاة وقيل
أين التقية من صراحة صادق   لا الجور يرهبه ولا التنكيل
هو للحقيقة نثرة محبوكة   وعلى الضلالة صارم مسلول
لولا مجاهرة الهداة بهديهم   في الناس ما نفع الأنام رسول
أودى القضاء بعالم ومحدث   يستأسر الألباب حين يقول

(١) أورد القصيدة محمد كرد علي في المقتبس مج ٨/ ١١٠ ـ ١١١. وانظر لترجمة جرجي الحداد: الأعلام ٢/ ١١٧ ـ ١١٨ ويبدو أنه كان من الشباب الذين ترددوا على مجالس القاسمي. وقد شنقه جمال باشا سنة ١٩١٦. أما استانبولي فأورد قصيدة على اللام نسبها لجورج حداد ص٩٩، ولم يذكر مصدرها، وهي لامية أيضاً إلا أنها من بحر آخر ومطلعها عنده:

مات الإمام ابن الإما   م العالم العلم النبيل

وتقع في ٢٤ بيتاً.

بين المحابر والمنابر يومه   يفنى ويحيي ليله التحصيل
ملكت قلوب الناس منه شمائل   رقت فتحسب أنهن شمول
وإذا جلست إليه أسفر وجهه   وبدت عليه بشاشة وقبول
وجه يصون عن التبذل ماءه   فيكاد من فرط الحياء يسيل
عز الفضيلة بالإمام وأُسُّها   فشجونها من بعده ستطول
وافى يشيِّد صرحها وربوعها   لعب الفساد بهن فهي طلول
وتصدرت للعلم غير رجاله   فاعتز غر واستطال جهول
قد حكَّموا أوهامهم وتحكموا   فالعقل في ربقاتها مكبول
في كفهم نعم الحياة وبؤسها   وإليهم التحريم والتحليل
ولو أنهم عمدوا إلى التحقيق لم   يتعارض المعقول والمنقول
جمدوا احتفاظاً بالقديم وليتهم   نجحوا فلم يعبث به التبديل
نرضى القديم لو ارتضوه كما أتى   في الوحي لما أنزل التنزيل
والناس من نزغاتهم في ظلمة   لم يبد فيها للصباح دليل
ضاقت مذاهبهم وضل صوابهم   وعَدَتْ عليهم فترة وذهول
ما ضيَّق الدين الحنيف مذاهباً   بل ضيق التحريف والتأويل
نهض الإمام بردعهم عن قومه   والقوم منهم عاذر وعذول
بقريحة وقَّادة وعزيمة   تمضي وفي حد الحسام فلول
واختار شأن المصلحين وإنه   عبء تنوءُ به الرجال ثقيل
نم يا جمال الدين غير مروَّع   إن الزمان بما ابتغيت كفيل
فستعرف الأجيال فضلك في غد   إن كان لم يعرفه هذا الجيل

* * *

ثانياً ـ صفاته وشمائله:

كان جمال الدين القاسمي رجلاً أبيض الوجه، أسود اللحية كثيفها، رقيق البنية، نحيل الجسم ضعيفه، لطيف الجرم، مربوع القامة، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، يطالع من ينظر في صورته وجهاً نورانياً لطيف الخلقة كاملها، محبباً إلى النفس. وكان امرأ غضيض الطرف، كثير الإطراق، خافض الصوت، ثقيل السمع، خفيف الروح، دائم التبسم[1].

ولقد جبل شخصه منذ نشأته على جملة مزايا كريمة، تقتبس من مشكاة النبوة، فطره الله عليها وحلّاه بها؛ عرف بوداعته وأنسه وبشاشته ولين عريكته؛ وتلك خلة كانت لازمة له مع والديه وشيوخه وأهل بيته وجيرانه، ثم مع أصدقائه ومعارفه، ومن بعد مع طلابه ومحبيه.

كان يأنس بأبيه كل الأنس وينزله من نفسه منزلة التقديس والاحترام، ولا يخاطبه إلا بقوله «سيدي». وقد كتب في ترجمته لنفسه يقول: «كان سيدي الإمام الوالد رضي الله عنه ... كافأه المولى عني بخير الجزاء آمين..». وألّف كتاباً في سيرته، وفّاه فيه حقه[2]. وليس هذا فحسب بل كان يجانب كل ما يمكن أن يكدر أباه من قريب أو بعيد، فلا يتحدث إليه بما يزعجه، ويجتهد في مواراة الأخبار السيئة عنه. وقد نقل تلاميذه عنه قوله: «إنني في

---

(١) المنار، مج ١٧، ج ٨/ ٣٦٤؛ ظافر، ١٨٨، ٦١٣؛ استانبولي ٢١.
(٢) انظر مؤلفاته.

حياتي لم أخبر والدي بموت صديق له أو شخص يقاربه في السن خشية انزعاجه». وما قدم والده خدمة مألوفة مما يقدمها الآباء والأمهات للأولاد إلا وأبدى القاسمي اعترافه بالفضل والمنة لهما، فهذا والده يشتري ذات يوم كتاب إحياء علوم الدين للغزالي فيفرح به كل الفرح ويبادر فيكب على يده يقبلها إعلاناً منه للشكر العميق[(١)].

أما والدته فكان يسعى دوماً لإدخال السرور إلى قلبها، يحترمها ويجلّها ويبرها، ويحسن إليها بكل وسيلة، حتى إنه رتب لها مالاً يهديه إليها كل حين، ولقد قالت له مرة: لا حاجة لي بالنقود، فأنا مكفية، ولديَّ جميع ما أحتاجه. فقال لها: إنك تحتاجين إلى المال لتفرحي به أولادك وحفدتك الصغار[(٢)].

ولعله كان يخشى أن يحصل لأمه ما يكدرها من زوجته مما يدخل عادة بين الكنة والحماة، فكان دائم الحض لزوجته على رعاية أمه وحسن معاملتها وإكرامها.

بل إنه ليحثُّ إخوته على احتمال ما قد يبدر من أمهم من تصرفات لا ترضيهم، فيبدد سوء التفاهم لتبقى الأم مقدسة مكرمة.. فهذا أحد إخوته يشكو إليه مرة أن أمه لا تحترمه على كبر سنه وقدره عند الناس وحسن سمعته، فيبين له أن الوالدين ينظران إلى الأبناء دوماً على أنهم صغار مهما كبروا، وأن الأم لا تزال يخطر

(١) ظافر، ٣١، ١٨٩؛ استانبولي، ١٩.
(٢) استانبولي، ١٨.

ببالها ذاك الطفل الصغير الذي تزيل عنه أقذاره وتهدهده في مهده[١].

وظل القاسمي باراً بوالديه حتى بعد وفاتهما، يدعو لهما بصالح دعائه ورداً يجعله بين سنَّة الفجر وفرضه، وهو الدعاء المذكور في كتابه «الأوراد المأثورة». وما كان ينقطع عن زيارة قبريهما، يلاحظهما، ويرحمهما ويصلحهما. وقد رأى مرة حيواناً يريد أن يعشش في قبر أبيه فبناه بالحجارة. وهو كذلك يحرص على ذكرى والديه في كل مناسبة، ويدعو إخوته وأصدقاء والده لتلاوة القرآن على روحيهما والدعاء لهما..[٢].

ومع أنّ زمن القاسمي كان زمن شدة في تعامل الكبار مع الصغار والأزواج مع الزوجات إلا أنه عرف بإحسانه لصاحبته: أكرمها، وعلمها ما تحتاج إليه في عباداتها، وأرشدها إلى ما تستقيم به حياتها، حتى حفظت عنه أدعية وأوراداً وشيئاً من الشعر والفوائد، كما رأينا. ولما كان ينطلق من مبدأ التسامح فقد عاشت معه زوجه قرابة ربع قرن، لم تسمع منه خلالها كلمة نابية، ولم يبد لها ملاحظة تزعجها، فضلاً عن تأنيبها أو توجيه التهديد إليها.. ولم تره غضب مرة لأمر من أمور المعيشة اليومية التي لم يكن يأبه لها كثيراً؛ طلب منها يوماً أن تصنع حلوى، فغدرتها النار فاحترقت، فلما رأى ما صنعت لم يبادرها بغير الشكر وقال: «لقد أتعبناك منذ اليوم». وهو فوق هذا يتناءى عن أن تجد منه ما تكره ولو شيئاً

---

(١) استانبولي، ١٨، ٢١.

(٢) ظافر، ١٨٩ ـ ١٩٠.

بسيطاً، فما كان يعطيها مثلاً منديله الذي يبصق به، بل يغسله بنفسه تحرزاً أن يراه أحد. وبقيت هذه الزوجة الصالحة تذكره بخير طوال حياتها حتى أيام عمرها الأخيرة التي امتدت بعده أربعة وثلاثين عاماً[١].

وكان مع إخوته مثالاً للشفقة والحنان خصوصاً وأنّ والده ترك له ـ بعدما توفي وهو أكبر أبنائه ـ مسؤولية توجيه إخوته، وفيهم قاصرون. فأشرف على تربية أخيه الأصغر صلاح الدين وكان لا يجاوز عمره اثني عشر عاماً يومذاك، فرعاه وأدخله المدارس الرسمية، ثم كلية الطب ولم يغفل عن تربيته الدينية وتنمية ملكاته الأدبية[٢].

ومثلما رعى إخوته فقد حرص على الاهتمام بأولاده، فلم يقصر في توجيههم وكان يتولى في البيت تعليمهم زيادة على ما كانوا يتلقونه من علوم في مدارسهم.

وسعى إلى تنمية أفكارهم وشخصياتهم، وكان يجالسهم في الوقت الذي لم يكن كثير من الآباء يخالطون أولادهم الصغار أو يعرفون عنهم شيئاً. ومازار بنتاً من بناته بعد زواجها مرة إلا وكان يطلب إليها تلاوة آيات من القرآن الكريم على مسامعه، ويأخذ في تلقينها من المعرفة ما يناسب مستواها. وما كانت تناديه إحداهن بقولها: «يا سيدي» كما هو متبع مع الآباء والأجداد آنذاك؛ إلا

(١) ظافر، ١٩١، استانبولي ١٩.
(٢) ظافر، ١٩٢، وانظر الدكتور صلاح الدين القاسمي.

ويجيبها بقوله: «يا ستي»، تحبباً منه وإيناساً[1].

لم يرفع صوته على طفل من أطفاله إلا في الندرة، ناهيك عن استعمال الضرب في تأديبهم؛ ذلك لأنه كان يرى العنف في التربية وسيلة لا توصل إلى الهدف المطلوب. بل يعتقد أن التربية الحق يجب أن تعتمد على الحكمة، فيقول: «إياكم أن تأمروا أولادكم بشيء دون أن تذكروا حكمة ما تطلبون وفائدته ليتنبه الولد إليها، فلا يطيع طاعة عمياء. وقد علمنا الله تعالى ذلك فقال ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت، الآية: ٣٤] فبين تعالى الحكمة»[2].

وهو فوق هذا يعامل أولاده بكثير من اللطف والحنان، تغلبه عاطفة الأبوة حتى إنه لم يكن يرفض طلباً ممكناً لأي منهم، يبتغي إدخال السرور على قلوبهم، ويحب إسعادهم. وكان يخشى عليهم العين ويحاذر أن يصيبهم سوء. ولما اضطر إلى الموافقة على زواج بنته الثانية وهي في سن مبكرة نزولاً عند رغبة والدته كان يخلو بنفسه فيبكي جزعاً عليها[3].

ولم يكن هذا الحنان ولا تلك الرقة يأخذان من مكانته في النفوس، ولا يثلمان هيبته، بل كان له في القلوب احترام شديد وتعظيم. . حتى عند خصومه الذين كانوا يحسبون له حساباً، وربما

---

(١) ظافر، ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) استانبولي، ٨٨.

(٣) ظافر، ١٩٣ ـ ١٩٤.

رحبوا به في الطريق إذا رأوه على مخالفتهم له[١].

وكان له من هيبته تأثير على أساتذته؛ روي أن شيخه بكري العطار قال وقد قرأ حديثاً في الصحاح: إن هذا الحديث مشكل، لأنه يخالف مذهب الشافعي الذي نحن عليه، فقال القاسمي: هل الإشكال في الحديث الصريح أم في المذهب الذي خالفه؟ فقال الأستاذ: صدقت[٢].

ولكنه كان مع هذه الهيبة يحلم مع مخالفيه، فلا يجادلهم إلا بالتي هي أحسن، ويصبر كذلك على أذى الخصوم؛ من ذلك أن القاضي حكم له مرة بحق على غاصب مدع، فاضطر خصمه لأداء الحق ولكنه أسمعه بذيء الكلام مما دفع تلميذاً له كان معه أن يغضب لأستاذه ويجابه الخصم بالتأنيب، فلامه القاسمي قائلاً: «أصلحك الله؛ شخص صَعُبَ عليه أداء الحق ففرج عن نفسه بكلمات لا تضرني، بل أؤجر عليها بصبري، فاتركه يفعل ما بدا له»[٣].

ومن هنا كان لا يحب المراء ولا كثرة الجدال، وإنما يناقش الآخرين بأسلوب هادىء متلطفاً في المناظرة حتى إنه كان إذا لقي المماحك علَّمه من حيث لا يشعر وساق إليه الحجج، فإذا أيقن أنه من المكابرين الموهين أعرض عنه وقال: سلاماً. لذلك كان كثير من المخالفين فضلاً عن الموافقين لا يصدرون عنه إلا معجبين بعقله

(١) استانبولي، ٣٩.
(٢) استانبولي، ٢٨.
(٣) استانبولي، ١٨.

مقرين بفضله معترفين بقصور كثير من المشاهير عن إدراك شأوه، لأنه كان يخلب الألباب، ويستميل العقول برقته ولين كلامه؛ ذلك لأنه لم يكن يقصد الناس ولا يريد تتبع أعمالهم أو أقوالهم، بل يستهدف الأفكار ويبتغي إصلاح الأفهام، ومن أجل هذا لم يقرع أحداً من مخالفيه ولا استهزأ بهم ولا نال منهم.. ولقد أسمعه صديق له في إحدى الجلسات قصيدة في هجاء بعض خصومه فأنكر عليه شعره، وقال له: «نحن نسعى لهدم مشرب الهجاء وتخلية المسيء لسنة الله في خلقه»[1].

ولقد كان يداري هؤلاء الخصوم، فلا يهاجم أحداً منهم حتى في مبادىء الإصلاح التي يحملها، ويسعى دوماً لتهدئة الخواطر ودرء الفتن وتسكين العامة؛ وحين سأله أحد مناوئيه على ملأ من الناس يريد أن يحرجه ليريهم أنه سلفي المذهب أجابه بداهة: تفقهت على المذهب الشافعي[2].

ولقد رأينا كيف عالج بهدوء بالغ تلك الفتنة التي هاجت عند زيارة السيد رشيد رضا لدمشق سنة ١٣٢٦هـ.

وإذا كان دفاع القاسمي عن نفسه بهذا الأسلوب من اللطف، فذلك لأنه كان يحرص على علاقاته الطيبة مع الناس كلهم، وبخاصة مع خصومه ومبغضيه، ومع أعداء الإصلاح من حساده، ويتجنب ازدراءهم أو مدح نفسه على مسامعهم، لأنه لا يريد أن

(١) استانبولي، ٤٨، ظافر، ٣٣٧.
(٢) استانبولي، ٣٩.

تشتد بهم عداوتهم، أو يؤذيه شنآنهم؛ كان يسير مرة مع أحد تلامذته إذ وقف على حانوت أخذ يلاطف صاحبه، في حين ابتعد التلميذ متأخراً إلى الوراء.. حتى إذا مضى الشيخ في طريقه قال تلميذه: إن هذا كان من طلابك فانقلب عليك وعلينا، وأصبح يُوضِع في الفتنة التي أثارها عليك خصومك. فقال له: يا بني! وهل من الممكن أن يكون الناس كلهم على مشربنا.. إن أصحابنا في دمشق قلّة، نجتمع بهم مرة في الشهر أو مرتين. فهل تريد أن تعيش منفرداً عن الناس! كيف تدعو للإصلاح إذن، وأنت لا تصبر على أخلاقهم؟. ورآه تلميذ له مرة يتواضع لرجل كان يزامله في الدراسة ويناوئه العداء، فاستغرب ذلك. فقال له: أردت أن أخفف شيئاً من حسده، لئلا يضرَّ بي، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾. ثم قال بعدها ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ [سورة الفلق، الآية: ٥] أي إذا تمكّن، فيخترع أنواع الأذى التي لا تخطر على بال[١].

وكان من جملة مداراته للناس والحرص على تأليف قلوبهم أنه لم يكن يستعمل كلمة «أقول» لأنها كما صرّح لطلابه تؤدي إلى حسد الحاسدين ونفور كثير من الناس[٢].

قال بعض الباحثين: ومن هنا يفسر موقف القاسمي من ابن تيمية الذي كان يعنف أحياناً على أبي حيان الأندلسي، ولا يوافقه على عنفه ذاك[٣].

---

(١) استانبولي، ١٩، رشيد رضا، المنار، مج ١٧، ج٧/ ٥٦٠.

(٢) استانبولي، ٣٨.

(٣) استانبولي، ٥٠.

لكنّ ظروفاً تأتي على القاسمي تضطره أحياناً إلى الحدة وبعض العنف، فيستعمل مرة ألفاظاً لا يعهد له مثلها، وإن كانت غير موجهة لشخص بعينه، وإن كانت كذلك لا تقاس بكلام أصحاب الغلظة، فيقول مثلاً مدافعاً عن نفسه في زيارة معابد أهل الكتاب: «رب متفقه قح يعترض علينا في دخول الكنائس.. مقلداً في ذلك بعض الناعقين. فنقول له: كان الأجدر بنا أن نقف مع قاعدة الإمام الغزالي التي قررها في أول فيصل التفرقة من أن حق المقلد أن يسكت ويسكت عنه، ولكن نتنزل معه إفادة للقاصرين أمثاله، ونورد له من أدلة الجواز ما تلقمه حجراً، فنقول..»[1].

ويجأر بالشكوى ويحتد في حادثة المفتين التي جرت سنة ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م التي مرت بنا ويكتب مبرراً حدته وعنفه رسالة يبدؤها بقول الله تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] ثم يتابع تفصيل الحادثة ويتحدث بما صنع به المفتي رئيس الجلسة وينال منه.. ولكنه مع ذلك لا يذكر اسمه أبداً، ولا ينبزه بكلمة واحدة، وإنما يشكوه إلى الله..[2].

ولهذا قال في وصفه جميل العظم[3]: «انفرد جمال الدين بفضائل أثيرة ومناقب كثيرة، وصبر لصدمات المهاجين من متفقهة وقصاص ومخرفين، وكان له معهم مواقف حافظ فيها على سكينته ووقاره،

---

(١) ظافر، ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) انظر حادثة المجتهدين التي مرت في هذا الفصل.

(٣) انظر لترجمته الأعلام، ٢/ ١٣٨.

ولم يتجاوز حد المدافعة، فلم يسمع له فيها قعقعة مراء ولا صليل جدال»[1].

ولهذا قال فيه السيد رشيد رضا أيضاً: «كان تقياً ناسكاً، واسع الحلم، سليم القلب، نزيه النفس واللسان والقلم، يأخذ ما صفا ويدع ما كدر.. وقد بينا ما كان لأخلاقه الكريمة من حسن الأثر والوقاية من كيد الجامدين والحاسدين والإعانة على الإصلاح»[2].

وإذا كان كذلك مع أعدائه، فهو مع أصدقائه على جانب عظيم من النموذج الذي يحتذى من الوفاء والخلق والاحترام والمودة. وقد ذكر صديقه وصفيه صاحب المنار كذلك في وصفه أنّه «كان براً بالأهل، وفياً بالإخوان. ومن حسن وفائه أنه لم يقطع مراسلتنا ولا مراسلة الأستاذ الإمام في إبان وطأة الاستبداد الحميدي؛ إذ كانت مراسلتنا تعدُّ من الجنايات السياسية التي تعاقب الحكومة صاحبها أشد العقاب»[3].

وكان من صفاته التي نقلها تلاميذه: السخاء، مات دون أن يخلف شيئاً يذكر، وكان على قلة ذات يده يقدم لتلاميذه طعام الفطور عند درس الصباح[4].

ويسوءه كذلك بخل الناس وبخاصة أغنياؤهم منهم، ويسعى إلى تعليمهم الكرم بطريقة لطيفة؛ سافر مرة إلى حلب ومعه تلميذ

---

(١) استانبولي، ١٧.

(٢) رشيد رضا، المنار، مج ١٧، ج ٨/ ٦٣٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) استانبولي، ١٨.

له، فنزل في ضيافة رجل ثري جداً، فلم يُحْسِن وفادتهما، وقبيل عودتهما قدم له القاسمي هدية ثمينة. فقال له تلميذه: ليتك أقللت من قيمة الهدية، لأن مضيفنا لم يأبه لنا كثيراً. فأجابه: أريد أن أعلمه السخاء[1].

وقد جمع إلى الكرم عفة تَرَفَّع بها عن أموال الناس وابتعد عن طلب المنافع والتكسب، فعاش على الكفاف، ليس له مع علمه الواسع من الوظائف سوى ما ذكرنا في سيرته.

وكانت الفصاحة من صفات القاسمي البارزة، وكان يغتصب انتباه السامعين بلغته التي أطاعت لسانه على شكل لم يؤلف عند كثير من أهل العلم في عصره.. ولهذا ألفه الكثيرون وغشي مجلسه شباب الجيل[2]. وكان أحب الأوقات إليه وقت ينشغل فيه مع أصحابه ومريدي فضله المتنورين في بحث مسألة ذات بال أو مشكلة مهمة، فكنت تشهد عندئذ مجلساً يرتع فيه أصحاب العقول في رياض المذاكرات وبخاصة حين كان يحضر عنده البيطار أو الجزائري[3].

ورزق القاسمي صفة الدأب والحرص على الوقت، فهو إما في طلب علم أو مطالعة كتاب أو تدريس أو كتابة وتأليف، لا يعرف في حياته الملل ولا الكلالة أو الهدوء. ومن هنا نفسر كثرة تآليفه

---

(١) استانبولي، ١٢١.

(٢) ظافر، ٧٨، ٩٢.

(٣) مجلة المجمع العلمي، مج ٣٣/٤٣٨؛ ظافر، ٣٠، ٦٨، ٣٤٤، ٣٦٨. وانظر الفضل المبين، المقدمة، ص ٢٠، ٥٣.

التي نيّفت على المئة. ذلك أنه كان يستغل أوقاته الاستغلال الكامل.. قال عن نفسه: «وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة صحيح مسلم بتمامه رواية ودراية في أربعين يوماً، وقراءة سنن ابن ماجه كذلك في واحد وعشرين يوماً، وقراءة الموطأ كذلك في تسعة عشر يوماً، وقراءة تقريب التهذيب مع تصحيح سهو القلم فيه وتحشيته في نحو عشرة أيام.. فدع عنك الكسل، واحرص على عزيز وقتك بدرس العلم وإحسان العمل». وكتب مرة في مذكراته: «الكسل من النقائص التي تولد الخسائس والشرور، ويدل على ضعف في إدراك صاحبها وحطة في نفسه». وقال كذلك: «الكسل والخمول وحشو الذهن بالخرافات هي طريق الشر».

وهذا الجد والدأب عنده كان يتحلى به منذ شبابه الأول، حينما كان طالباً يسعى إلى الشيوخ، لا ينقطع عن حلقاتهم المنتظمة بحال من الأحوال؛ حضر درس شيخه سليم العطار في يوم شديد البرد كثير الثلج، لم يمنعه ضعف بنيته ولا تجشم المتاعب، فلما وافى الحلقة لم يجد عنده من الطلاب أحداً، فقال أستاذه: إنني أنتظرك وحدك، لأنني عرفت أنه لن يأتي في هذا اليوم غيرك[1].

ومن أجل ذلك قال يصفه محمد كرد علي: «كان القاسمي منذ وعى على نفسه يعمل على تهذيبها، ولا يكاد يمضي عليه يوم لم يستفد منه فائدة، ولم يقيد شاردة، فظهرت عليه مخايل النبوغ ولما

---

(١) استانبولي، ١٧.

يبلغ العشرين، فما بالك به وقد نيف على الأربعين وقارب أن يتم العقد الخمسين»[١].

وإضافة إلى هذا الجد فقد كان لا يزال محافظاً على أوراده، حتى في أيام الشدة، فهو يقول عندما أُوقِفَ في حادثة المجتهدين: «ثم نمت حسب عادتي، وقرأت وردي . . »[٢].

وقد جمع الشيخ إلى هذا الدأب والجد والنظام خصلة في حياته ربما كانت تميزه، وهي فضيلة الإقدام والإرادة، فهو إن خطر له خاطر اقتنع بصوابه وفائدته سارع إلى تنفيذه دون تردد ولا إبطاء، لا يثنيه عن الإرادة شيء[٣]، ولذلك تنزه عن الخور والتلكؤ وعدم الوضوح، فكان يعرف ما يريد ويمشي بخطا وئيدة ثابتة.

وكم كان يعجب من الناس الذين يمر بهم جالسين في المقاهي عند باب الجابية ويقول: «ما أرخص وقت هؤلاء عليهم، فياليتهم يعطونني شيئاً من أوقاتهم». وبالمقابل فقد قسّم أوقاته خلال اليوم تقسيماً حرص فيه ألا يضيع منه شيء في غير فائدة؛ فجعل وقت الفجر للدروس، وضحوة النهار للتأليف والكتابة، وبعد الظهر للقيلولة، ووقت العصر للتدريس، وما بين العشاءين لوعظ العامة. وخصص ما بعد العشاءين للتفسير[٤]؛ لأنه وقت مفتوح على ما يُظن.

---

(١) استانبولي، ١٥.

(٢) ظافر، ٦٠.

(٣) ظافر، ١٧٦.

(٤) استانبولي، ٢١، ٣٧.

ومع كل هذا الانشغال كان إذا واتت فرصة ليتعلم فيها علماً جديداً اغتنمها؛ وذكر طلابه أن أستاذاً في الرياضيات جاءه، يريد أن يقرأ عليه في علوم العربية كتاباً، فاشترط عليه أن يتعلم منه بالمقابل علم الفلك[1]. لم يمنعه أن يأخذ ممن هو أصغر منه سناً.

ومثلما كان الشيخ محافظاً على أوقاته حريصاً عليها، كان كذلك حريصاً على دينه معتزاً به، يخشى أن يدنسه أو يذله عند الكبراء والحكام في طلب الوظائف أو حل المشكلات أو التزلف. قال لطلابه: «لو بعنا ديننا لكنا أمهر من هؤلاء الذين باعوا أخراهم، وذلك بسبب ما منحنا الله من قوة العقل، ولكن الله عصمنا»[2].

ولذلك كان يتجنب التردد على كبار الشخصيات إلا قليلاً، تخلصاً من شر بعضهم، ويقول في ذلك: «كان السلف الصالح من العلماء يتردد على الخلفاء والولاة لوعظهم وإصلاحهم، أما نحن فقد بتنا نتردد عليهم تخلصاً من شرهم». ولقد عرضت عليه وظيفة قاضي عسكر براتب جليل فأبى وكان يردد كلمات إعجابه بالشيخ سعيد المجتهد الذي عفت يده عن أموال الوظائف وتكسب بالتجارة[3].

وإذ يأتي دمشق سلطان مراكش عبد الحفيظ يهرع إليه كثيرون رغبة بره وهباته، في حين يقعد القاسمي عن لقائه مع كونه من

---

(١) استانبولي، ١٩، ظافر، ٨٠.

(٢) استانبولي، ٨٢؛ المنار مج١٧، ج٧/ ٥٦٠.

(٣) استانبولي، ١٩، ٨٦، ٨٩.

العلماء خشية أن يظن به الظنون، إلا أنه عندما سمع بأن هذا السلطان يقوم على إصدار الكتب المفيدة لنشر العلم قصده وحاوره، فأعجب به وأكرمه وطلب منه قائمة تتضمن أسماء علماء ليهدي إليهم كتبه، فأعطاه اسم ثلاثين منهم[1].

وكان من اعتزازه بالعلم حرصه أن يكون العالم وطالب العلم محترمين بين الناس كي يتقبلوا منهما كلامهما وما يحملان من أفكار. فكان لهذا يحث على حسن المظهر فيقول: «من الضروري للعالم أن يكون حسن الهندام، فإن ذلك ينفعه في الدنيا والآخرة، ويجعله محترماً في العيون. ومراعاة الهندام من السنة المحمدية»[2].

ومع الجد الذي أخذ القاسمي نفسه به في حياته، كانت له أوقات يتنزه فيها بصحبة أصدقائه، ويستمع إلى الإنشاد، يعجبه صوت الشيخ عبد الرحمن قصّار الذي يصفه بقوله «المنشد المطرب والشاعر الأديب». بل يستمع كذلك إلى موسيقى الناي والعود عند آل العظم وغيرهم، وعند الصحفي أديب نظمي الذي كان «معه نوبة (فرقة) من أهل الفن». وقد لخص القاسمي رأيه في الغناء بقوله: «أما الفقير فإني لا أسر إلا بالإنشاء القديم المدون في مثل ديوان الجندي[3]، فإنّه تلك القدود والأدوار أطرب منها، وهذا

---

(١) استانبولي، ٢١.

(٢) استانبولي، ٨١.

(٣) هو محمد أمين الجندي الحمصي، عالم شاعر، انتقل من حمص إلى دمشق، فأخذ عن علمائها وكان من خاصة إبراهيم بن محمد علي باشا لما غزا بلاد الشام وكان يهنأ بمنادمته، وقد عرف بموهبته الفنية، وأخذ عنه أهل حلب=

الغناء المصري لا يحركني مطلقاً، وسببه امتزاج الفن السابق بنفسي وطربي من صغري به. وأما الناشئة الجديدة فلا علم لها به، لذلك لا تطرب إلا بهذا الحديث. وأما الفن القديم فقد ماتت أربابه، وآخرهم أبو خليل القباني الأديب الموسيقي الكبير رحمة الله عليه». وقد مر بنا كيف استمع هو والبيطار إلى مطرب أحضره لهما في مصر خصيصاً رفيق العظم[1].

ويجرنا هذا الكلام إلى الحديث عن حياة جمال الدين اليومية العامة، وقد تبدى لنا أنه امرؤ يحب أن تكون أموره منظمة متأنقة؛ فهو يستحسن العادات الجديدة الوافدة كتخصيص كل آكل على المائدة بصحن وحده وعدم اشتراك الجماعة بالغرف من وعاء مشترك، كما كان سائداً في اجتماع الناس على الطعام في زمنه. وقد استحسن ترتيب مائدة لوجيه نصراني دعاه في القلمون، وساءه تأخر قومه عن مثل ذلك[2].

ويزعجه في الحياة العامة أن يرى إسراف الناس في بيوتهم وإنفاقهم الأموال على الأطعمة بشكل غير مقبول وعدم التزامهم القناعة،

= الموشحات، توفي بحمص سنة ١٢٥٦. انظر ترجمته في: علماء دمشق وأعيانها ١/ ٤٤٠، منتخبات التواريخ ٦٤٥، أعلام الأدب والفن ٢٧ ـ ٣٠.

(١) ظافر، ١٥٠، ٣٣٢ ـ ٣٣٣، وقد أشرت إلى موضع ترجمة رفيق العظم في حواشي هذا الفصل آنفاً.

(٢) ظافر، ٣٧ ـ ٣٣٨.

ويرى أن الإسراف والاستدانة من السفاهة التي توقع في الفقر[1].

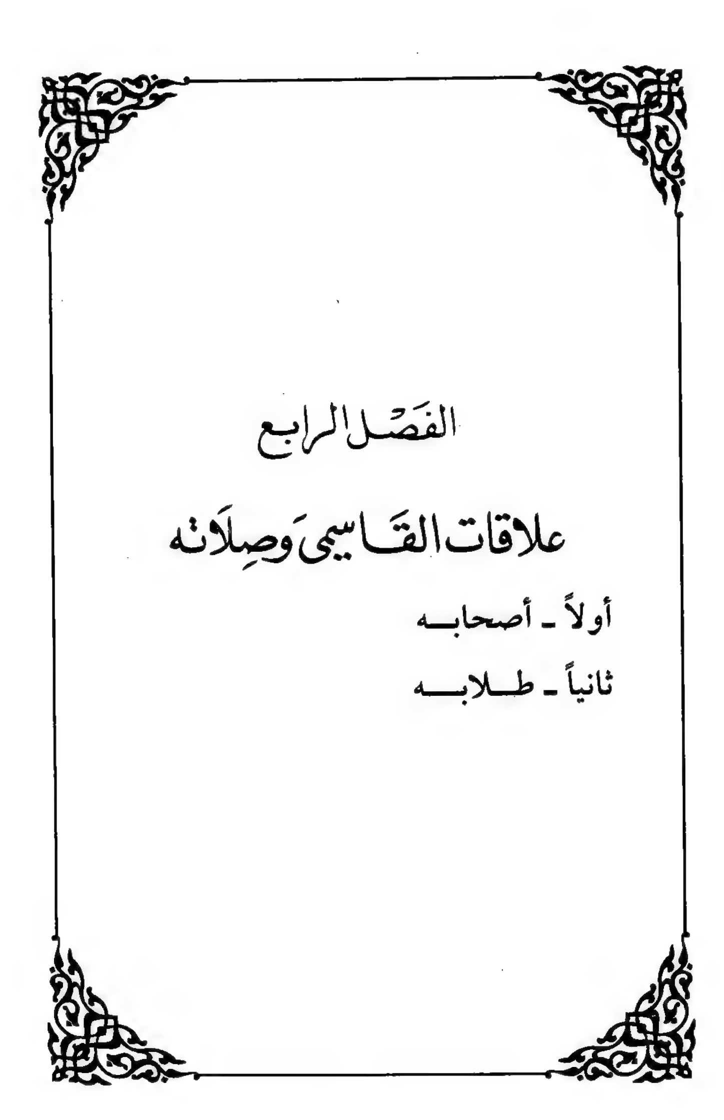
ومع هذا فإنّ له في الزهد رأياً قد يختلف مع آراء كثير من علماء عصره، فيعلن أن الحث على الزهد في الدنيا على الشكل الذي يطرحه بعضهم والقناعة باليسير وأن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت هي فقرات مخدرات مثبطات معطلات لا يرتضيها عقل، ولم يأت بها شرع[2].

هذه هي صفات القاسمي وشمائله التي نقلها طلابه وأصدقاؤه وأهله وأشادوا بها وأكبروه من أجلها، بعضها صفات أهل العلم المعروفة عنهم وبعضها الآخر تميّز بها من الآخرين.. وقد أهلته هذه المزايا أن يكون حاملاً لواء الإصلاح داعياً إليه على هدى وبصيرة، متحملاً من أجله ما يتحمله الدعاة في كل زمان ومكان.

* * *

(١) استانبولي، ٨٢؛ ظافر، ٣٥٤.

(٢) ظافر، ٣٥١.



الفصل الرابع

علاقات القابسي وصلاته

أولاً - أصحابه

ثانياً - طلابه

علاقات القاسمي وصِلاته

يقال إن أصدقاء الرجل ومعارفه بعض صورته التي تتضح بهم وتكتمل، ولعل هذا يصدق تمام الصدق على القاسمي من حيث الفكر والمنهج والاتجاه؛ فمن يتتبع الشخصيات التي ترددت على مجالس الشيخ واتصلوا به، ومن واصلهم هو وراسلهم يدرك تمام الإدراك ما كان عليه القاسمي من اتجاه فكري، ويعرف تصوراته الذاتية عن الحياة والدعوة؛ فقد تحلق حوله طبقة من العلماء المتنورين المصلحين الذين جمعوا إلى العلم طهارة النفس ونظافة اليد وصحة الاتجاه وسلامة العقيدة. وقصده طائفة من الشباب المتوثب المثقف الحر الذي ثار على الواقع الأليم، وانتهج طريق الإصلاح وطالب بالحرية[1].

أما طلابه المقربون فكانوا نغمة أخرى من بين طلاب العلم في دمشق كلها، أحبوا شيخهم الذي أدبهم على حسن الخلق ورباهم على السلوك الصحيح، وغرس فيهم الإيمان والعقل والفكر النظيف...

سوف أتناول بالحديث أولاً صحب القاسمي من العلماء وممن

(١) ظافر، ٩٢.

كانوا يترددون عليه من الشباب، ثم أنهي الفصل بالكلام على طلابه ودروسه.

أولاً ـ أصدقـاء القاسمي وقاصدوه:

أول ما نعرف من أصدقائه تلك الجماعة التي جمعتها حلقة مدارسة اشتهرت في دمشق وشاع أمرها وقام حولها لغط كثير وصل بعضه مشوهاً إلى مسامع الوالي حسين ناظم باشا، فأمر بعقد مجلس محكمة برئاسة مفتي الشام. وقد كانت تضم كما ذكرنا في موضعه عشرة من أصفياء الرجل منهم عبد الرزاق البيطار وسليم سمارة وتوفيق الأيوبي وأمين السفرجلاني وسعيد الفرا ومصطفى الحلاق وأحمد الحسني الجزائري[1] أما البيطار الذي كان بمثابة أستاذ الحلقة، كان يرى القاسمي بمنزلة ولده، وكان في رسائله إليه يخاطبه بقوله: «ولدي المعظم» لأنه يكبره بنحو ثلاثين عاماً أو أكثر، وبما أنها بنوة روحية فقد لازمتها كلمة «المعظم» لتعبر عن تقدير واحترام بالغين. ولقد اصطحبا في الرحلة إلى مصر، فما ذكره إلا بخير، وكان يشتاقه دوماً كما تعبر عن ذلك رسائل البيطار إليه، وقد صدر بعضها ببيتين يعبران عن عواطفه نحوه:[2]

يا مقيماً مدى الزمان بقلبي وبعيداً بشخصه عن عياني
أنت روحي إن كنت لست تراها فهي أدنى إلي من كل داني

---

(١) ظافر، ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) ظافر، ٤٩١ ـ ٤٩٤؛ وانظر النموذجين اللذين أوردهما من رسائل البيطار إليه.

سيدي ومولاي ادام المولى بقاءه واسمى في المكرمات ارتقاءه
ولا برح روض فضائله مطربا وسحر بيانه عن الفرائد معربا
ولا زالت ابكار افكاره تميس ببدائع البيان ودرر قلائد
لطائفه تشرق بين الحسن والاحسان آمين

غب اهداء ما يليق بسنى المقام من عواطر التحايا وواجب التبجيل
والاكرام فان المحب في بحر شوق مديد ما عليه من مزيد تتغشاه
امواج الجوى في سفينة لجي النوى لا تنجده الا نسائم اصحابه
ووسائل رسائل اجابه فوارحمتاه لصب هذا حاله
اقعدته عن نيل الوصال احواله يتعلل في الصباح والمسا
بلعل وعسى

عسى يذكر المشتاق في طي رقعة فحسب الاماني ان تريني رقاعه
فرب كتاب كان اشهى من اللقا اذا ضمه المشتاق ضم التياعه

جمال الدين

في ٢٥ شوال
١٣١٥

المولى يحرسكم وعليكم وعلى انجالكم اللطفاء والسادات الظرفاء السلام من محبكم وابنه محمد بدر الدين الحسني

إحدى رسائل القاسمي بخطه
صورة عنها في مكتبة الشيخ محمد بهجة البيطار
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
وثائق ـ رقم ٨٦٦

وقد كان يكيل له المدائح في رسائله كيلاً لا مزيدَ عليه وخصوصاً في المقدمات، كما كان القاسمي يخاطبه بسيدي ومولاي، ويبادله أشواقه بمثلها. ولقد كانت في البيطار صفات اتصف القاسمي بمثلها، فقرب ذلك بين روحيهما؛ فكلاهما كان على مشرب التصوف، وخاض فيه ثم تحول إلى منهج السلفية.. إذ رأى فيها طريق الإصلاح؛ كتب البيطار إليه يقول في هذا مشيراً إلى تأخره في العدول عن التصوف: «يا جمال! احمد الله على أن انتبهت وأنت في سعة من عمرك ولحيتك سوداء فتتمكن من الاستمتاع بعقلك ويتسع الوقت لنشر آثار فضلك، أما أنا فلم يعد لي وقت طويل في الحياة، وها قد ابيضت لحيتي وشاب قذالي، فانتبهت لأشياء كنت من القائلين بها، وقد كبرت سني، ووهن العظم مني»[(١)].

وكلاهما كان له اهتمام بالموسيقا، وقد عرفنا من قبل الذوق الذي أوتيه والد القاسمي بالأنغام وإتقانه لها وصحبته لأبي خليل القباني، وقد يكون ولده جمال الدين ورث عنه شيئاً منها[(٢)].

على أن البيطار كان مرجعاً فيها لا يقارن بالقاسمي، لم يفته تلحين شعر ابن الرومي وابن المعتز وأبي فراس وأبي الطيب. وقد أوتي إلى جانب ذلك صوتاً مطرباً، وعرفت له مجالس خاصة بالإنشاد والغناء المستجاد غير المحرم، يقصد به راحة قلبه من هموم الحياة. وقد ذكر القاسمي في رحلته مع البيطار إلى مصر كما أسلفنا

---

(١) تاريخ علماء دمشق، ١/ ٣٤٠.

(٢) ظافر، ١٥٠، ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

أن رفيق العظم أحضر لهم مرة «مطرباً تتروح القلوب بنغماته، وتتهادى الأنفس بطيب ألحانه». والبيطار إلى ذلك شاعر ما قصّر في التشبيب والنسيب والوصف، ونظم موشحات ومقاطع لعلها كانت من أرقى ما نظم العلماء والفقهاء[1].

وبقيت الصداقة والصلة بين الرجلين حتى آخر العمر متينة، يأنس كل منهما بصاحبه، ولا يُذكر أحدهما إلا ويذكر معه الآخر[2].

وأخيراً فالسيد رشيد رضا يلخص علاقة الرجلين بعضهما ببعض في قوله: «وكان يحضر مجالس الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار مجدد السلفية بالشام وقد استفاد من علمه وعقيدته الأثريه وهديه وأخلاقه المرضية ما لم يستفده من غيره»[3].

أما بقية جماعة الحلقة فلا ندري تماماً ما الروابط الشخصية التي كانت تجمع أفرادها بالقاسمي، ولكن المؤكد أنهم كانوا من الصفوة الطيبة من علماء الشام. وأنهم كانوا على رأي واحد وفكر متشابه وإلا لما ضمتهم هذه الحلقة.. ولما خشيتهم الحكومة تلك الخشية.. عرفوا كلهم بالخلق والعلم والمكانة؛ فأحمد الحسيني الجزائري[4] من

(١) تاريخ علماء دمشق ١/ ٣٤١، ظافر، ١٥٠.
(٢) مرت الإشارة لترجمة عبد الرزاق البيطار في حواشي الفصل السابق.
(٣) المنار، مج١٧، ج٧/ ٥٥٨.
(٤) للتوسع في ترجمته انظر: تاريخ علماء دمشق ١/ ١٩٢ـ١٩٦، حلية البشر ١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥، أعيان =

أسرة عظيمة، وهو أخو الأمير عبد القادر وأحد الصوفيين المعروفين، قادري الطريقة، قرأ على علماء كثيرين في الجزائر وفي دمشق بعد هجرته إليها. وكان من شيوخه فيها قاسم الحلاق القاسمي.

وسليم سمارة قرأ على آل البيطار في محلة الميدان، كان ناظر أوقاف جامع باب المصلى وإمام حي بحسب النظام العثماني. وهو بعدُ صوفي زاهد شاذلي الطريقة، وفقيه مبارك ورع، يبتعد عن الحكام ويحب الفقراء(١).

وكان مصطفى الحلاق عالماً مهاباً ونظاراً قوي الحجة يدرك خفايا الأمور ودقائقها، استفاد من صحبة عبد الرزاق البيطار وفكره، وقرأ على أجلة شيوخ دمشق. وكان من زملاء القاسمي في قراءة التصوف على الشيخ محمد الخاني، وكان من العلماء المتنورين، روي عنه أنه دخل هو وجمال الدين مرة إلى الجامع الأموي فجلسا في حلقة أخذ شيخها يتكلم عن فضلات النبي ﷺ، ويقرر أنها طاهرة. فقال الحلاق لصاحبه: قم بنا، فإن هذا يتحدث في سفاسف الأمور(٢).

= دمشق ٤١٤ ـ ٤١٥، تعطير المشام ق ٦٥ ـ ٧١ (خ)، الأعلام الشرقية ٢/ ٧٢، ٨٤، ٤/ ١٧٧.

(١) للتوسع في ترجمته انظر: تاريخ علماء دمشق ١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١، حلية البشر ٢/ ٦٨٤، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٢٥، مجلة التمدن الإسلامي، السنة ١٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) استانبولي، ٨٣، وللتوسع في ترجمته انظر: تاريخ علماء دمشق ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٢، تعطير المشام ٨١ ـ ٨٦، منتخبات التواريخ ٢/ ٧٩٥.

وينتسب توفيق الأيوبي لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. قرأ على عدد من شيوخ دمشق، وجمع إلى ذلك الدراسة في مدارس الحكومة ومعهد الحقوق، وكان له شأن مع أبي الهدى الصيادي[1] وأعان هذا الأخير فيما يعزى إليه من كتب، وقد كان أديباً فصيح اللسان حسن الإلقاء، مسالماً[2].

وجل ما نعرف عن أمين السفرجلاني أنه فقيه حنفي شاعر، تولى إمامة جامع السنجقدار والتدريس فيه، وله عدد من المؤلفات[3].

وآخر أفراد الجماعة محمد سعيد الفرا فقيه حنفي، خطيب في جامع التعديل بمحلة القنوات، صوفي يقيم حلقات الذكر[4].

فالجماعة إذن من مشرب واحد، أعضاؤها فقهاء علماء، غلب عليهم التصوف، حتى القاسمي نفسه كان نقشبندياً، لم ينهج بعد فيما يظهر منهج السلفية لأننا الآن في عام ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م. وهم يقرؤون كتاب كشف الغمة للشعراني[5] وهو مثلهم فقيه صوفي

---

(١) أشرنا إلى ترجمة الصيادي في بعض حواشي الفصل الأول.

(٢) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦، حلية البشر ١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٩، الأعلام الشرقية ٢/ ٩٢، إتحاف ذوي العناية ٤٥.

(٣) للتوسع في ترجمته انظر: تاريخ علماء دمشق ١/ ٣٣٢، الأعلام ١/ ٣٦١، منتخبات التواريخ ٢/ ٧١١، الأعلام الشرقية ٢/ ٨٩، معجم المؤلفين ٣/ ١٣.

(٤) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق ١/ ٤١٩، أعيان دمشق ٤٤٤، منتخبات التواريخ ٢/ ٨٨٦.

(٥) انظر لترجمته: الأعلام ٤/ ١٨٠، الخطط التوفيقية ١٤/ ١٠٩، شذرات =

وكتابه هذا يجمع إلى الفقه أخلاقاً. ولعل حلقتهم هذه كانت من الحلقات النادرة في دمشق، ليس فيها أستاذ وتلميذ وإنما تمثل نواة لما عرف فيما بعد بهيئة كبار العلماء، ولعل الجماعة لو تركوا لأسسوا شيئاً مثل هذه إلا أن الحكومة كانت إليهم أسرع، وظنت بهم شراً، مستمعة إلى ما قال فيهم خصومهم.

وأما الصديق الآخر الذي لازمه القاسمي بعد البيطار وأعجب به فهو الشيخ طاهر الجزائري الذي كان بدوره يتردد على مجالسه ويسعد بها.

وكان الجزائري كذلك يكره البدع والأوهام والظهور ويؤثر الحقيقة العلمية، ولقد انتفع القاسمي بمعرفة صاحبه للكتب مخطوطها ومطبوعها، كما انتفع ولا شك بأفكاره واطلاعاته وحركته. وكيف لا يعجب به وقد قيل عنه: «تاريخ النهضة الحديثة في مصر والشام مرتبط أشد الارتباط بحياة ثلاثة من عظماء الرجال تدين لهم البلاد العربية كما تدين البلاد الإسلامية بإيقاد أول شعلة أيقظت العرب والمسلمين من سباتهم، ودفعتهم لمقاومة الاحتلال الأجنبي، وبثت فيهم شعور القومية، وعلمتهم المطالبة بحقوقهم وحرياتهم والقتال من أجل استعادتها إذا ما سلبت منهم، إلى جانب دعوة عامة اقترنت بأسماء أولئك الرجال لما يسمى بالإصلاح الديني، يعود معه الدين إلى صفائه القديم، وإلى تعاليمه القويمة

= الذهب ٨/ ٣٧٢، معجم المطبوعات ١١٢٩ ـ ١١٣٤.

التي تكفل للمسلمين العزة والقوة والمركز الحضاري، بعد أن فقدوا كل ذلك بالتخلف والجهل والتمسك بقشور من الدين لا تغني عنه ولا تستبدل به، هؤلاء الثلاثة هم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وطاهر الجزائري»[1].

وجاءت أيام لازم الشيخ طاهر فيها وخلال مدة طويلة مجالس القاسمي، بل كانا يصطحبان إلى زيارة معارف لهما وربما سافرا معاً خارج دمشق، وقد يصحبه في زيارات شخصية[2].

وفي مذكرات القاسمي ما يشير إلى امتداد المجالس التي يحضرها الجزائري عنده إلى ساعة متأخرة بعد العشاء[3] في الوقت الذي لم يكن يعهد فيه بدمشق أن يسهر الناس، بل كانوا ينامون مبكرين من بعد صلاة العشاء. كما أنّ في المذكرات عبارات تدل على إكباره للجزائري كقوله: «واستفدنا من مباحثه»، «ولم نزل نستفيد من حضوره، فهو الشيخ المفيد والمرقِّي الوحيد»، و«بالجملة فالشيخ طاهر أعجوبة في عصره في الذكاء وفي التنقيب على الآثار العلمية، فهو شيخها في عصره بلا ريب، بل وفيما قبل عصره»[4].

ومع أن الجزائري كان معروفاً بأطوار خاصة به أخذها عليه

---

(١) الشيخ طاهر الجزائري، لعدنان الخطيب، ١١٩.

(٢) ظافر، ٢٠٩، ٢٦٣، ٤٣٣، ويشير إلى أنهما سافرا معاً سنة ١٣٢٤ إلى بعلبك وبيروت وصيدا.

(٣) ظافر، ٤٢٦ ـ ٤٣٥، وقد حدثني بذلك أيضاً الشيخ أحمد القاسمي.

(٤) ظافر، ٤٢٧، ٤٣٢.

بعض من عرفه وتنادروا بها وأشار إليها مؤرخوه لكن القاسمي لم يتعرض لها بقليل ولا بكثير، ولابد أنه آثر السكوت عنها[1].

وعندما سافر الشيخ طاهر إلى مصر سنة ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م بعدما تضايق من المراقبة بقي على ود مع القاسمي، وظلت الرسائل بينهما قائمة متصلة. فلما رجع إلى دمشق كان صاحبه قد لحق بربه[2].

وكان من أصدقاء الشيخ وعلى مشربه سليم البخاري.. إلا أننا لا نعلم شيئاً كبيراً عن صلتهما بعضهما ببعض إلا ما ذكر من أنه كان على صداقة تربطه بالقاسمي وبالشيخ طاهر الجزائري والشيخ عبد الرزاق البيطار وقد رحل معه في بعض رحلاته[3].

ومن أصدقاء جمال الدين المخلصين الأمير شكيب أرسلان المؤرخ الأديب المعروف، شغف كل منهما بصاحبه وأحبه، وكانت بينهما زيارات ودية كثيرة، وكان الأمير كلما حضر دمشق بادر إلى لقاء الشيخ وحضور مجالسه العلمية، ودعاه إلى زيارته في لبنان، فيلبي الشيخ الدعوة مسروراً متلهفاً إلى لقائه، وربما خرجا معاً بصحبة بعض الأصدقاء من أهل العلم إلى المتنزهات، فإن يمنعهما

---

(١) انظر تاريخ علماء دمشق ١/٣٦٦.

(٢) ظافر، ٤٣٦، ٥٠٩ ـ ٥٢١، وقد أشرنا إلى ترجمة الشيخ طاهر الجزائري في بعض حواشي الفصل الأول.

(٣) استانبولي، ٤٤؛ المنار، مج١٧، ج٧/٥٥٨.

الفراق بعضهما عن بعض اتصلا بالرسائل التي لا تنقطع[1] ولقد اصطحبا مرة في رحلة قصيرة سنة ١٣٢٩هـ = ١٩١١م الشيخ عبد الرزاق البيطار إلى القلمون، فضاع عند ثنية العقاب أحد خفي القاسمي مما دعا إلى تسلية الرفاق ومداعبة بعضهم بعضاً، وفي هذه الحادثة قال الأمير:[2]

قفا بين الثنية والعقاب ... على تلك المطالع والروابي
وسائل عن فقيد في ثراها ... فقدناه بأثناء الركاب
وغادَرَ إلفَه يبكي وحيداً ... عليه بأدمع ذات انسكاب
فقدناه لدى عَوَزٍ إليه ... وولى وهو في شرخ الشباب
ولكن كان أمر الله حقاً ... فآجال الخلائق في كتاب
فعوِّضْنا بجيرودٍ إلهي ... وأجزِلْ في المصيبة بالثواب
أيمشي المرء في خف وحيد ... ورجلاه اثنتان لدى الحساب؟
وكيف يقال في الأستاذ فينا: ... أضاع الخف في طرق صعاب؟

وقال أيضاً مرتجلاً:

أضاع له الأستاذ خفاً ولم يكن ... ضياعٌ لدى الأسفار يوماً بنادر
وما فقده إلا سهولة خلعه ... لذا فَضَل (البيتون) كلّ الكنادر
فيا راكباً متن الثنية قف بها ... فما وارد بالخف يوماً كصادر
لعل بجيرود خفافاً كثيرة ... فباكر إلى الخفّاف فيها وبادر
لذا فقده يا صاح عاد بحيطة ... فلستُ دمَ المفقود خفي بهادر

(١) ظافر، ٣٩٣ ـ ٣٩٥، ٤٩٨ ـ ٥٠٨، حيث نماذج من رسائلهما.
(٢) ظافر، ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

وقال:

لا تعجبنْ لضَياعِ جدَّ في سفر ... إلى الضِّياع فذا حلٌّ وترحال
واقنع إذا كنتَ في عَرض الفلاة بما ... يأتي فدون ركوب البرّ أوحالُ
فمن يُضِعْ خُفَّه عندالثنية فلـ ... ـيقنعْ بمشَّاءة يمشي بها الحالُ

ولما شارفوا جيرود قال:

لعمرك جيرودٌ مقام مقدس ... وذلك سرٌّ أمرُهُ ليس خافيا
لقد جاءها الأستاذ من دون خفه ... وقد دخل الوادي المقدس حافيا

وقال أيضاً لما أطار الهواء «قالب الجبن» ارتجالاً:

وقالب جبن طار للخف لاحقاً ... فقلنا له مهلاً ولا تتعجَّل
فقال: مراعاة النظير أردتها ... لكي تحرموا من ملبس ثم مأكل

وكانت عاطفة الأمير نحو الشيخ مشبوبة جداً، وبقي على ذلك حتى بعد وفاة القاسمي، يكيل له الثناء ويترسم خطا أفكاره، وكان مما كتبه إليه: «نسأل الله تعالى أن يرينا وجهكم على خير الأحوال، ويسمعنا قريباً أحاديثكم المسلسلة كالزلال، وآراءكم المسندة إلى أصح الأقوال..» فلما طبع كتاب «قواعد التحديث» بعد رحيل جمال الدين بواحد وعشرين عاماً كتب الأمير مقدمته، وكان يومئذ في جنيف، وجاء في كلامه «.. رأيت من هذا الكتاب في حسن ترتيبه وتبويبه وتقريب الطرق على مريد الحديث والإحاطة بكل ما يلزم المسلم معرفته من قواعد هذا العلم الشريف ما يقضي بالعجب لمن لم يكن يعرف علو درجة المؤلف، ولكنه مما لا يعجب منه مثلي

ممن حضروا مجالسه الزاهرة، وسمعوا تقريراته الساحرة».

وقد انتقد بعض الأدباء الأمير لكتابته هذه المقدمة لكونه غير مختص بعلم الحديث، فاستاء من كلامه وردّ عليه ودافع عن القاسمي دفاع المحب المعجب[1].

---

(١) ظافر، ٣٩٨، ٣٩٩ ـ ٤١٧، ففيه ماجرى بين الأمير شكيب ومحمد كرد علي في موضوع كتابه مقدمة «قواعد التحديث»، وانظر مجلة الرسالة العدد ١٠٩، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، ومقدمة الكتاب المذكور للأمير. ولترجمة الأمير شكيب انظر: الأعلام ٣/ ١٧٣، مجلة المجمع العلمي ١٢/ ٨٦، رواد النهضة الحديثة ١٠٩.

صورة رسالة من شكيب أرسلان إلى القاسمي

مولاي الأستاذ العلامة أيده الله

لم اقصر الى اليوم عن تقديم الجواب الا بناء على ما كان في النية
من التشرف بالنفس الى الشام فكنت كل يوم مقدماً القدم
محل القلم ومقدماً النفس مقام النفس ومازلت كذلك
والشواغل تدهشني والمسائل تجيذ بي حتى ايقنت الآن
ان امر هذه الزيارة مؤجل فجئت استميح منكم العفو عن تأخر
جوابي والاعتقاد انه ليس من قلة جودي بل والله يشهد
ان خيالكم دائماً امام الناظر وذكركم مسرة للقلب والخاطر
وقد شرف الاستاذ الطاهر فجاء لقيانه عندنا كما يجيء
بعد العطش السحاب الماطر وأكثر الليالي نجتمع فيا حبذا
لو انتظم العقد بوجودكم وشتاؤنا ربيع ونحن الآن بديع
فلو صرفتم فرصة العيد عاده الله عليكم مائة مرة بالاقبال في بيروت
لكان الانس بكم عظيماً والعقد منظماً وسلامي الى حضرة الشقيق الاديب
واطال الله بقاكم مولاي بيروت ٤ ذي الحجة

[illegible]

وربطت القاسمي صداقة حميمة بالشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا وأحمد الحسيني، وقد تعرّف هؤلاء كلهم في مصر عند رحلته إليها سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م. وسببت صداقتهم إحراجات له غير يسيرة، أقامت عليه الدنيا وأقعدتها، فحين زار الحسيني دمشق بادر إليه الشيخ يستقبله ويتلهف إلى لقائه، ويذكر معه أياماً حلوة في مصر خلت، مما يؤدي بالوالي إلى استدعائه ومساءلته عن أسباب الزيارة ويحذره كما مر بنا، فيضطر إلى الابتعاد عن الضيف الكريم[١].

ورأينا كيف ثار عليه خصومه عند زيارة السيد رشيد رضا لدمشق عقب إعلان الدستور ويضطرونه إلى الاحتجاب عن الناس والمسجد والتدريس ثلاثة أشهر طويلة[٢].

وكان السيد رشيد يُكبر القاسمي ويحبه ويحترمه، وقد بادر في مصر فطبع له على وجه السرعة كتابه «شذرة من السيرة المحمدية»[٣] وأفسح له فنشر مقالات على صفحات المنار. ويوم توفي القاسمي كتب صاحبه هذا فصلاً طويلاً عنه وفاه حقه وقام بواجب الأخوة والعلم[٤]. كما كتب بعدئذ مقدمة طويلة لكتاب قواعد التحديث.. وكان من وفائه لصديقه أنه لم يقطع عن أهله أعداد مجلة المنار[٥].

---

(١) ظافر، ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) ظافر، ٢١١.

(٣) انظر الكتاب في الفصل الخاص بآثاره.

(٤) انظر المقالة الضافية في المنار مج١٧، ج٨/٦٢٨ وما بعد.

(٥) ظافر، ٤٦٣.

صورة إحدى رسائل محمد رشيد رضا إلى القاسمي

إدارة مجلة المنار
(بشارع درب الجماميز بمصر)

Direction du Revue [Al-Manar]
• Caire, Egypte •

مصر في ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ – ٢ مايو ١٣٢٥ و ١٩٠٩ م

من محمد رشيد رضا إلى أخيه في الله عز وجل جمال الدنيا والدين وبقية السلف الصالحين حياه الله تعالى
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته : وبعد فإني لا أدري كيف استطعت أن أقيم
في بيروت خمسة أسابيع وأنا بالقرب منكم ولا أمتع نفسي بمكاتبتكم كما كنت
أمتع بالطيب ذكركم مع من يعرفكم كالأمير شكيب ومع من أعرفه بفضلكم من الفضلاء
ولا أعد من العذر ما بلغني من لياذكم بالعزلة واعتصامكم بجحر الوحدة بعد ما كان من الفتنة
ولا ما كنت عليه في بيروت من اضطراب البال وكثرة الأعمال مع التكاسل والإهمال
وإنما أقول إنني لم أكن موفقا للتمتع بهذه النعمة وربما كان العزم في كل أسبوع على السفر
هو السبب الذي كان يريني الوقت قصيرا وإن جعله القدر بعد ذلك طويلا

قرأت في الأهرام رسالة من دمشق ذكر فيها كاتبها أن خطيبي فتنة رمضان حاولا إضرام
نار فتنة أخرى عندما علما بثورة الآستانة وصاحا بالعامة أن اقتلوا الوهابية في هذه الفرصة
فاهم كبير ... ولكن الله أطفأ ما أوقدا فهل كان هذا النبأ صحيحا

كيف حال الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرزاق أفندي كنت عازما على الكتاب إليه اليوم ولكن
ضاق الوقت وقرب موعد سفر البريد [illegible] ومنك ألتمس إبلاغه تحيتي المباركة الطيبة
وكيف حال شقيقكم المهذب وليتني أدري هل عليه مشقة في وكالة المنار بعد ما كان من أعداء
النفس وعليهم ما كان وهل التحصيل [illegible] عسرا أم لا ؟ إن كان [illegible]
السيد [illegible] السلام وأنهي إليكم الآن [illegible] التحصيل [illegible]

على أن صداقة جمال الدين القاسمي للشيخ محمد عبده مع قصر مدتها كانت تحمل معاني التقدير والاحترام والإعجاب من كليهما نحو الآخر، إذ لم يلبث مفتي مصر أن توفي بعد سنتين أو ثلاث من لقائهما، إلا أن مراسلات كانت جارية بينهما قبل ذلك، فقد كتب إليه القاسمي رسائل عديدة كما جاء في رسالة محمد عبده إليه المؤرخة في ٢٧ صفر ١٣٢٢هـ وقد أثنى عليه فيها كثيراً[(١)].

تأثر القاسمي إذن بالشيخ وأعجب به، حضر دروسه في الأزهر، وأخذ يسجل عنه الفوائد التي يذكرها اقتداء بطلابه، كما رأيناه يكب على يديه يقبلهما أو يهم بتقبيلهما، ويطرح عليه أسئلة كانت تشغل باله، فيفرح بحصوله على إجابتها. وليس ذلك بعجيب البتة إذا عرفنا التوجه الواحد الذي جمعهما في الفكر والإصلاح والدعوة. ولعل دعوة القاسمي اتضحت أكثر بعد ذلك اللقاء به وبتلميذه رشيد رضا وتبلورت.

وإذا لم نقف على مدى حزنه بوفاة محمد عبده ـ إذ ليس بين أيدينا شيء يدل على ذلك ـ فقد أشرنا إلى قصيدة أخيه صلاح الدين في رثائه. ولعل هذا الأخ أعجب بالمرثي عن طريق جمال الدين فرثاه في تلك الأبيات تعبيراً عن عاطفة الرجل وتعاطفاً معه.

وممن كان يحسب في أصدقائه ويتردد عليه الصحفي أديب نظمي الذي ساعد في تحرير جريدة الشام الرسمية أول صدورها، وهو صاحب جريدة «الكائنات الأسبوعية» وقد ذكره القاسمي بقوله:

---

(١) ظافر، ٤٩٦؛ وانظر تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ٢/ ٥٤٩.

«صديقنا الأديب البليغ أديب نظمي»[1] ولعله تعرَّفه عن طريق البيطار لأنّ لهذا الأخير صلة به وشيجة، وقد وجدت في أوراق الشيخ محمد بهجة البيطار رسالة بخط الأديبة زينب فواز، أرسلتها إلى جده عبد الرزاق تشكو إليه فيها زوجها أديب نظمي[2].

وكان للشيخ مراسلات وصلات وصداقات كثيرة، كان من أهمها صداقته للعلاّمة أحمد باشا تيمور[3] ومصطفى الغلاييني[4]، ومصطفى نجا مفتي بيروت[5] والدكتور صالح قنباز[6] والشيخ محمد نصيف[7] وعبد الحي الكتاني[8]، وعبد الرحمن الكتاني[9]، ومحمد

---

(١) ظافر، ١٥٠، وانظر لترجمة أديب نظمي: الأعلام ١/ ٢٨٦، ومنتخبات التواريخ ٧٠٤، معالم وأعلام ٢٤١.

(٢) رقم الرسالة المذكورة في وثائق مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ٦٤٨.

(٣) انظر لترجمته الأعلام ١/ ١٠٠، مجلة المجمع العلمي العربي مج٨/ ٣٦٣، ١١/ ١٢٩.

(٤) انظر لترجمته: الأعلام ٧/ ٢٤٤، مجلة المجمع العلمي العربي ٢٠/ ١٩٠، الأعلام الشرقية ٣/ ٨١، معجم المطبوعات ١٤١٩.

(٥) انظر لترجمته: الأعلام ٧/ ٢٤٦، الأعلام الشرقية ٢/ ١٨٨، منتخبات التواريخ ١٣٢٥.

(٦) انظر ترجمته في الأعلام ٣/ ١٩٦، وقد استشهد في حماة ـ وهو منها ـ عام ١٩٢٥.

(٧) انظر لترجمة محمد نصيف الأعلام ٦/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٨) انظر لترجمته: معجم المؤلفين ٢/ ١٦٧ (الطبعة الجديدة ـ مؤسسة الرسالة)، مجلة المجمع العلمي العربي ٣٩/ ١٧٦.

(٩) انظر لترجمته معجم المؤلفين ٢/ ٨٦ (الطبعة الجديدة ـ مؤسسة الرسالة) نقلاً عن دليل مؤرخ المغرب لابن سودة ٤٢٧، ٤٢٨.

البشير النيفر[1] من تونس وشكري الآلوسي[2] ونعمان الآلوسي[3] وغيرهم كثير ممن وجهوا إليه رسائل تحفل بالمودة والاحترام[4].

وتعدت هذه الصلات البلاد العربية والإسلامية لتشمل غيرها؛ إذ ذكرت المصادر أن مستشرقاً روسياً زاره سنة ١٣٢٤هـ وطرح عليه أسئلة شتى عن تعدد المذاهب والاجتهاد والقضاء وعن بعض الطرق الصوفية، فأجابه عن كل ما سأل بالتفصيل[5]. كما أن في أوراقه رسالة من المستشرق المعروف لويس ماسينيون[6] سأله فيها عن نسخة مخطوطة فيها ردّ ابن تيمية على الحلاج[7]. ويكاد يكون القاسمي على صلة بكل مشهور من أهل العلم يستطيع أن يصل إليه. ولا يقدم دمشق عالم ذو فضل إلا اتصل به. وقد أشار جمال الدين إلى عالم جان الهندي وزيارته ونقاشه معه حول تفسير محاسن التأويل وأهدى بعض كتبه لسلطان مراكش عبد الحفيظ عند مقدمه دمشق[8].

---

(١) انظر لترجمته كتاب تراجم المؤلفين التونسيين، ٥/ ٦٧.
(٢) انظر لترجمته انظر أعلام العراق ٨٦ ـ ٢٤٢.
(٣) لترجمته انظر أعلام العراق ٥٧ ـ ٦٥.
(٤) انظر نماذج من مراسلات المذكورين في كتاب ظافر، ٤٨٩ ـ ٤٧٤.
(٥) ظافر، ٦٦٥، ٦٦٦. وانظر مذكراته في ٧ جمادى الثانية ١٣٢٤.
(٦) انظر لترجمته: الأعلام ٥/ ٢٤٧، ومجلة المجمع العلمي العربي ٣٨/ ١٦٠.
(٧) ظافر، ٥٥٧ وما بعد.
(٨) ظافر، ٦١٠، ٦٢٤.

صورة رسالة ماسينيون للقاسمي

91. RUE DE L'UNIVERSI[illegible]
Paris - VII
France

الأفخم

الى حضرة العالم العلامة [illegible] امام علماء الشام الشيخ جمال الدين القاسمي

عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته

[illegible] كتاب اجازة لإرسالنا هذا الكتاب الآتي

[illegible] والإجازة من استاذنا المحترم السيد محمود شكري

[illegible] و[illegible] مراسلتنا بتصنيفه لكم

[illegible] تاريخ الاسلام

[illegible] من الكتب اليكم كتاباً استشاراً

[illegible] مباحثنا الاسلامية

[illegible] الفتاوى المستفتى من علماء الاسلام

[illegible] وقد رتبتها في ثلاث طبقات

[illegible]

[illegible]

[illegible] الباقلاني (المالكي) ،

[illegible] - الغزالي (الشافعي) - يوسف

[illegible] (الحنفي) - عز الدين المقدسي (الشافعي)

[illegible] (الحنفي) - النابلسي (الحنفي)

صورة رسالة ماسينيون للقاسمي

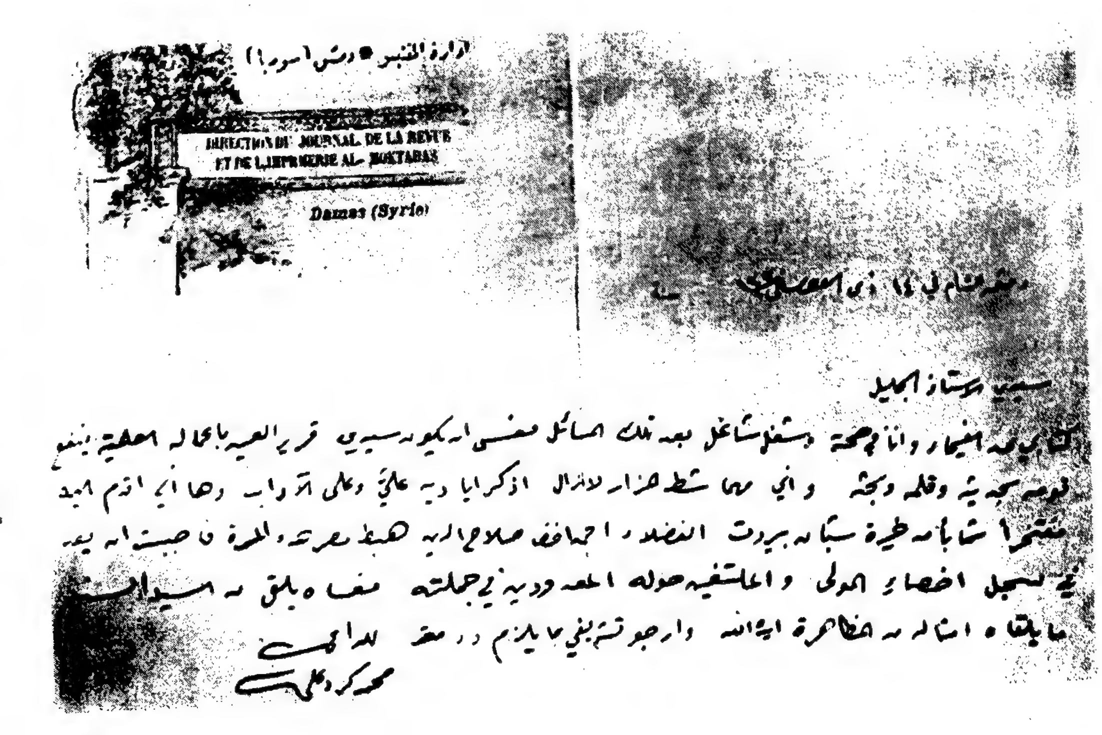
وهذا اسامي العلماء الذين توقفهم مشهور: ابن سريج (الشافعي)
ابن بهلول (الحنفي) - الصنيري (الشافعي) - الكيلاني (الحنبلي) -
عيسى الرهوي البغدي (الشافعي) - ابن حجر العسقلاني (الشافعي) -
ابن حجر الهيتمي - السعدي (الحنفي) -.

وهذا اسامي العلماء الذين نسبوه الى الكفر: الجبائي (الحنفي)
ابن داود (الظاهري) - ابن شيبان (الشافعي) - ابو عمر الازدي (المالكي)
ابن حزم (الظاهري) - الجويني (الشافعي) - ابو بكر الخطيب (الحنبلي)
ابو جعفر (الحنبلي) - عياض السبتي (المالكي) - ابن الجوزي (الحنبلي) -
ابو حيان (الظاهري) - ابن تيمية - الذهبي (الشافعي) -
ابن خلدون (المالكي) - العكري (الحنبلي) -

ولما كنت رتبتها استبحثت دلائلها بالتدقيق وما وجدت احد
اقوى واشد السطوة على الحلاج بالبراهين العقلية والنقلية من
شيخ الاسلام ابن تيمية "ولذلك اقتبست من جواباته في الحلاج
متون كثيرة منها

(١ كتاب الى المنبجي (بحث في الحلية والحقد)
(٢ فتوى رد فيها على ترجمة الحلاج (قدره صفحتين من
... في ... العين ص ٥٣)
(٣ شرح العقيدة الاصفهانية بواسطة ... على
... الحلاج)
(٤ كتاب ما يقول السادة العلماء ... في الحلاج ...
... كلمات ... ... (قدره ستة عشر صفحة
... فيها حالات شيطانية)
(٥ سؤال الى شيخ الاسلام ... ...
... من مذهب ... (الدمشقية) ... ...
بالحلاج - ورد شيخ الاسلام عليها بالمرة (قدره ... ...)
اما النصوص (٤) و (٥) ... ...
... ... مع كتبخانة الظاهرية ... ...
... الآن ...

صورة رسالة من محمد كرد علي


إدارة المقتبس • دمشق (سوريا)

DIRECTION DU JOURNAL DE LA REVUE
ET DE L'IMPRIMERIE AL-MOKTABAS

Damas (Syrie)

سيدي الأستاذ الجليل

محمد كرد علي

والتف حول جمال الدين وتردد عليه عدد من الشباب والكهول المثقفين الذين جمعتهم الأفكار التحريرية والمطالبة بالحكم المركزي ورفع شأن العرب ومحاربة التتريك، وكثير من هؤلاء حكم عليهم الديوان العرفي في عاليه بالإعدام فيما بعد سنة ١٣٣٤هـ = ١٩١٦م، كان منهم عبد الحميد الزهراوي الذي أوقف عام ١٣١٨هـ= ١٩٠٠م بتهمة ما، فنال القاسمي بسبب ذلك مكروه عظيم كما مر معنا[١] والحادث يدل على تردد الزهراوي إليه واهتمامه به وبمؤلفاته، وعرفت الحكومة من المراقبة صلته به فبادرت إليه. . وخوف القاسمي من النتائج يدل كذلك على شيء كان بينهما خشي معها أن تنكشف أمور يحاذر من إظهارها.

وممن اتصل بالقاسمي من أحرار أيار المذكورين الشيخ أحمد طبارة[٢] المشهور بجريدة «ثمرات الفنون» عرفنا أنه اجتمع به في بيروت هو والبيطار عند رحلته الأولى إلى مصر، وكذلك سليم الجزائري[٣] من مؤسسي جمعية «فتيان العرب» و«الجمعية القحطانية» و«جمعية العهد»، وكذلك شكري العسلي[٤] وعبد الوهاب الإنكليزي[٥]، وعلى هذا الأخير قرأ جمال الدين كتاباً في الجغرافية مع أنّ الإنكليزي كان أصغر منه سناً. كما قرأ في الرياضيات على

---

(١) ظافر، ٢٠٥.
(٢) انظر ترجمته في الأعلام ١/ ١١٣.
(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٣/ ١٢٠.
(٤) انظر ترجمته في الأعلام ٣/ ١٧٢، منتخبات التواريخ ٨٨٣.
(٥) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ١٨٢.

أحد هؤلاء الشباب وهو صادق النقشبندي[1].

ومنهم الطبيب عبد الرحمن الشهبندر أحد الوطنيين، وهو الذي شهد وفاته وتأثر لعدم قدرته فعل أي شيء تجاه الموت كما مر[2].

وممن عرف به وتردد عليه من أهل العلم والثقافة والأدب والوطنية رفيق العظم[3] ورشيد بقدونس[4] ومن بعدهم فارس الخوري[5] ولطفي الحفار[6] وغيرهما.

إن التفاف هؤلاء الشباب المثقفين حوله ممن تعلموا الطب أو درسوا القانون والهندسة وغيرها من العلوم في أرقى المعاهد المعروفة في ذلك العصر، في بيروت أو الآستانة أو باريس، واستئناسهم بمجالس الشيخ وحرصهم عليها أمر يستدعي كثيراً من الوقوف والتأمل، ولولا حس هؤلاء بفضائل الرجل ومزاياه وإمكان الانتفاع بها لما رغبوا فيه[7].

---

(١) ظافر، ٨٠.
(٢) أشرنا إلى ترجمته في بعض حواشي الفصل الثالث.
(٣) أشرنا إلى ترجمته في بعض حواشي الفصل الثالث.
(٤) انظر لترجمته الأعلام ٣/ ٢٤، معالم وأعلام ١٣٩.
(٥) انظر لترجمته: الأعلام ٥/ ١٢٨، فارس الخوري حياته وعصره - لحنا خباز وجورج حداد بيروت ١٩٥٢، مجلة المجمع العلمي ٣٧/ ٢٩١.
(٦) انظر لترجمته: الأعلام ٥/ ٢٤٣، منتخبات التواريخ ٩١٠، معالم وأعلام ٣١٠، أعلام الأدب والفن ٢/ ١٠٧، من هو في سورية ١/ ١١٨، ٢/ ٢١٣.
(٧) ظافر، ٩٣.

ويرى رشيد رضا أن صحبة هؤلاء له هم والشيوخ الذين أشرنا إليهم، وهم خير من أنبتت الشام في زمانهم أثرت في حياته العلمية من حيث فتحت لاستعداده الفطري واستقلاله الوهبي أبواب البحث والتحقيق، وعدم الوقوف عند المسلمات من التقاليد، ونبهته إلى حاجة الأمة للإصلاح المدني، كحاجتها إلى الإصلاح الديني[1].

هذه الصلة الواسعة التي انفتح بها القاسمي على المجتمع كانت صلة تسير في نهج واحد معين، فهؤلاء الذين قدمنا ذكرهم من المعروفين أو الذين عرفوا فيما بعد واشتهروا كانوا من أصحاب الاتجاه الواحد المنسجم من حيث النظر إلى الحياة والإسلام، بطريقة رأوا فيها أنه يجب أن تسير الحياة في طريق الإصلاح. وكانوا من أصحاب موقف واحد من الدولة التي رأوا أنها تسير بخطة مغلوطة ظالمة.

وإذا كان ذلك كذلك، فإننا ندرك بالمقابل أن القاسمي لم يكن على صلة بجميع علماء عصره في دمشق على الأقل، بل هناك سكوت يكاد يكون مطبقاً نجده لديه يتعلق بأعلام مشهورين من حوله، لم يأت على ذكرهم بكلمة واحدة، منهم مثلاً الشيخ بدر الدين الحسني[2]، شيخ الشام في عصره، بل محدث الشام، ومنهم بعض علماء آل الخطيب وهم أقرباؤه في النسب كما مر

---

(١) رضا، المرجع السابق، مج١٧، ٧/ ٥٥٩.

(٢) أشرنا إلى ترجمته في بعض حواشي الفصل الثالث.

معنا، وبرز منهم أعلام، ومنهم آل الغزي مفاتي الشافعية، وعبدالغني الغنيمي[1] الميداني فقيه الحنفية، وعبد الوهاب الشركة فقيه الشافعية وغيرهم كثير من العلماء المشار إليهم في العلم والدين والخُلُق.. ولم يكن فيهم كما نظن من تعرض له أو ناصبه العداء.. فما السر في ذلك؟ ألأن المنهج العلمي اختلف بينه وبينهم؟ أم لأن بعض هؤلاء كانوا يؤثرون الهدوء والعزلة مثلاً؟ أم لشيء آخر.

إنني أرىٰ من خلال ما تقدم أنّ صلة الرجل بمعاصريه كانت على ثلاثة أشكال؛ امتزج بالمجموعة التي قدمنا أسماءها واجتمع معها على فكر واحد، أو ما يشابه الفكر الواحد والمنزع القريب، في حين أنّ جماعة ناصبه أفرادها العداء جهاراً، لم يقصروا في النيل منه، ومنهم مفتي الشام محمد المنيني[2]، ومنهم أسعد الصاحب[3] ومع هذا فإنه لم يصرح باسم الأول، وذكر الثاني في مفكراته الخاصة غير المعلنة[4]. وكلا الرجلين يمثل فريقاً معيناً، الأول يمثل نصّ المذهب الحنفي لا يريد الخروج عنه البتة.. والآخر يمثل التصوف بالشكل الذي آل إليه في زمنه الأخير.. في الوقت الذي أسقط فيه القاسمي اعتبارات الفريقين فلم ير لما

---

(١) انظر لترجمته: تاريخ علماء دمشق وأعيانها ٢/٧٦٨، حلية البشر ٢/٨٦٧، منتخبات التواريخ ٦٧٠.

(٢) أشرنا إلى ترجمته في بعض حواشي الفصل الثالث.

(٣) انظر لترجمته تاريخ علماء دمشق ١/٤٣٦.

(٤) ظافر، ٤٣٠، عن مفكرة ٢٤ رمضان ١٣٢٤هـ.

يأخذان به تلك الحرمة ولا القداسة التي درج عليها الناس في احترامهما. بل كان القاسمي يسمي أمثالهما باسم الحشويين[1] أو

(١) قال القاسمي في كتابه دلائل التوحيد: الحشوية بسكون الشين، وفتحُها غلط واحدها الحشوي، نسبة للحشو بمعنى العامة والتباع، وقيل غير ذلك. وقال في شرح لقطة العجلان: الحشوية فرقة لا تقيم للنظر ميزاناً، ولا ترى للعقل الصحيح برهاناً، مقلدة جامدة، نسبت إلى الحشو بمعنى العامة؛ يقال: فلان من حشو الناس أي عامتهم. أو إلى الحشو وهو الكلام الذي لا فائدة فيه لوجود الحشو في كلامهم. وليس هذا اللقب عَلَماً على فرقة معينة يجمعها قاعدة ما، بل لكل فرقة من الفرق حشوية، فللمحدثين حشوية، وللفلاسفة وللفقهاء وللمتكلمين وللأصوليين حشوية. ويصدق ما قاله الإمام ابن حزم في نحوهم من أنهم فئة عنيت من الشريعة بأحد ثلاثة أشياء، إما بألفاظ ينقلون ظاهرها ولا يعرفون معانيها، ولا يهتمون بفهمها، وإما بمسائل من الأحكام يشتغلون بدلائلها ومنبعثها، وإنما حسبهم منها ما أقاموا به جاههم وحالهم، وإما بخرافات منقولة عن كل ضعيف وكذاب وساقط، لم يهتموا قط بمعرفة صحيح منها من سقيم، ولا مرسل من مسند، ولا ما نقل عن النبي صلوات الله عليه، مما نقل عن كعب الأحبار أو وهب بن منبه. اهـ. ومثله قول بعض المحققين: الحشوي كل من ليس من أهل التحقيق ولا تهيأ للهجوم على الحقائق، وقد تدرب في كلام الناس، وعرف أوائل الأبحاث وحفظ كثيراً من غثاء مما حصلوه ولكن أرواح البحث بينه وبينها حائل، وقد يكون ذلك لقصور الهمة والاكتفاء بمحيطه. والحشوية هم الأكثرون عدداً، الأقلون في الحقائق حظاً ومدداً، لم يحظوا بخصيصة الخاصة، ولا أدركوا سلامة العامة (شرح لقطة العجلان، القاهرة: مطبعة مدرسة والدة عباس، ١٤٤ ـ ١٤٦، ١٣٢٧، ١٩٠٨، دلائل التوحيد ط٢ ص١٧٥، حاشية رقم (١)).

الجامدين الذين لم يفهموا روح الإسلام، ويرى أن أفراد الفريق الأول من الفقهاء تقوقع على نصوص المتأخرين، وأغلقوا باب الاجتهاد الذي لم يحظره الشرع، بينما شحن أفراد الفريق الثاني من المتصوفة الدين بخرافات وبدع ومفاسد ليست منه في شيء البتة.

أما المجموعة الثالثة فهي التي كان معها الشيخ على الحياد.. لم ينتقدها ولم يخطئها من جهة، ولم يثن عليها أو يواصلها من جهة أخرى، وإن كان يحب لها أن تتطور وتنظر إلى الإسلام نظرة أعمق وأشمل وأنفع بما يفيد العصر ويخدمه ويثبت حضارة الإسلام.

على أن الشيخ جمال الدين الذي واصل أصدقاءه ومعارفه وراسلهم واجتمع بهم لم يهاجم خصومه هؤلاء. ولم يذكر أحداً منهم بسوء، بل كان يداريهم كما مر بنا ولا يتعرض لهم.. في حين كانوا هم الذين يبادئونه بالهجوم ويتناولونه بالطعن، ويؤلبون عليه الخصوم، ويشيعون عليه الشائعات.

بقي أن نقول هنا في مجال علاقات الشيخ، أن القاسمي كان منفتحاً على عصره، يتصل بجميع الناس، لا ينقطع عن أحد إلا إذا انقطع عنه.. فها هو ذا يلبي دعوة أحد وجهاء النصارى في بلدة قارة بالقلمون[1] ولا يرى في ذلك غضاضة، ما دامت لا تمس عرضه ولا دينه.

---

(١) ظافر، ٣٣٧.

وأخيراً؛ فإن من علاقات القاسمي أن نذكر أنه في مدة حياته الأخيرة لما ذاع صيته واشتهر جعلت الأسئلة تأتيه من بلدان العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، فيجيب عليها بما يراه الحق. وبذلك بلغت صلاته حداً لا مزيد عليه لمثل عالم في سنّه بدمشق.

ثانياً ـ دروس القاسمي وطلابه:

وهب جمال الدين نفسه للعلم والتعليم، وقام يدعو إلى الأخذ بالعلم قولاً وعملاً، فكانت له دروس عامة يرتادها جميع الناس من مختلف المستويات الثقافية والطبقات الاجتماعية، ودروس خاصة، كانت في جامع العنابة في باب السريجة حيث بدأ التدريس والإمامة في سن مبكرة كما رأينا وفي حياة أبيه[1].

وأما دروسه التي اشتهر بها فكانت في جامع السنانية، وهي الدروس التي بدأها جده وأبوه من قبل، ثم استأنفها هو عام ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م. وكان إلى جانبها حلقات متخصصة أخذ يعقدها في المسجد بنفسه، في سدته وفي بيوت معارفه[2]، وربما جرت في المتنزهات نزولاً عند رغبة الطلاب[3].

أما بيته فكان مدرسة يغشاها الطلاب منذ الصباح حتى الهزيع

---

(١) ظافر، ٣٥، ٤٢.
(٢) ظافر، ٩٣، ٦٠٠، وقد ذكر القاسمي في رسالة بعث بها إلى الشيخ محمد نضيف أنه يقرأ كل ثلاثاء وجمعة صباحاً درساً في الكتب الستة.
(٣) ظافر، ٩٣.

الأول من الليل[1]، وأكثر ما كان يقرأ فيها دروس التفسير، كما شهدت هذه الدار حلقة تعقد مرة كل أسبوع أو مرتين، خصصت لقراءة كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي أو مقدمة ابن خلدون أو سواهما من كتب الفلسفة والمعارف المعمقة، التي قلما كان علماء دمشق يقررون مثلها في دروسهم. كما كان يهتم بتدريس علم الأصول[2].

ولم تكن تقتصر حلقات الشيخ على علوم الشريعة فقط، وإنما كان يحث طلابه على الأخذ بجميع العلوم والمعارف الدينية والدنيوية قائلاً: «إن أوروبا ما غلبتنا واستولت علينا وأصبحنا عالة عليها إلا بسبب إتقانها للعلوم الكونية وإهمالنا لها» ولهذا كان يستحسن مناهج مدارس الحكومة لتنوعها، ويجمع إلى ذلك الحرص على لزوم التخصص مع الإلمام بالثقافة العامة للعصر[3].

وكان الشيخ يعامل طلابه بمنتهى اللطف والأدب، وكان

---

(١) حدثني الشيخ أحمد القاسمي رحمه الله أنه شهد مرة مجلساً حافلاً في دار ابن عمه جمال الدين حضره الشيخ طاهر الجزائري، وكان الوقت شتاء جرت فيه مناقشات، بدأت من بعد صلاة العشاء وامتدت ساعات، قدم خلالها للضيوف أكثر من أربعين ليتراً من الشاي. قال الشيخ أحمد: وقد اشتفت نفس الشيخ طاهر لما كان يدليه من الحجج، وسر الضيوف سروراً بالغاً.

(٢) استانبولي، ٣٧؛ ظافر، ٩٢.

(٣) استانبولي، ٨٠ ـ ٨١.

يسميهم «الأصحاب» ويرفع من شأنهم[1]. وهذا ما تدل عليه عبارة خطّها لأحد تلامذته كتب فيها: «طلب مني مصاحبنا وقريبنا الشيخ حامد التقي الإجازة»[2]. وليست هذه التسمية بالقول دون الفعل، بل كان صديقاً حقيقياً لأصحابه هؤلاء، يحترمهم ويترك لهم حرية البحث، ويفتح لهم خلال الحلقات باب النقاش على مصراعيه، فيجادلونه بلا حدود؛ قال أحد تلامذته: «باحثته مرة وخالفته في رأيه، فأبطل رأيي بالأدلة، فلم أقتنع، وقلت له: لم أقتنع. فقال لي: أنت حر، لك رأيك، ولي رأيي»[3].

وكان يقول لطلابه: كل درس ليس فيه أخذ ورد ومناقشة بين الأستاذ وتلاميذه فهو درس خلو من الفائدة. وكان يعلم الطلاب أحياناً طريقة معينة في التفكير لينبه أذهانهم ويؤجج عقولهم فيثير عندهم حب النقاش قائلاً: «عليكم أن تفكروا بتفكير خصوم السلفية، وتأتوني بحججهم وشبههم لأردّ عليها». ولهذا فهو لا يريد أن يأتيه الطالب المتلقي الذي يأخذ العلم صباً أصم.. ولهذا أيضاً كانت حلقات دروسه ـ على خلاف مجالس كثيرين ـ تحتدم فيها الآراء وتقوم خلالها الردود والاستيضاحات، يطرحها الشباب وكثير منها يتصل بالشبه التي تحيك في صدورهم وصدور

---

(١) استانبولي، ٩٠.

(٢) انظر صورة إجازته لحامد التقي في آخر هذا الفصل. وانظر ترجمته في: تاريخ علماء دمشق ٢/ ٨٠٧ ـ ٨٠٩، الأعلام ٢/ ١٦٠، مجلة التمدن الإسلامي ٤٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٤.

(٣) استانبولي، ٨٨.

من يلتقون بهم. . وكان ذلك مما يطول[1].

وكان البحث يتطور بينه وبين تلامذته إلى شؤون السياسة التي تشغل بال الشباب، وكان هو من جهته يبحث فيها بكثير من الحرية، وربما تكلم في دروسه بكثير من القضايا العالمية التي كان يجهلها كثير من العلماء آنذاك فضلاً على العامة كالتمييز العنصري في أمريكا وأستراليا، والاشتراكية وغير ذلك من تعرضه لعلوم لم تكن معروفة آنذاك أو منتشرة، كفقه اللغة وأصول الألفاظ من اللغات الشرقية والغربية[2] وكان يأمر كل طالب أن يصطحب مفكرة تلازمه، يسجل فيها الفوائد التي تعرض أو الحوادث التي تقع. . ويقول لهم: «لو كان كل منا يجمع ما سمع من المسائل المهمة لاجتمع له أعظم مما كتب في الأدب والدين». ومر بنا أنه هو نفسه كان يتخذ منذ كان صغيراً كراسات يكتب فيها الفوائد والملاحظات، فكانت كتاباً يشبه كشكول العاملي أو مخلاته، سماها السفينة[3].

وبلغ من تمام عنايته بالعقل أنه شجع طلابه على الاستماع إلى العلماء والاتصال بهم للأخذ عنهم والاستفادة منهم وخاصة أصحاب الاستنباط والاجتهاد، على شرط أن يلقوا وراء ظهورهم

---

(١) استانبولي، ٣٨، ٩١؛ ظافر، ٩٢.
(٢) ظافر، ٩٣، ٣٤٧؛ مجلة المجمع العلمي ٣٥/ ٢٤٧ ـ ٢٥٢.
(٣) استانبولي، ٧٩، ٨٤. وانظر الفصل الخاص بآثاره ومؤلفاته.

ما لا يصح من الأفكار بعد مناقشتها وفحصها[1].

ولم يستأثر الشيخ بالطلاب لنفسه، ولم ينظر إليهم على أنهم من أتباعه فيحجر عليهم حريتهم ويحجزهم عن ارتياد حلقات العلم، بل كان يأمرهم بالبحث عن أهل العلم المتخصصين ببعض العلوم التي لم يأخذ بها، وقد يصحبهم هو بنفسه إليهم ويوصيهم بهم[2].

وكان للقاسمي في إلقاء دروس التفسير أسلوب خاص به، فهو يمسك بيده تفسير الجلالين مثلاً، فيقرأ العبارة، ثم يشرح من عنده.. فينتقد النص تارة أو يؤيده تارة أخرى، ويبين ما شوّه المفسرون مما هو أجنبي عن القرآن كالإسرائيليات البعيدة عن الشرع والعقل، وينكر عليهم تساهلهم في ادعائهم نَسْخَ كثير من الآيات الكريمة[3].

ولم تعوزه في دروسه كلها سرعة البديهة ولا حضور الذهن، فما أشكل عليه جواب مسألة، ولا عزّه استحضار آية أو حديث.. ولربما سأله سائل أحياناً عن مشكلة دقيقة، تحتاج إلى إعمال ذهن، فيقول لمخاطبه حينئذ: دعني دقائق.. ويأخذ في التفكير حتى يتضح له الجواب فيجيبه[4].

(١) استانبولي، ٨٤.
(٢) المرجع السابق، ٩٠.
(٣) استانبولي، ٣٨.
(٤) المرجع السابق.

وامتلك الشيخ ناصية الدروس، وكان فيها طلق اللسان عذب البيان متمكناً من اللغة، ينبىء كلامه عن سعة اطلاع وقوة حجة، إلى جانب البراعة في إدارة الحديث، والرقة في المناقشة. فإذا ما جادله مماحك، دفعه بالتي هي أحسن، وأعرض عنه[١].

وكان يفهم دروسه الخاصة والعامة، لأنه يراعي فيها الحكمة حين الإلقاء، ويخاطب الناس على قدر عقولهم ولا ينفر أحداً، ولو كان يخالف مذهبه، فيدعوه بالبراهين[٢] ومن أجل هذا استحوذ القاسمي على طلابه وأسرهم، حتى كانوا لا يشعرون عنده بمرور الوقت، بل كان يتمنون ألا ينقضي الدرس. وكان هو من جهته حين يشعر بالملل تسرب إلى نفوسهم يشرع في ذكر النوادر والقصص المنشطة المفيدة، فإن عاودهم نشاطهم عاد إلى الدرس[٣].

وما كان الشيخ مدرساً ينثر العلم فحسب، ويقرر ما في الكتب من مسائله فقط، بل كان مربياً كذلك، يلاحظ طلابه بعين بصيرة وفكر هادف.. فيتعهدهم بالموعظة الحسنة كل حين، ويتخولهم بالإرشاد في الأوقات المناسبة. وأهم ما كان يغرسه فيهم ترك الكسل والخمول واغتنام الوقت أحسن اغتنام، وقد رأيناه كيف كان يحرص على الوقت ويجد في تحصيل العلوم واقتناص الفوائد. وكان يقول لهم: «احفظوا أوقاتكم جداً، وادأبوا على

---

(١) استانبولي، ٤٨؛ ظافر، ٩٢.

(٢) المرجع السابق، ٣٨.

(٣) استانبولي، ٣٨ ـ ٣٩.

المطالعة وحفظ ما يهم من الأصول، وعوِّدوا أنفسكم على كتابة مقالات وإنشاء جمل في الموضوعات الهامات، ولا تخملوا أنفسكم بالتقصير عن اللحاق بالسباق؛ فالزمان ما ترون، والعاقل من تبصر وتصبر وجارى. وما الإنسان إلا ابن جِدّه. وقد مضى زمن من كان يرتاش بأبيه وجده»[1] وهذا الكلام شعار القاسمي نفسه في حياته، أخذ به كل الأخذ كما مر، وهو يشير فيه إلى شيئين خالف بهما زمانه؛ الاعتماد على النفس والعزوف عن الفخر بالآباء، والثاني التعود على التأليف وتحبير المقالات في الوقت الذي كان يتهيب فيه كثير من العلماء الدمشقيين الكتابة أو يهملونها ويزهدون بها.

وكم مرة وجه فيها طالباً توجيهاً خاصاً في شؤون حياته اليومية ونصح له بالمعروف وبالطريقة اللائقة، خصوصاً إن بدر منه تصرف لا يحسن بطالب العلم؛ روى أحد تلامذته فقال: كنت مرة في درس شيخنا، فلما انتهى قمت مودعاً فسقط من جيبي بذور كنت أتسلى بها، فأمرني بالتأخر عن الطلاب والبقاء لديه، فلما خلا بي قال لي: يا بني! إن من يعمل على إصلاح قومه وتغيير السيء من عاداتهم.. هل عنده وقت لإضاعته بأكل البذور كالصبيان والنسوة المتبطلات! وكان إذا شاهد تلميذاً لا يهتم بمظهره ولباسه أهمه شأنه وبيّن له فائدة حسن الهندام في عيون الأصدقاء والأعداء على حد سواء[2]. ودعي مرة هو وأحد طلابه إلى طعام.. فإذا به

(١) ظافر، ٣٣٩.

(٢) استانبولي، ٨٨ ـ ٨٩.

يقوم سريعاً، ويستأذن للخروج، فلما كانا في الطريق قال له: قد رأيتك شرعت بالإضرار بجسمك وأخذت تكثر من الطعام فبادرت بالخروج خوفاً عليك[1].

وليس غريباً مع هذه التوجهات أن يكره لطلابه التواني في السعي لكسب الرزق، وقبول الهبات والصدقات؛ وهذا أمر مهم في حياة طلبة العلم الذين يتعرضون أحياناً لهدايا الآخرين ممن يعطفون عليهم ويرغبون في إكرامهم تقرباً إلى الله. فكان الشيخ يأمرهم برفض أية صدقة مهما كانت. وكان إذا أحب أن يعطي المستحق منهم أَمَرَهُ فنسخ له بعض مسوداته، ثم يكرمه باسم الأجرة لا الصدقة. كان يريد أن يكون طلابه كأحسن ما يكون أهل العلم، ولذا قال لتلميذه حامد التقي: بقي علم لا أستطيع تعليمك إياه وهو أن تكون ذكياً بحاثاً لبقاً، فكن من نفسك كذلك. وهذا التقي عندما يعيّن مدرساً في حوران وتستوحش نفسه ويعزم على الاستقالة يكتب إليه الشيخ يقول: «إنني علمتك السنين الطويلة لترينا خدمتك للعلم وآثارك في مثل هذه البلاد المتعطشة لأمثالك فاثبت في وظيفتك»[2].

لقد ترك القاسمي في نفوس طلابه ومرتادي مجالسه أثراً عميقاً باقياً بما استحوذ عليه من الصفات التي ذكرناها في شمائله من كرم الخلق ولين الجانب والأنس، بالإضافة إلى العلم والإحاطة

---

(١) استانبولي، ٨٩.
(٢) استانبولي، ٨٨ ـ ٨٩.

بالمكتبة العربية مخطوطها ومطبوعها[1]. ولذلك فقد كانوا يجلونه ويحبونه معاً، فهذا تلميذه محمد بهجة البيطار[2] لم يكن يذكره في بيته أو على ملأ من قومه إلا بقوله شيخنا علامة الشام، أو شيخنا القاسمي، وما ذكره مرة إلا ويكاد البكاء يغلب عليه مع تراخي الأيام وبعد الزمن. ولقد قال ولده عاصم البيطار: إنه «كان ملازماً له شديد التعلق به، وقد كان للشيخ رحمه الله أثر كبير.. غرس في نفسه حب السلفية ونقاء العقيدة والبعد عن الزيف والقشور وحسن الانتفاع بالوقت والثبات على العقيدة، والصبر على المكاره في سبيلها، ودفع كيد المفترين ودعاوى المبطلين بالحكمة والموعظة الحسنة. وكنت أشعر بسعادة والدي رحمه الله وهو يعمل فيما طبع من كتب شيخ، يخرّج الأحاديث ويقوّم أخطاء الطباعة ويكتب المقدمات. وكم كنت أراه يبكي وهو يعمل، ويبكي وهو يذكر أستاذه القاسمي»[3].

ولقد تمثل محمد بهجة البيطار فكر أستاذه ودعوته، وَوَقَف حياته على الدفاع عنهما، فنراه حينما اشتد عوده ونضج فكره يؤلف كتابه «نقد عين الميزان»[4] في حياة شيخه انتصاراً له ولأئمة

---

(١) الفضل المبين، ٢١.

(٢) انظر ترجمته في: تاريخ علماء دمشق ٢/٩١٨ ـ ٩٢٥، محمد بهجة البيطار: حياته وآثاره لعدنان الخطيب. مجلة المجمع العلمي مج ٥٣، كلمة بقلم أحمد راتب النفاخ.

(٣) الفضل المبين، ٦، ٢١.

(٤) ط دمشق، ١٣٣١.

الرواية في الأخذ عن كل ثقة ثبت صدوق، ولم يكن قد اكتملت له عشرون سنة. وحقق فيما بعد كتاب شيخه «قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث»[1].

وها هو ذا تلميذه توفيق البزرة يحب أستاذه حباً قل نظيره، حتى إن لسانه انطلق بالشعر يوم وفاته، ولم يكن عُرِف له نظم من قبل. ولقد قال عن شيخه مرة: «إن من يلازمه ويرى علمه وسيرته، قَلَّ أن يعجبه كثير من الشيوخ الذين يدعون التربية وهم غلاظ الأكباد، قساة القلوب»[2]، ذلك لأن الزمن كان زمن قسوة في التربية والمعاملة والسلوك الجاد الذي يخرج أحياناً كثيرة على الملاينة.

أما تلميذه محمود البيطار فكان عمره خمسة عشر عاماً يوم غضب عليه أبوه لملازمته دروس الشيخ، وأقسم عليه ليتركنها أو ليطردنه من الدار مع أمه وإخوته الصغار، فاضطر الفتى محمود إلى استئجار منزل ومحل لصنع السكاكر واستقام أمره، وقد كان اعتماد الأب في عمله عليه، فوقع لغيابه، في حيص بيص وندم فاسترضاه وأعاده[3].

ومن غرائب الأمور التي كانت تحدث في دروس القاسمي أن شيخه عبد الرحمن بن علي المصري الذي كان تعلم القرآن على يديه في المكتب (الكتاب) بالقنوات لازم درسه أواخر حياته في

---

(١) ط دمشق، ١٩٢٥.

(٢) استانبولي، ٩٠.

(٣) استانبولي، ٤٥.

الفقه والحديث والتفسير مع تقدم عمره. وربما كان هذا المؤدب المعمر يغافل تلميذ الأمس وشيخ اليوم فيكب على يده يريد أن يقبلها فيمتنع القاسمي، ويقول له: كيف يكون ذلك وأنت معلمي القديم الذي قرأت كتاب الله عليه فيجيب المعلم بقوله مشيراً إلى المثل القائل: «كم من صغير نشأ (باس) الكبير يده»[١].

وإلى جانب من ذكرنا نعرف جماعة غيرهم، منهم محمد جميل الشطي، مفتي الحنابلة فيما بعد، وهو الذي لازم الشيخ ملازمة تامة، وأخذ عنه في أكثر العلوم وتأثر به، وإن كانت له آراء تخالفه[٢]، وحسين الجارودي، الذي صار فيما بعد علماً من أعلام بيروت، وقد وصف شيخه بقوله: «لم يكن له في سحر الحديث والمساجلة شبيه ولا قرين»[٣] وجميل البيطار، وأحمد الجبان الذي وضعه رفيقه في الطلب محمد بهجة البيطار أنه هو وحامد التقي من كبار طلاب الشيخ[٤]. وكان من تلاميذ الشيخ الخلّص أخواه قاسم خير الدين وصلاح الدين. وقد أشرنا إليهما في الفصل الذي خصصناه لأسرته.

---

(١) ظافر، ٢٣.
(٢) انظر ترجمة الشطي في: تاريخ علماء دمشق ٢/ ٧٠٤-٧٠٩، أعيان دمشق، المقدمة. مجلة التمدن الإسلامي مج ٢٦/ ٢٢٨، معجم المؤلفين ٩/ ١٦١.
(٣) ظافر، ٧٨.
(٤) قواعد التحديث، ٢٧.

اشتهر تلاميذ القاسمي كلهم، وعرفوا بالفضل والعلم والتقوى، وكان لهم في المجتمع مكانة مرموقة واحترام بالغ. . وكانوا بالجملة أوفياء جميعاً لأستاذهم وفكره ودعوته الإصلاحية.

ونختم هذا الفصل بحادثة، ربما تكمل صورة الحلقات العلمية للشيخ وصورة طلابه وقاصدي فضله وعلمه، وتدل على أن تلك الحلقات كانت مقصودة في البلدة على نحو معين، معروفة بطابعها الخاص؛ فقد قدم دمشق مرة مستعرب روسي سنة ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م فاتصل بأحد الأمراء، وطلب أن يدله على عالم يحلّ له أموراً أشكلت عليه، فصحبه إلى مجلس الشيخ، فلازمه شهراً وهو يسأله، وقرأ عليه جانباً من مقدمة ابن خلدون، ثم انصرف مسروراً[1].

هذه هي صلات الشيخ ومجالسه، وهؤلاء هم طلابه وأصدقاؤه ومعارفه. . حركة عارمة قامت حوله للعلم وبالعلم. . في سبيل الدعوة إلى الدين الصحيح والفكر النيّر.

(١) ظافر، ٦٠٦.

صورة إجازة جمال الدين القاسمي لتلميذه حامد التقي

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن اجاز ذوي الهداية خير اجازه، واجاز حماة السنة من
معرة البدعة اعلى اجازه، فسبحان من رفع الذين اوتوا العلم درجات،
ونصب لهم في بواذخ المجد اشرف رايات، واشهد ان لا اله الا الله
الملك العلام، ذو الجلال والاكرام، واشهد ان سيدنا محمداً عبده
ورسوله خاتم انبيائه، ومبلغ انبائه، سيد ولد آدم، وسر هذه الانعام
الآمر بتبليغ اخباره، والمبشر بنضرة المؤدي لآثاره، صلى الله عليه
وعلى آله في كل وقت وحين، وعلى تابعيهم باحسان الى يوم الدين،
اما بعد فلما كان علم الحديث اشرف العلوم قدرا، واوضحها نورا
واسماها ذكرا، واولاها بالتحمل والتلقي، واقربها للتدرج في فقه
الدين والترقي، كيف لا وهو ترجمان القرآن الكريم، ولباب الهدى
النبوي القويم، وبه تتميز جادة الاتباع، عن منعرج الابتداع،
وكان من المتداول طلب اتصال سلسلة السند اليه، والتشرف
بالتعويل في الاستجازة عليه، وقد رغب في تحصيل الاجازة ذوو الهمم
العاليه، وتشوفوا لها ولو من البلاد النائيه، حبا في جمع شمل الارواح،
اذا نأت الديار بوصل الاشباح، والاسناد اثره يخلف عن السلف
وسره من فن التاريخ مقتطف، لافادته طبقات الشيوخ، ذوي المقام
والرسوخ، وتحقيق المعاصرة واللقي النفيس، ورفع التلبيس والتدليس
وبقاء السلسلة التي كان منوطا بها اول هذا الشان، واضحت بها
اركان السنة مشيدة البنيان، على ما في الاجازة من الاذن في الروايه
للتشمير عن ساعد تحقيق الدرايه، وان ممن رغب في نيلها وتشبث
باذيال اهلها، الشاب النجيب، والكامل اللبيب، المثابر على طلب العلم
في الليل والنهار، والمجد في التفقه والتفنن والاستبصار، قريبنا وصاحبنا

الشيخ

بالشيخ حامد بن الشيخ اديب بن الشيخ ارسلان الشهير كسلفه بالتقي ، اورده
الله من مشارع العرفان كل منهل نقي ، وقد استجاز مني فضلاء شامه
ونبلاء اعلامه ، ورام منا التعزيز لما به اجيز ، فاعتذرت باني لست
من اهل هذا الشان ، ولا من فرسان هذا الميدان . فالح على مطلوبه ، وما
انفك عن مرغوبه ، فحينئذ اجبته ، وبما يروم اسعفته ، قياما بحق القرابه
واحتراما لمقام الصحابه ، فليرو عنا ولولنا المذكوره ضاعف الله لنا وله
الاجوره جميع ما يجوز لنا روايته ، وتنسب الينا درايته ، مما رويناه
عن الاساتذة المحققين ، والجهابذة المسندين منهم مسند الشام
العلامة الشيخ سليم العطار وكوكب الاعلام مفتي دمشق السيد محمود افندي
الحمزاوي بروايتهما عن مسند عصره الشيخ عبد الرحمن الكزبري باسانيده
المقررة في ثبته ح ومنهم علامة المعقول الشيخ محمد الطنطاوي ثم الدمشقي
عن شيخه العلامة الباجوري عن الامير الكبير الازهري باسانيده في ثبته ح ومنهم
امير علماء وعالم الامراء العارف الجليل الامير المجاهد السيد عبد القادر الحسني
الجزائري ثم الدمشقي فقد دخلت في اجازته العامة وهو يروي عن والده
السيد محيي الدين عن السيد مرتضى الزبيدي شارح القاموس والاحياء واسانيده
معلومة من مسنداته وسقت نبذة منها في ثبتي ح ومنهم نادرة العصر
العلامة الشيخ بكري العطار عن والده الشيخ حامد عن والده الشهاب العطار
باسانيده في ثبته ح ومنهم صوفي زمانه وعلامة اقرانه الشيخ محمد بن محمد الخاني
النقشبندي عن والده الشيخ محمد والعلامة الشيخ اسمعيل البرزنجي كلاهما عن علامة
الدنيا ومرشدها الشيخ خالد الكردي النقشبندي نزيل دمشق قدس سره باسانيده
المذكورة في ثبتي ح ومنهم ريحانة الانباء سيدي الامام الوالد الماجد ابي سعيد
عن والده العلامة فقيه الشام ونادرتها سيدي الجد الامجد الشيخ قاسم الشهير
بالحلاق وهو يروي عن الشيخ عبد الرحمن الكزبري وعن خال جدي لابي [illegible]

السيد الشريف الشيخ صالح الدسوقي الحسيني وهو يروي عن الشمس محمد الكزبري
باسانيده في ثبته ويروي الجد ايضا عن والد استاذه المنوه به ابي البركات
اوحد العلماء الاخيار الشيخ محمد الدسوقي نسبا الحسيني الدمشقي وقد سقت
بعض اسانيده في ثبتي منها عن شيخه الشمس الكزبري ومنها عن شيخه
الشيخ علي السليمي الصالحي عن العارف الشيخ عبد الغني النابلسي عن النجم
الغزي عن والده البدر عن القاضي زكريا عن الحافظ ابن حجر واسانيده
معروفة ويروي سيدي الوالد قدس سره بالاجازة العامة عن الشيخ
عبد الرحمن الكزبري والشيخ حامد العطار والشيخ عبد اللطيف مفتي بيروت
فانهم جميعا اجازوا اهل عصرهم كما بينت ذلك في ثبتي ح ومنهم مرشد
السالكين السيد محمد القاوقجي الطرابلسي فقد كاتبني بالاجازة من طرابلس
الشام وهو يروي عن جماعة منهم الشيخ محمد عابد السندي المدني صاحب
الثبت الكبير المسمى بحصر الشارد ح ومنهم نخبة الفقهاء الشيخ محيي الدين
اليافي مفتي بيروت مكاتبة منها وهو يروي عن عمدة الاعلام السيد محمد
عابدين باسانيده المبسوطة في ثبته ح ومنهم بهجة الافاضل السيد
نعمان خير الدين الآلوسي البغدادي مكاتبة ومن عوالي روايته عن
الامام الشهير محيي السنة وكتبها السيد الشريف صديق حسن خان الحسيني
امير الملك ببهوپال واسانيده مبينة في ثبته ومنهم غير هؤلاء من الاساتذة
الكبراء وقد استقصيت من رويت عنه واستجزت منه ودخلت في عموم
اجازته مع بدائع التسلسلات ونفائس الاتصالات في ثبتي الذي سميته
الطالع السعيد في مهمات الاسانيد فليرجع المجاز اليه وليعول عليه
فتح الله لنا وله ابواب رحمته وحشرنا في زمرة صالحي عباده وخيرته والمأمول
ان لا ينساني واولادي من دعائه ختم الله لنا وله بما ختم لاوليائه وصلى الله
على سيدنا محمد النبي الامين وعلى آله وصحبه اجمعين والحمد لله رب العالمين
قاله بفمه ورقمه بقلمه الفقير محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي
غرة رجب عام عشرين وثلاثمائة والف ١٣٢٠

صورة عن إجازة جمال الدين القاسمي للقاضي عبد الحفيظ الفاسي. وقد استدعاها منه، وفيها سنده في رواية صحيح البخاري. (معجم الشيوخ ١/ ١٨٣):

بسم الله الرحمن الرحيم

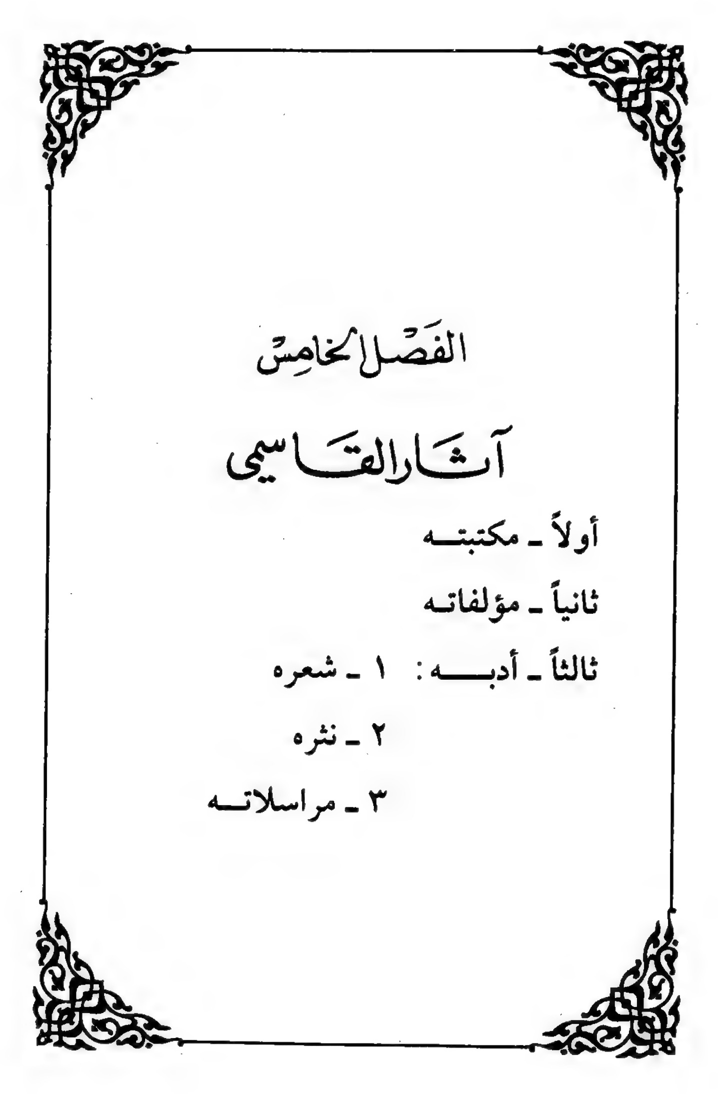
حمداً لمن أطلع في أفق المغرب كواكب هدى. وجعل من جانب المشرق أفئدة تهوي إليهم على المدى. أحمده أن سرى حبهم في الأعضاء سريان الماء في العود الأخضر. وأشكره أن نبت ودهم في ربوة القلوب نبات الروح في الروض الأنضر. وأصلي وأُسلم على أفصح من نطق بالحكم. وأبلغ من أُوتي جوامع الكلم. أمجد من ظهر في الآفاق ثناه. وأسعد من تلألأ في وجه الشرف سناه، سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين. وأكمل داع على بصيرة إلى سبيل الحق المبين. وعلى آله واسطة عقد الكمال. وصحبه نقطة دائرة الفضل والإفضال. وعلى التابعين بإحسان. أئمة العرفان. أما بعد، فإن أفضل ما تحدث بفضله الركبان. وأجل ما تحلى به بنو الإنسان. العلم الذي شرف الله رتبته. وأسمى على كل مزية مزيته. فهو قطب تدور عليه رحى المفاخر. وترنو إليه من المعالي النواظر. فلا محمدة إلا وهي منسوجة على برده. ولا منقبة إلا وهي منتمية إلى زنده. ولا مكرمة إلا وهو عينها الباصرة. ولا مزية إلا وهو روضتها الزاهرة. ولم يزل في كل عصر ومصر من تحفه ملائكته بأجنحتها.

وترفعه من فضائله على أسرَّتها. كالفاضل الجليل والكامل النبيل طود الأدب الراسخ الراسي مولانا الأخ الشيخ عبد الحفيظ ابن الشيخ محمد الطاهر بن عبد الكبير الفهري الفاسي. لا زال فضله في وجوه المعارف غرتها، وأدبه في عقود الآداب درتها. وقد وفد علينا كتابه الكريم، ونثر در خطابه النظيم، فرأينا مودة أشرقت في ليالي سطوره، وإخوة روحانية تفوح من أريج منثوره. ولا غرو أن تتعارف إخوان الصفا، وأبناء الصدق والوفا، وإن شط المزار، ونأت بهم الديار، فلهم مقام الجمع بأرواحهم. وتعليل النفس بطيف أشباحهم. رغب إلينا هذا الأديب اللبيب في خطابه الموفق العجيب أن نوثق عرى الوداد بأن أُجيز له ما لنا من إسناد. ولسنا من الفرسان في هذا الميدان لولا حسن ظنه وصافي طويته، وتحتم إجابته لصدق إخوته. وقد سبق لي بحمده تعالى جمع أسانيدي في ثبت سميته «الطالع السعيد. في مهمات الأسانيد» ضممت إليه من غرائب الأسانيد ما عز نظيره في فهاريس المسانيد. فالمرجع في سندي إليه والمعول في مسموعي عليه. وقد أجزنا لحضرة الأخ المنوه بفضله ما حواه، وما تطفلنا بجمعه وصنفناه رغبة في دعواته الغيبية. في الأوقات المرضية. وأقتصر له الآن على سندي في صحيح الإمام البخاري عليه الرحمة والرضوان، فإنه الكتاب الذي ملأت شهرته الدنيا. وتطالت إلى الاتصال بجامعه الطبقة العليا. ولي في روايته تسلسلات متنوعة. أذكر منها طريقة هي من مستخرجاتي، وهي روايتي له مسلسلاً بمشاهير بلدنا دمشق الشام، بوأهم المولى دار السلام. فأقول: أخبرني به والدي الفهامة الفاضل الشيخ محمد

سعيد إمام جامع السنانية ومدرسه بدمشق، عن والده سيدي الجد الأمجد العلامة الكبير الشيخ قاسم ابن الشيخ صالح الدمشقي الشهير بالحلاق إمام الجامع المذكور ومدرسه، عن شيخه خال جدتي السيد الشريف الشيخ صالح الدسوقي شهرة ونسباً الدمشقي الحسيني إمام الجامع المذكور ومدرسه، عن والده جد جدتي الفقيه الجليل السيد الشيخ محمد بن محمد الدسوقي إمام جامع حسان بدمشق ومدرسه، عن الشيخ علي السليمي الصالحي الدمشقي، عن العارف بالله تعالى الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي، عن نجم الدين محمد الغزي الدمشقي، عن والده بدر الدين محمد الغزي الدمشقي، عن تقي الدين أبي بكر ابن قاضي عجلون الدمشقي، عن خاتمة حفاظ الديار الشامية شمس الدين محمد الشهير بابن ناصر الدين الدمشقي. عن المعمر علاء الدين ابن الصائغ الدمشقي. عن المسند المعمر أحمد بن أبي طالب الحجار المعروف بابن الشحنة الصالحي الدمشقي. قال: حدثنا سراج الدين الحسين ابن المبارك الزبيدي في شوال سنة ٦١٣ بصالحية دمشق بجامع المظفري بسفح قاسيون، قال: حدثنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي الهروي الصوفي، قال: حدثنا أبو الحسين عبد الرحمن الداودي، ثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، ثنا أبو عبد الله محمد ابن يوسف الفربري، ثنا جامعه الإمام الحافظ المجتهد محمد بن إسماعيل البخاري عليه رضوان الخالق الباري. وأما سوق أعلى سند لي وأسانيدي إلى أئمة المغرب ومصر والحجاز والهند واليمن والعراق والفرس فلا تتسع له هذه العجالة، وما من إمام من

مشاهير هذه البلاد إلا ولي بحمده تعالى اتصال به ورواية لفهرسته. وتفصيله في ثبتي المتقدم ذكره. هذا وإني أعهد إلى مولانا الأخ نفعنا المولى بدعائه أن ينشىء مريديه على التمسك بعروة الأصلين الكريمين الكتاب العزيز وصحيح السنة، وأن يرشدهم إلى الوقوف مع الأقوى دليلاً. والأقوم قيلاً، وإلى عدم قبول سلطة أي فكرة إلا بعد فحص دقيق، وإلى اقتلاع جذور التعصب من أعماق القلوب، فإن التعصب سبب تفريق الجامعة وجذوة حجب العقول عن الحق، وإلى الولع بمحبة الإنصاف، لأنه يرفع الخلاف، ويوجب الائتلاف، وأن يمرنهم على إثبات المدعى بالبرهان الصحيح الثابت الذي لا يقبل النقض، لتجري نفوسهم في حركة المعقولات ويحبي فيها قوة التأمل والتعقل حتى تصير ملكة راسخة، وأن يبصرهم بحاجيات الزمان وكمالياته، فإن لكل عصر حاجيات، ولكل طور من أطوار الأمم النامية كماليات لا بد من استيفائها كلما تدرجت الأمة في معارج الارتقاء وجرت في ميدان الفلاح والتقدم على السنة الفطرية التي تدور حول محور هذا الكون البديع النظام، وأن يحضهم على التواصي بالحق والتواصي بالصبر. فلا يسأموا من تكرار الدعوة إلى الحق وموالاة الإرشاد إلى السداد. والله المستعان وعليه التكلان.

قاله بفمه وكتبه بقلمه الفقير محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن إسماعيل القاسمي الدمشقي في ٧جمادى الأولى سنة ١٣٢٣.



الفصل الخامس

آثار القاسمي

أولاً ـ مكتبته

ثانياً ـ مؤلفاته

ثالثاً ـ أدبه : ١ ـ شعره

٢ ـ نثره

٣ ـ مراسلاته

آثار القاسمي

أبرز آثار القاسمي التي تركها لتدل عليه مكتبته الحافلة بنوادر الكتب المخطوطة والمطبوعة والمجلات مما كان يتخيَّر في حله وترحاله شراء وإهداءً، ومؤلفاته التي زادت على المئة، وهي تعطي خطة منهجه ومجمل آرائه. . وله كذلك بعض أشعار ومنظومات تحتاج إلى نظر، بالإضافة إلى عدد من المراسلات.

سنقف عند هذه الآثار، نعرضها لنرى ما فيها مما ينفع في تعرف الرجل وبيان أحواله وطريقته.

أولاً ـ مكتبتـــه:

كان القاسمي يعتز بالكتب شأن العلماء، بل تفوَّق في اعتزازه بها على كثير منهم، وأدرك قيمتها ومكانتها في البيت والمدرسة وسائر الأمكنة، وعرف أثرها في بناء عقول الأفراد. وكان يدعو طلابه دوماً لاقتناء الكتب المفيدة. ولم يقتصر جمال الدين على التنويه بأهمية الكتاب بل تعداه إلى الصحف والمجلات التي يرى لها خطراً كخطر المدارس، فيقول: «أسباب الرقي انتشار هذه الثلاثة: المطابع والجرائد والمدارس إذا وجهت توجيهاً صحيحاً»، وهو يحذر أن يتولى الجرائد غير العلماء المصلحين، «لأنهم هم أرباب التأثير، وهم

الذين يستطيعون رفع الوطن وانحطاطه»[1].

وقد بدأ بتأسيس مكتبته جده الشيخ قاسم، ووسعها أبوه بعده، ثم عكف هو على تزويدها من بعدهما حتى بلغت يوم وفاته أكثر من ألفي مجلد، حوت ذخائر الأسفار ونوادر المطبوعات التي خصها بالعناية والحفظ، فأفرد لها حجرة في بيته، كان يسميها «مربع الكتب»[2].

وتمتاز مكتبة جمال الدين عن كثير من خزائن كتب العلماء في عصره بتنوعها الواسع؛ فإلى جانب كتب التفسير الحديث والفقه واللغة والتصوف والأدب والتاريخ والأصول نجد كتب الفلسفة القديمة والحديثة التي كان الشيخ يعنى بها كثيراً، كما كان يعنى بكتب الاجتماع والرياضيات القديمة والحديثة، بل كان في خزانته كتاب «مقابلات» الذي قارن الشريعة الإسلامية بشرائع اليهود والقوانين الفرنسية الحديثة. وكان في مكتبته كذلك كتب حول الفرق الإسلامية، وكتب الديانات الأخرى، قارب عددها مئة كتاب[3]. والخلاصة أن القاسمي اقتنى معظم ما أنتجته المطبعة العربية في عصره، سواء في ذلك مطابع الشام ومصر والمغرب والهند ومطبعة الجوائب[4].

---

(١) استانبولي، ٨٠.

(٢) ظافر، ٨٨، ٢٠١؛ مجلة المجمع العلمي ٣٥/ ٢٤٥، والمربع بلغة أهل دمشق الغرفة العادية غير الواسعة.

(٣) استانبولي، ٨٦؛ ظافر، ٨٠ ـ ٨١.

(٤) استانبولي، ٨٦؛ ظافر، ٨٠ ـ ٨١، ١٤٣، ١٤٧ وقد نقل عن مذكرات =

ولئن كانت خزائن الكتب الخاصة تهمل أحياناً أو توضع على الرفوف للزينة أو يعتد بها للتفاخر أو يرجع إليها فتمس مساً رفيقاً فإن مكتبة الشيخ كانت بين الأيدي دائماً، ولا يكاد يخلو كتاب واحد منها من تصحيح على الأصول الخطية، أو تعليق أو إشارة إلى قراءته على أحد المختصين. قال ابنه: «وقد رأيت في مكتبته كتاباً [في الرياضيات] ذكر أنه قرأه على صادق النقشبندي، كما وجدت كتاباً مطبوعاً على الحجر اسمه أشكال التأسيس لموسى قاضي زاده، صححه على نسخة شيخه محمد الخاني المقروءة على شيخه محمد الطندتائي عام ١٣٠٨ هـ، وكتاباً في الجغرافية عليه أنه قرأه على عبد الوهاب الانكليزي» وكلا النقشبندي والانكليزي المذكورين أصغر منه سناً، وقد رغب فيهما الشيخ لعلمهما لأنهما قرأا في المدارس الحديثة[1].

وكان في خزانته كثير من الكتب الممنوعة التي طبعت في مصر، جعلت تصل إليه من أصدقائه وأقربائه وتلاميذه يتقربون إليه بها.. ولذلك تعرضت كتبه للتفتيش مرات، وصودر بعضها كما مر بنا. وربما وافاه المفتشون ليلاً فأزعجوه من أجل بعض كتب فيها[2].

= أبيه في رحلته إلى مصر قوله: «اشتريت ضحوة الثلاثاء ١٧ شوال [١٣٢١ هـ] حملاً من الكتب النادرة» و«ضحوة السبت ٢١ شوال تجولت في حوانيت باعة الكتب واشتريت كثيراً مما راقني» و«بعد ظهر الأحد - شوال اشتريت كتباً أخرى» وانظر مجلة المجمع العلمي ٣٥/ ٢٤٥.

(١) ظافر، ٨٠؛ ومجلة المجمع العلمي ٣٣/ ٦٥٧ - ٦٥٨، ٣٥/ ٢٤٥.

(٢) ظافر، ٢٠١ - ٢٠٢، وانظر حادثة تفتيش رجال الأمن لكتبه في الجامع والبيت حين اعتقل عبد الحميد الزهراوي، في الفصل الثالث. =

وبلغ من عنايته بكتب المطالعة أنه جعل لكل كتاب فهرساً خاصاً يثبته على غلافه للمواضيع التي يحتاج للرجوع إليها، يوم لم يكن في الكتب كشافات تفصيلية، فإذا كان الموضوع يهمه أشار بين هلالين بلفظ (مهم) أو (مهم جداً) وربما وضع الإشارة بالحبر الأحمر. وقلما خلا كتاب في مكتبته من هذا[(١)].

وكان يرى أنه تجب قراءة مقدمة كل كتاب وخطبته بعناية لتعرف منهاج المؤلف والاطلاع على الغاية من تأليفه قبل الشروع في قراءته والحكم عليه. وكان معجباً بمقدمة صحيح مسلم، قرأها وعلق عليها، وقال: إنها تصلح أن تكون رسالة مستقلة في علم الحديث[(٢)].

ولم يكن القاسمي يضن بكتاب على مستعير، فإن أعيد إليه نظر فيه، فإن لم يجد على صفحاته أثراً لمطالعة المستعير لامه قائلاً: يبدو أنك مسست الكتاب مساً رفيقاً[(٣)].

وكان من رأيه أنه إذا استعار شخص كتاباً بالي الجلد أو غير مجلد، وجب عليه المسارعة إلى تجليده قبل إعادته لصاحبه، ذكر ذلك في كتابه الآداب[(٤)].

ولقد عرف بمحبته للكتاب والخوف عليه منذ كان صغيراً، وها

---

(١) ظافر، ٨٨.

(٢) استانبولي، ٨٢.

(٣) المرجع السابق، ٨٦.

(٤) المرجع السابق، ٨٦.

هو ذا حين يرى أباه مقبلاً وهو يحمل كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، اشتراه من السوق، يكب على يديه فرحاً، يقبلهما امتناناً وشكراً[1].

وهذا الفرح والحرص ليس لمكتبته فحسب بل لكتب دمشق كلها فقد ساءه يوماً أن يهدي بعض الدمشقيين كتباً خطّية لأحد المغاربة؛ كتب في مذكراته: «زارنا الشيخ طاهر.. وكانت المذاكرة في نبأ الكتاني وغرائب درسه، ولمت معه من أهداه كتباً خطية كان يمكن استنساخها له وبقاؤها في الشام، حتى قلت لمن أهداها: لا كرم في الكتب، فقال: الرجل عزيز. فقلت: النفس أعز. ولكن ليزداد الوطن فقراً من الكتب فإنّا لله. وقلت له: بعض البلاد يرون المنّة في إراءة الكتاب فقط. انظر ما يفعله قوّام المدرسة اليسوعية في بيروت لزائر كتبهم»[2].

ومثلما كان يبذل كتبه للمستعيرين كان يطالب الآخرين بمثل ذلك ويرى أن تكون الكتب ملك الأمة ينتفع بما فيها أبناؤها، ولهذا كان يقول: لا يحق لمن يملك مكتبة ليس للورثة اضطرار إلى ثمنها أن يبيعها خشية تفرقها وضياع الفائدة منها، بل ينبغي وقفها على المطالعين[3].

وحين مات أحد العلماء وباع ولده الجاهل مكتبته العظيمة لامه

(١) ظافر، ١٨٩.
(٢) المرجع السابق، ٣٣٥.
(٣) استانبولي، ٨٦.

الناس غير القاسمي الذي قال: إن المكتبة كانت مجهولة فبذلها هذا للعلماء.

كانت الكتب في حياته شيئاً أساسياً كالماء والهواء والخبز كما قال في رسالته لصديقه محمد نصيف: «وإذا تركت القلم أو الكتاب فأراني كالسمك إذا فارق الماء». ولذا فلم يكن يكتفي بما عنده من أسفار ولا بما في المكتبة الظاهرية التي كان يتردد إليها ويعرف ما فيها، ولا يشبعه شراؤه لكتب كثيرة من مصر لما زارها، ولا ما صدر عن مطابعها، يأتيه مع الأصدقاء أو في البريد، ولا ما تنشره مطابع سورية ولبنان من كتب ومجلات.. لا يكفيه هذا كله، بل يتشوق إلى معرفة مطبوعات الشرق والغرب ومخطوطات الخافقين، فنراه يكتب أسماء ما وقع عليه من خطّيات عند زيارته مكتبات المدينة المنورة، وينشرها في المقتبس، ويطلب من بعض أصدقائه في المغرب كعبد الرحمن الكتاني أن يقيّد له ما في فهارس خزائن المغرب، كما يطلب من صديقه أبي بكر خوقير في الحجاز عن طريق الشيخ محمد نصيف أن يرسل إليه من جدة فهرس الكتب الهندية التي يتوق إلى اقتنائها وخاصة تفسير البغوي المطبوع في الهند، لأن ابن تيمية زكّاه، وأكثر من النقل عنه[1].

هذا الرجل الذي اتصف بهذه المحبة للكتب ـ وقد جمع منها ما جمع ـ خشي على مكتبته من التشتت والضياع، أو خشي أن تمس الحاجة من تصل أيديهم إليها فيبيعونها، ولذلك سجّل على معظمها

(١) ظافر، ٥٦٣، ٥٨٧، ٦١٠، ٦١٩.

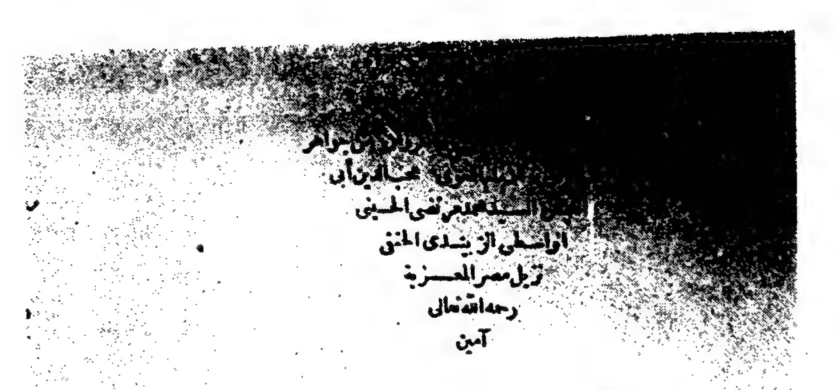
وقفاً لها بعبارة تكاد تكون متماثلة؛ كتب على تاج العروس للزبيدي ما يلي: «وقف هذا الجزء والتسعة بعده الفقير محمد جمال الدين القاسمي على أولاده وأولادهم، ثم على أقربائه من بعدهم ثم على طلبة العلم. في ٢٠ شعبان سنة ١٣١٩»[١].

ولم يكتف بذلك وإنما أعلن في الصحف أنه أوقف مكتبته لكل مطالع. وقد خصص لها حفيده بهواً كبيراً في حي المهاجرين (محلة الشطا) له باب خاص ليدخل إليه مباشرة من أراد المطالعة، وجعل لها فهرساً يخدم المطالعين[٢].

---

(١) ظافر، ٩١.

(٢) استانبولي، ٨٦.



وقف هذا الجزء والتسعة بعده الفقير محمد جمال الدين القاسمي على أولاده وأولادهم ثم على أقربائه من بعدهم ثم على طلبة العلم في شعبان سنة ١٣١٩

(الطبعة الأولى)
(بالمطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر)
(المحمية سنة ١٣٠٦)
(هجرية)

أنموذج من وقفه لكتبه

ثانياً ـ مؤلفاتـه:

كان جمال الدين يدعو أهل العلم وأصحاب الفكر النيّر إلى التأليف، ويحثهم عليه، لأنه يرى أنّ «الكتاب خير من ألف داعية وخطيب؛ إذ يقرؤه الموافق والمخالف. فإن المعارض لا بد إذا بلغه أنه قد طلع شيء ضده أن يطالعه ويرد عليه، فإذا أنصف رجع إلى الحق»[1].

وقد أخذ نفسه بالتأليف منذ كان صغير السنّ، وأعانه على الكتابة قلم سيّال يشبه فكره، ودأب على التصنيف والتنظيم، وسرعة في الذاكرة والمراجعة[2]. ولئن كانت أوقاته مملوءة بالعمل مطالعة وتدريباً وتوجيهاً وقياماً بشؤون الأسرة الكبيرة فإنه قد خصص وقت الضحى للتأليف، وهو الوقت الذي ينشغل فيه غالب الناس، يعتزلهم في سدة جامع السنانية أو ربما في البيت أو في حجرة له كانت بمدرسة عبد الله باشا العظم قرب سوق الخياطين[3].

وربما كان ذلك لأن الشيخ لا يتمكن في ذلك الوقت من التدريس، فاستفاد من تلك الفترة الحيوية.

على أنه كان يستثمر كل دقيقة تمر به، حتى إنه ليكتب في كل مكان يمكن أن يكتب فيه، في القطار كما مر بنا، وفي البيت، وفي

---

(١) استانبولي، ٥٧؛ ظافر، ٩١، ٤٨٥.

(٢) رضا، المنار، مج ١٧، ج٨/٦٢٨.

(٣) استانبولي، ٣٧، وقد ذكر حجرته هذه في ختام حاشيته على الروضة الندية كما سيأتي.

العربة، وفي النزهات. ربما توقف مرات في الطريق ليسجل خاطرة سنحت له في دفتر صغير أعدّه لهذا الغرض، يحمله في جيبه أينما ذهب. بل إنه ليكتب وهو مريض، لا تمنعه عن التأليف إلا حالة قاهرة. ورأينا أنه ألّف خلال رحلته الأولى إلى مصر كتاب «شذرة من السيرة المحمدية» وطبعه هناك. وأنهى كتابه عن البواسير وعلاجها وهو في نزهة بين أصحابه في ربوة دمشق، وكتب جزءاً من كتابه «قواعد التحديث» في بيت المقدس[(١)].

كان هذا الاهتمام بالتأليف في زمن قلّ فيه الكتبة والمؤلفون، واكتفى العلماء بما بين أيديهم من كتب لم يعد كثير منها يصلح لزمنهم، وما جدّ فيه من جديد الأفكار والأساليب. ولم يكونوا ليفكّروا بالبحث عن أفضل منها.. وظل الشيوخ بما فيهم المشهورون يقررون كتباً معينة وحواشي محددة، لا يخرجون عنها، ولا يحيدون عن عباراتها وألفاظها.

ويعدّ القاسمي من المكثرين في التأليف رغم كثرة شواغله، وكونه رب أسرة كبيرة تحتاج إلى رعاية وخدمة.. وقد أحصى ولده ظافر من كتبه ٨٧ كتاباً، ذكر أن عشرة منها ضاعت، أخذ عناوينها من مجلة المنار، وقال: «هي موجودة، ولا شك أنها دخلت في جملة مكتبته التي انتقلت من مكانها ثلاث مرات»[(٢)].

إلا أن عاصم البيطار قال: إن والده الشيخ محمد بهجة أوصلها

---

(١) استانبولي، ١٩؛ ظافر، ٩٩، ٢٥٧، ٦٢٦، ٦٣٢.

(٢) ظافر، ٦٣٢ ـ ٦٦٨.

إلى ١١٠ مصنفات[١] دون أن يعيّن أسماءها، ولا أن يثبت الزيادات التي يراها.

والحق الذي يبدو بعد التتبع أن ابنه قد فاته بعض الكتب التي نشرت أسماؤها في المنار[٢] وغيرها من الصحف، كما لم يعدّ من مؤلفاته تلك الرسائل التي أوردها أبوه في مفكراته، ولذلك فقد كان البيطار على حق في قوله، كما سنرى من القائمة التي أحصينا فيها ما كتبه الشيخ.

على أن كتب القاسمي التي جاوزت المئة ـ وبعضها من أجزاء كمحاسن التأويل وكثير منها رسائل في قضايا معينة ـ كنوز تحفل بنوادر الفوائد وجميل الفرائد، فيها ثمرة مطالعات خصبة غنية واطلاع شامل على المكتبة الإسلامية مطبوعها ومخطوطها على السواء[٣].

ولعل أقدم مؤلفاته مجموع لطيف سماه السفينة جمع فيه عام ١٢٩٩هـ وكان له من العمر ١٦ سنة ـ مختارات من مطالعاته في كتب شتى[٤].

وقد أجمع من يعرف القاسمي أن أجلَّ كتبه تفسيره المسمى «محاسن التأويل» (١٧ مجلداً)، ومن أنفع مؤلفاته «قواعد التحديث»، وهو من المراجع المهمة في بابه، «وموعظة المؤمنين

(١) الفضل المبين، ٢٥.
(٢) المنار، مج ١٧، ٨/ ٦٢٩ وما بعد.
(٣) الفضل المبين مقدمة المحقق. ص٦.
(٤) ظافر، ٦٣٢.

تلخيص إحياء علوم الدين». ومن كتبه الجميلة «تعطير المشام في مآثر دمشق الشام» ولا يزال مخطوطاً و«شمس الجمال على منتخب كنز العمال»، و«الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين»[1].

وهذه الآثار الجليلة أثارت إعجاب أهل العلم وأصحاب الثقافة، ورأوا فيها روحاً جديدة وأسراراً عظيمة ونفعاً كبيراً، حتى قال الأمير شكيب أرسلان: «وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها وتنعقد عليه خناصرها ألا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم جمال الدين القاسمي الذي قسم الله له من اكتناه أسرار الشرع ما لم يقسمه إلا للكبار الأئمة وأحبار الأمة، والله تعالى ينفع المسلمين بآثاره، ويهديهم في ظلمات هذه الحياة بزاخر أنواره»[2].

وغالب هذه المؤلفات تمثل دعوة القاسمي في الحث على التمسك بالكتاب العزيز والسنة الصحيحة وهجر التقليد ومحاربة البدع والضلالات[3].

ولاقى القاسمي في سبيل نشر بعض مؤلفاته مشقة وعنتاً، لأنه كان في زمن اشتدت فيه الرقابة كما مر معنا في مجمل سيرته، من أنه أرسل كتابه دلائل التوحيد إلى المطبعة خفية، لكن وشاية سبقته إلى قلم المكتوبجي (المطبوعات) فداهمت بيته جماعة من الشرطة وأعوان

(١) الفضل المبين، ٢٦.
(٢) قواعد التحديث، ٨.
(٣) استانبولي، ٥٦.

الحكومة وضبطوا مسودات الكتاب وكثيراً من الأسفار بلغت ثلاثة أكياس من الخيش لم يفرج عنها إلا بعد مدة.. ولم ينشر الكتاب إلا بعد إعلان الدستور كما رأينا.

إلا أن هذا العَلَم الجليل بعدما قطع من عمره شوطاً استحكمت معه أفكاره كان خلال ذلك يجيل النظر كل حين فيما صنع، ويرجع إلى ما كتب، وتتغير نظرته إلى الحياة وإلى بعض معطيات العلم، وخصوصاً من رجل مثله أوتي منهجاً يحكّم فيه العقل ويعتمد على البحث والنظر والفكر.. فإذا به يحكم على بعض مؤلفاته حكماً مبرماً، فيعلن أنه غير راض عنها، وأن له نظراً في كل كتاب ألفه قبل عام ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م[١].

ومن يتتبع كتب الشيخ يجده حريصاً فيها على الفكرة أكثر من حرصه على الأسلوب والتأنق بالعبارة، وهذا أمر بديهي في رجل دعوة وإصلاح، لا تشغله كثيراً عبارات الكلام. ولذلك فقد كان يعنى بالتبسيط ووضع الفواصل والإشارات تسهيلاً على القارىء[٢] في زمن لم تعرف فيه علامات التنقيط كثيراً. ثم إنه من جهة أخرى

(١) صرح بذلك في مذكراته بقوله: «كل مؤلف لي قبل ١٣٢٠ فلي فيه وقفة. (مفكرة ٩ جمادى الأولى ١٣٢٤) ظافر ٦٣٣. ولقد ألف رسالة المسح على الجوربين فاشتهرت وهي لا تزال مخطوطة، فطلبها عالم من الحجاز فبعث بها إليه، ثم بدا له فيها رأي فعدّلها. وبعث إلى صديقه محمد نصيف في جدة ليأخذ النسخة ممن أرسلت إليه فيحرقها قائلاً: «لا أُجَوِّز نسبته إليّ البتة».

(٢) استانبولي، ٥٧ ظافر، ٧٨.

ـ وهذا أيضاً بسبب اهتمامه بالفكرة ـ لم يكن يريد من الرد على مخالفيه إفحام خصومه أو تصغير أقدارهم أو الحط من مكانتهم، وإنما كان هدفه الهدي والرشاد والدعوة إلى الصراط المستقيم، حتى ينقلب المخطىء مصيباً، ويعود المنحرف إلى الحق[1]. ولذلك لم تتضمن كتبه على كثرتها لفظاً نابياً، وإنما كان يعتصم بالنقاش العلمي الهادىء. بل يعجب من محمد محمود الشنقيطي[2] الذي يورد في حماسته كلاماً ساقطاً بذيئاً وشتائم وسباباً[3].

ورب قائل يقول: إنّ عدداً من مؤلفاته لا يعدو كونه اختصاراً لكتاب وتعليقاً على حاشية أو شرحاً لرسالة، فكيف يأتي بهذا وهو كما يزعم الزاعمون شيخ الإصلاح.. وعمله في جانب من كتبه كعمل معاصريه من التقليديين؟

وإذا كان في هذا الكلام بعض الصواب، فإنه صواب من حيث الظاهر، والقائل به لا ينظر إلى حياة القاسمي إلا على أنها جملة واحدة، بينما هي في الظاهر أكثر من ذلك، فقد عرفنا في سيرته أنه كان على حالة في شبابه، خالف عنها لما تقدمت به السن، وذكر في مفكراته أنه غير راض عن مؤلفاته التي صنفها قبل عام ١٣٢٠هـ كما ذكرنا آنفاً، وفضلاً على ذلك فإنه أحرق كتابه «تنبيه الغمر في ردّ شبه طهارة الخمر»[4] فهل يا ترى أحرق غيره من الكتب؟

---

(١) قاموس الصناعات ٢/ ٢٠٥.

(٢) أشرت إلى موضع ترجمته في بعض حواشي الفصل الثالث.

(٣) ظافر، ١٤٣.

(٤) ظافر، ٦٣٣.

أما السيد رشيد رضا فحين يشير إلى مؤلفاته يرى فيها قسماً لا يعجبه، ولكنه يبرر ذلك قائلاً: «سيقول كثير من الناس: إنك عددت القاسمي من رجال الإصلاح، وإن أسماء كثير من هذه الكتب التي صنفها أو شرحها تدل على أنها ليست من الإصلاح في ورد ولا صدر، ولا تشتمل على عين منه ولا أثر، فكيف يضيّع العالم المصلح وقته في شرح لغز أو ما يُعدّ أبعد عن الإصلاح من اللغز؟»[1].

ويجيب على ذلك بقوله: «ويمكنني أن أقول: إن الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر وإن لم يدخل كل ما كتبه في باب الإصلاح الذي يفهمه قراء المنار، فمسمى الإصلاح ومفهومه واسع، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان والسن والعشراء والأقران والتلاميذ والمريدين وغيرهم من المخاطبين. والمصلح لا يخلق مصلحاً بالفعل، بل يخلق كغيره لا يعلم شيئاً، ويكون الاستعداد للإصلاح فيه كامناً، ثم تظهره التربية والتعليم وما يتجدد المرة بعد المرة له من العبرة والتأثير. فهل يطلب ممن عاش خمسين، ترك فيها من هذه الكتب والرسائل نحواً من سبعين أن يكون جميع ما كتبه أو شرحه إصلاحاً في الدنيا والدين، مرضياً عند الكهول المجربين والشيوخ المحنكين؟»[2].

ويبرر رشيد رضا للشيخ كونه صنف مثلها مما هو خارج عن منهجه في الإصلاح فيقول: «كان سبب اختيار الشيخ قراءة بعض

---

(١) المنار، مج١٧، ج٨/ ٦٣٠.
(٢) المنار، مج ١٧، ج٨/ ٦٣١.

الكتب وكتابة بعض الشروح والتعاليق على بعضها هو الضرورة أو الحاجة إلى تدريسها لا لكونها صالحة في نفسها أو محاولته إصلاح التعليم بها؛ مثال ذلك ما كتبه على شرح الفناري ومتن الشمسية في المنطق كان مما لا بد منه، لأن طلبة العلم كانوا يمتحنون بهما لأجل إعفائهم من الخدمة العسكرية. ونقيس ما لم نعرف عذره فيه كقراءة كتاب جمع الجوامع وشرح بعض المتون على ما عرفنا عذره فيه كمتن الشمسية وشرح الفناري، وكلاهما لا يصلحان للتدريس في رأي العارفين بطرق إصلاح التعليم»[١].

ويصف السيد رشيد كتبه والدافع إلى تأليفها على نحو من تفصيل فيقول: «أولاً: إن القاسمي درس فنون اللغة العربية والعلوم الشرعية على الطريقة المألوفة في مدارس المسلمين منذ قرون، وتلقى تلك الكتب التي اختارها المتأخرون للتدريس، ورأى حاجة أهل البلاد إلى بعض تلك الكتب لأجل امتحان الإعفاء من العسكرية[٢]، وأن المشتغلين بالعلم منهم يظنون أن العالم لا يكون عالماً حقيقة إلا بتحصيل كذا وكذا منها، كجمع الجوامع وكتب السعد التفتازاني، فكانت هذه الأمور الثلاثة أسباباً لمحافظته على بعض ذلك التليد. ثانياً: أنه كان يرى أن ما يثبت بالدليل النقلي في النقليات، والعقلي في العقليات، وبالتجربة في المجربات لا تتلقاه

(١) المنار، مج١٧، ج٨/ ٦٣١ ـ ٦٣٢.

(٢) كانت هناك لجنة تتولى كل حين فحص طلاب العلم فتعفيهم من الخدمة العسكرية ليتفرغوا لعلمهم. وهي تمتحنهم عادة بكتب معينة، وأسلوب مخصوص.

بالقبول هذه الأمة التي جمدت على التقليد، وبعد عهد جمهورها بالحجة والدليل إلا إذا أيد بنقل عن بعض العلماء السابقين، ولا سيما إذا كان من المشهورين، فكان يرى هذا ركناً من أركان الإصلاح في التدريس والتأليف لأجل إقناع المستدلين والمقلدين معاً، ونحن نجري على هذا في المنار والتفسير أحياناً. ثالثاً: أنه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته وما مذهب السلف إلا العمل بالكتاب والسنة بلا زيادة ولا نقصان على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الأول. وقد اتهم ـ كما اتهم غيره من المستقلين ـ بأنه أحدث مذهباً جديداً في الإسلام. رابعاً: كان يتحرى في المسائل الخلافية الاعتدال والإنصاف واتباع ما يقوم عليه الدليل من غير تشنيع على المخالف ولا تحامل. وكان لحرصه على الوفاق وجمع كلمة المسلمين يجتهد في استبانة حجة كل فريق من أصحاب المذاهب، وتقريب أحدهما من الآخر بإظهار حجته أو شبهته، وحكاية ما يعارض الخصم به، ومن كانت هذه طريقته فكثيراً ما يغضب الخصمين معاً، فيتهمه كل منهما بالتشيع للآخر. ثم إذا كان أحدهما مصيباً والآخر مخطئاً يتعذر على محب الاعتدال في الحكم بينهما أن يرضى باستحداث مذهب ثالث يجعله وسطاً بينهما؛ إذ ليس بين الحق والباطل وسط، وإنما يكون الحق وسطاً بين باطلين أو أباطيل ترجع كثرتها إلى نوعين؛ الزيادة على الحق أو النقص منه. وقد اتهم الفقيد بعض السلفيين بأنه خالف مذهب السلف في رسالته «تاريخ الجهمية والمعتزلة» على شدة حرصه عليه وتحريه إياه، وانتقدها بعض الشيعة، واتهمه بعض المستقلين بعشرة

أخرى في رسالته «نقد النصائح الكافية»، وهي أن حب الاعتدال وتقريب أحد الخصمين من الآخر أخرجه عن الاعتدال في بعض المسائل، ولكن بقصد الإصلاح. وههنا مسألتان؛ إحداهما: أن المستقل في علمه وحكمه حق الاستقلال يتحرى ما يظهر أنه الحق فيقوله، ويحكم به وإن أغضب جميع الناس عليه. وقصارى ما يستبيحه من إرضاء الناس أو استمالتهم التلطف في القول، وتزيين الحق الذي ثبت عنده بحلي البيان وحلله، دون إبرازه لهم عاري الجسد عاطل الجيد. الثانية: أن الإصلاح بين الرجلين أو القبيلين من الناس فضيلة حَثَّ عليها الشرع وعَرَفَ حُسْنَها العقل، وقد أبيح فيها الكذب عند الضرورة، عملاً بقاعدة ارتكاب أخف الضررين، فبالأولى يباح فيها التماس العذر لكل خصم فيما خالف الآخر فيه، وتوجيه ما قام عنده من الحجة أو شبه الحجة. وهذه الطريقة في الإصلاح أقرب الطرق لإرضاء المعتدلين من أهل المذاهب المختلفة، وأما الغلاة في التعصب لمذاهبهم فلا يرضيهم إلا موافقتهم واتباعهم. أما العمل بهاتين المسألتين وإعطاء كل واحدة منهما حقها فهو عسر جداً، فإن المستقل جدّ الاستقلال إذا تصدى للتوفيق بين الخصمين المتعصبين يغضبهما جميعاً، وإنما يمكن أن يرضي المستقل من كل فريق أو المستعد للاستقلال إذا أوتي الحكمة وفصل الخطاب. ومن الآيات على ذلك أن رسالة «تاريخ الجهمية والمعتزلة» لم يكتب أحد في هذا العصر كتابة أعدل منها في التأليف بين فرق المسلمين الكبرى ـ وهم أهل السنة الأثرية والأشاعرة والمعتزلة والشيعة والخوارج ـ وقد كتب بعض علماء الشيعة رداً عليها قبل إتمام نشرها، وهل

يرضى شيعي بتعديل بعض الخوارج والرواية في الصحيحين عنهما. وأنكر بعض أهل السنة الأثريين بعض المسائل فيها كما تقدم. فأين هذه من تلك الرسالة التي كتبها أحد علماء الشيعة للتوفيق بين الأمة بزعمه أو دعواه الظاهرة، فكانت عبارة عن دعوة أهل السنة إلى التشيع بتخطئتهم وتصويب الشيعة في جميع مسائل الخلاف[1].

أما محمد كردعلي فكان شديد الإعجاب بكتب الشيخ، يشهد له فيها بسبق معاصريه بل من قبلهم، ويرى أن مؤلفاته خير شاهد على كونها من جيد التأليف: «أما أنا فلا أحيل المعترض إلا إلى كتب الشيخ وقراءة بعض ما طبع منها وتحكيم العقل والإنصاف، وأنا الضامن بأنه لا يلبث أن يساهمني قولي، ويوقن بأن المرحوم جوّد تآليفه التي تنم على عقله وعلمه، أكثر مما جودها كثير من المؤلفين بعد عصر السيوطي، ممن شهد لهم بالإجادة». ويرى كردعلي أنّ ظروف القاسمي لو كانت أحسن لجاءت تصانيفه أكثر: «ولو سمحت الحال أكثر مما سمحت، ومتع بحرية القول والعمل أكثر مما متّع لجاء منه أضعاف ما جاء، ولكن ضيق العيش وضيق المضطرب لا يرجى منهما أكثر مما تم على يده من الأعمال والآثار وقد أغلقت دونه أبواب الدواعي والبواعث»[2].

وقال عاصم البيطار: «إن النظر المتأني فيما ترك علامة الشام القاسمي من آثار وأقوال في مختلف وجوه العلم يدل على أن ثقافته

---

(١) المنار، مج ١٧، ج ٨/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤.

(٢) المقتبس مج ٨/ ١٠٩.

كانت شيئاً فريداً بين معاصريه، فقد كانت ثقافة موسوعية، لم تقف عند حدود علوم الشريعة واللغة والاجتماع، بل عنيت بما استحدثه العصر من مكتشفات ومخترعات، وما وصل إليه العلم من آراء ونظريات، واستخدم ذلك كله في خدمة الدين وإقامة المجتمع الإسلامي على أفضل الأسس والقواعد التي لا تفقد صبغتها الإسلامية، ولا تتنكر لتقدم سليم أو معطيات علمية نافعة؛ لأن الإسلام دين فطرة مؤمنة وعقل متفتح ونظام عام ينتظم الحياة كلها ودولة فاضلة، فلا غرابة إذا حدثنا عن العمل بالبرق والكهرباء والهاتف والاشتراكية التي بدأت مفهوماتها تصل إلى أسماع بعض الناس في الشرق آنذاك، ولا عجب إذا وضع رسائل في القهوة والشاي وبعض المعارف الطبية إلى جانب آثاره الجليلة في التاريخ والتفسير والحديث والاجتماع والأخلاق»[1].

ولم يكن القاسمي ليقتصر على تأليف الكتب، وإنما ساعد كذلك على نشر بعضها وإصداره مصححاً، أو كما يسمى بتعبير اليوم محققاً، خصوصاً إذا كان في نشر ما ينشره ترسيخاً لفكرته ودعوته، ومثال هذا إصداره لكتاب «العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ» لمؤلفه محمد المقبلي اليمني، وفيه فتاوى على المذاهب الأربعة وطعن بكثير من المتصوفة لمخالفة بعضهم نصوص القرآن الكريم. وذكر القاسمي أنه «كان في دمشق نسخة من هذا الكتاب في مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني استعارها منه أحد

---

(١) الفضل المبين، ٢١.

الأمراء المغالين في الصوفية، ودعا جميع المتصوفة إلى وليمة في قصره وأحرقها أمامهم» ثم علم الشيخ من صديقه طاهر الجزائري أن للكتاب نسخة أخرى في مكتبة القدس، فأرسل من نسخها ثم صححها وبعث بها إلى مطبعة المنار فصدرت عنها[1]. وقُل مثل ذلك في عنايته بكتاب «إغاثة اللهفان» لابن قيم الجوزية وإخراجه.

ولما لم يكن من المعروف كثيراً في زمن القاسمي كتابة اسم المصحح أو المحقق في إخراج الكتب، فربما يكون هناك الكثير الذي أصدره القاسمي بهذا الشكل ولا نعرف عنه شيئاً.

وإرث القاسمي العلمي اليوم أقسام، منه ما طبعه في حياته وأشرف عليه بنفسه، سواء ما نشر منه في المجلات المشهورة آنذاك كالمنار والمقتبس وثمرات الفنون، أم ما طبع في المطابع. وهو باق كله موجود وتكرر طبع بعضه. ومنه ما طبع بعد وفاته بعناية أهله وتلاميذه. وكثير مما بقي لا يزال بأصوله محفوظاً كما تركه الشيخ. وهناك كتب من كتبه بقيت أسماؤها لم يعرف مصيرها، أشار إليها ولده في ترجمته. والرجاء معقود بوجدان المفقود وطبع المخطوط للانتفاع بكامل علم الرجل الذي تعب في تحصيله، وبكتبه التي سهر عليها. وهي تمثل خلاصة فكره. وهو إرث وقفه صاحبه على خدمة الشريعة المطهرة، يتناول التفسير والحديث والسيرة والتوحيد والعقائد والأصول والأدعية والمناجاة وتاريخ الفرق والجرح والتعديل والصناعات الشامية وتاريخ دمشق والرحلات والأدب

---

(١) استانبولي، ٥٥ ـ ٥٦.

والمواعظ وتاريخ الفتوى وبدع المساجد، وفيه مسائل من مستجدات العصر رأى رأيه فيها.

وهذه قائمة مؤلفاته، منسوقة على حروف المعجم، أشرنا إزاء المخطوط منها بحرف (خ)، وعلقنا على كل مصنف بما يوضح أمره ويعطي فكرة عنه. وإن كان مطبوعاً ذكرنا مكان الطبع والسنة والمطبعة:

١ ـ آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي (خ).

جرده من مقدمة شرح المهذب للنووي. انتهى منه في شعبان سنة ١٣١٧هـ ووجدت نسخة أخرى منه عليها قوله: «عورضت بأصلها وتم العراض في أوائل شعبان سنة ١٣١٨ هـ وذلك بعد الفجر في السدة اليمنى من جامع السنانية». وفي المقتبس مج٧/ ٢٨٣ ـ ٢٩٣ مقالة له عنوانها «آداب الدارس والمدرس، ذكر في أولها أنه لخصها من كتاب النووي المذكور».

وقد صدرت مقدمة النووي هذه أيضاً مستقلة في كتاب نشرته مكتبة الصحابة في طنطا سنة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م. وليس عليها اسم محقق.

٢ ـ الآراء الفلسفية في الموت وفي علاج الخوف منه وفي رفع الأوهام عنه، وفي رحمة وجوده، وفي أن الحياة الحقيقية بعد الموت (خ).

في نحو ٢٨ صفحة من القطع الصغير. جمعها في ١٥ ذي الحجة عام ١٣٢٢هـ.

٣ ـ الأجوبة المرضية عما أورده كمال الدين بن الهمام على المستدلين بثبوت سنة المغرب القبلية.

ألفه في جمادى الأولى سنة ١٣٢٣. دمشق، مطبعة روضة الشام، ١٣٢٦هـ، ٣٧ص.

٤ ـ **أجوبة المسائل (خ).**

جمع فيه إجابات عن أسئلة أرسلها إليه بعض السائلين بين عامي ١٩٢٩ و١٣٣٠هـ، يقع في نحو خمسين صفحة من القطع الصغير، أشار على غلافه أن هذا المجموع هو الجزء الأول. ولم يعثر على غيره.

٥ ـ **الاحتياط للخروج من الخلاف (خ).**

بضع ورقات. لم يذكر فيها تاريخاً.

٦ ـ **الارتفاق بمسائل الطلاق (خ).**

في ٢٢ ص، نجزت بين العشاءين، ليلة النصف من شعبان سنة ١٣١٤هـ. أورد فيها بعض مسائل، وهي طلاق الثلاث، وطلاق الغضبان والسكران، وطلاق النفساء والحائض والموطوءة في طهرها والحلف بالطلاق. وبيّن حكم من حرم أمته أو زوجته من متاعه وحكم الخلع ومسألة لا نكاح إلا بولي.

٧ ـ **إرشاد الخلق بعمل البرق.**

ألفه في شوال ١٣٢٩. حقق فيه موضوع وجوب الأخذ بالأخبار البرقية فيما يتعلق بالعبادات، كإثبات شهر رمضان والأعياد. وختمه بطرف تاريخية، ولطائف أدبية تتضمن مباحث عن البرق ومعناه واشتقاقه من اليونانية، وأول من استعمل الكهرباء

في المخابرة عن بعد، وكذلك معنى كلمة التلفون، وفيه إشارة إلى اللاسلكي الذي كان حديث الظهور. دمشق: مطبعة المقتبس، ١٣٢٩هـ، ١٠٤ص. وأورده استانبولي بعنوان: فتاوى الأشراف في العمل بالتلغراف.

٨ ـ إزالة الأوهام بما يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي همَّ به عليه الصلاة والسلام (مفقود).

٩ ـ الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس.

نجز تأليفه في جمادى الأولى ١٣٣٢هـ. ولعله آخر مؤلفاته، إذ توفي بعده بأيام. وغاية هذه الرسالة صيانة أعراض المسلمين، وتنزيه أنسابهم وتحرير موضوع الحلف بالطلاق. طبع في دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٣٢هـ، ٤٠ ص مع كتاب المسح على الجوربين. وعني بتصحيحهما أخوه قاسم خير الدين. كما طبع في مصر، ١٣٧٧هـ، وعمان: دار عمار، ١٩٨٨، ٦٤ص.

١٠ ـ الإسراء والمعراج.

نجز تأليفه عام ١٣٢٩. روى فيه قصة الإسراء والمعراج بالاعتماد على الكتاب والسنة قاصداً الابتعاد عن المبالغات والأحاديث الموضوعة. ومال إلى أن الإسراء كان بالجسد والمعراج بالروح. دمشق، ١٣٣١هـ، ٣٢ص.

١١ ـ إصلاح المساجد من البدع والعوائد.

نجز في ذي الحجة ١٣٣٠. أحصى فيه أكثر البدع الشائعة في

المساجد لعصره، وبيّن تاريخ تسربها، ودعا للامتناع عنها. ولم يقتصر كلامه على مساجد الشام بل جمع إليها مساجد البلاد التي زارها. والكتاب يعد اليوم صورة صادقة للحياة الاجتماعية والدينية التي كانت عليها دمشق لعهده، وكثير من هذه الصور التي في الكتاب قد اختفى اليوم، فبقيت مادته مفيدة للتاريخ. القاهرة: المكتبة السلفية، ١٣٤١هـ، ٣١٩ص. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٦م، ٢٧٩ص.

١٢ ـ أعداء الإصلاح (مقالة).

نشرت في المقتبس مج ٦/ ٧٣٧ ـ ٧٤٠ دون إمضاء. ونسبها إليه مفهرس المجلة رياض مراد. تحدثت المقالة عما يلاقيه المصلحون من أعدائهم.

١٣ ـ إعلام الجاحد على قتل الجماعة المتمالئة بالواحد (خ).

في نحو ١٣ صفحة. تبحث فيما يسمى اليوم بجهالة الفاعل. وهي جواب سؤال أرسله رئيس محكمة استئناف الجزاء بدمشق في ٢٤ جمادى الثانية ١٣١٩هـ يسأل علماء الشام عن جماعة تعمدوا قتل شخص، فصوبوا إليه بنادقهم، وكانت من نوع واحد في آن واحد. وما أمكن تعيين الرصاصة التي سببت القتل. فما تفصيلات حكم قتل الشخص المذكور؟ وكتب الجواب في ١٠ رجب ١٣١٩.

١٤ ـ إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية.

رسالة في حكم طلاق الغضبان. عني القاسمي بإخراجها. القاهرة: مطبعة المنار، ٤٨ص.

١٥ ـ إفادة من صحا في تفسير سورة والضحى (خ).

في ثماني صفحات من القطع الصغير. أتمها في ٢٩ ذي الحجة ١٣١٤هـ.

١٦ ـ إقامة الحجة على المصلي جماعة قبل الراتب وأقوال سائر أئمة المذاهب.

أنجزه في ١٧ جمادى الثانية ١٣٢٢هـ. ألفه بعد تعرض الباغين عليه في إمامة الناس. وفي آخره بحث من عشرين صفحة دافع فيه عن رأيه، وصور حال الجامدين وما يلقى منهم المتنورون داعياً إلى تآلف الأمة. دمشق: مطبعة الصداقة، ١٣٤٢هـ، ٧٢ص. القاهرة: المكتبة السلفية، ٧٦ص.

١٧ ـ الأقوال المروية فيمن حلف بالطلاق في قضية (مفقود).

١٨ ـ الأنوار القدسية على متن الشمسية (خ).

في ٢٧٦ صفحة من القطع المتوسط. شرح فيه القسم الأول من كتاب الشمسية في المنطق. فرغ منه ليلة الخميس ٢٠ جمادى الأولى ١٣١٢هـ.

١٩ ـ أوامر مهمة في إصلاح القضاء الشرعي في تنفيذ بعض العقود على مذهب الشافعية وغيرهم.

لم يذكره ابنه. دمشق: مطبعة الترقي، د.ت.

٢٠ ـ الأوراد المأثورة.

نجزت في ٢٧ شوال ١٣١٩هـ. اقتصر فيها على ما صح عن

النبي ﷺ. وهي رد على كتب في موضوعها بعيدة الصلة عن السنة المطهرة. قدم لها بمقدمة تتضمن فضل الذكر والدعاء. وأتبعها ببحث في أهم آداب الدعاء المروية. بيروت، ١٣٢٠هـ. ٦٤ص. دمشق: شاهر السمان، ١٩٦٩.

٢١ - إيضاح الفطرة في أهل الفترة (خ).

في ٦٠ص. فرغ منه عام ١٣١١هـ.

٢٢ - بحث في جمع القراءات المتعارف (مفقود).

٢٣ - بديع المكنون في مسائل أهل الفنون (خ).

جزآن؛ الأول في ٢٢٨ص من القطع المتوسط، والثاني في ١٥٤. يضم «فوائد علمية قل أن يظفر بها أحد إلا بعناية المولى الصمد» كما قال في المقدمة. وأكثر موضوعاته في تصحيح العقيدة، وفيه قليل من الأدب واللغة. ابتدأ بجمعه في ذي القعدة ١٣١٣هـ.

٢٤ - بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم (خ).

وصف فيه رحلته إلى قضاء وادي العجم (وحاضرته بلدة قطنا) لما عُيّن للتدريس فيه خلال شهر رمضان ١٣٠٩هـ. التزم في الكتاب السجع. وضمنه روائع مما قيل من الشعر في شهر رمضان للأقدمين والمتأخرين. أحصى الكتاب مشاهير من جميع القرى والمناطق التي وعظ بها. وأوضح التقسيمات الإدارية للوادي المذكور في عصره. فرغ من تبييضه في ١٣ شوال ١٣٠٩هـ. وعلى غلاف الكتاب تسعة أبيات للشيخ محمد المبارك في تقريظه.

٢٥ ـ بيت القصيد في ترجمة الإمام الوالد السعيد (خ).

في نحو ١٣٨ صفحة. منها ٢٣ في ترجمته والباقي في شعره، وضمنه ما قيل في رثائه والتعزية به. أنهى جمعه في ٥ شوال ١٣١٨هـ. وعلى الكتاب شطب وإضافات وهوامش، تدل على أنه أعاد النظر فيه بعد التاريخ المذكور.

٢٦ ـ تاريخ الجهمية والمعتزلة.

ألفه ليسد ثغرة في هذا الموضوع، إذ إن شرّاح كتاب التوحيد والرد على الجهمية في صحيح البخاري موجز حوله، وليس بين الأيدي تصنيف يجمع تاريخهم. نشر الكتاب أولاً مقالات متسلسلة في مجلة المنار مج ١٦، ثم في صيدا، ١٣٢٠هـ، ٨٤ص، القاهرة: مطبعة المنار، ١٣٣١هـ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م.

٢٧ ـ تاريخ رحلتي إلى المدينة المنورة.

في ١١ص. أوردها ابنه ظافر في كتابه [١٦٥ ـ ١٧٥] نقلاً عن مذكراته. وقد استغرقت ١٦ يوماً بدءاً من ٢٤ ربيع الأول ١٣٢٨. ذكر فيها أهم الأحداث التي مرت فيها إلا أنه اختصرها جداً لانشغاله فيما يبدو بإنجاز تفسيره «محاسن التأويل» عما سواه.

٢٨ ـ تعطير المشام في مآثر دمشق الشام (خ).

في ٤ أجزاء كبيرة. وهو تاريخ حافل، شرع فيه عام ١٣٠٨هـ وأتمه عام ١٣١٩هـ. ضم تراجم من دخل دمشق قبل الإسلام وبعده، استغرقت جزءين في أكثر من ٥٠٠ ص، وذكر في الجزء الثالث أمراءها بعد الفتح وغرائب الأنباء منذ فتحها إلى عهد

المؤلف، وتناول أبواب المدينة وتاريخ قلعتها ومشاهير جوامعها ومدارسها، وكذلك زواياها وخانقاتها ومستشفياتها ودور كتبها وصناعتها وأوقافها القديمة وميراثها ومناراتها وساعتها الغريبة ومواسمها الطبيعية وزراعتها وغير ذلك. وخصص الجزء الرابع لمتنزهاتها ورياضها وعيونها وجناتها وبعض ما قيل من شعر فيها. وقد اعتمد في معلوماته على أكثر من خمسين كتاباً في التاريخ، كان معظمها مخطوطاً لعهده. وفي معرض حديثه عن زراعة الشام يشير إلى السماد الكيميائي وأنواعه كالفوسفوري والبوتاسي، ويرى ضرورة استعمال الآلات الميكانيكية في الحرث والحصاد. كما يشير إلى الآفات وطرق مكافحتها.

٢٩ ـ تعليقات على أوائل سنن أبي داود (خ).

في نحو ٢٢ص من القطع الكامل. لم يعرف تاريخه، ورجح ابنه أنّ أكثرها كتب قبل عام ١٣٢٠هـ.

٣٠ ـ تعليقات على حصول المأمول لصديق حسن خان (خ).

لم يذكره ابنه.

٣١ ـ تفسير آية: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات**..﴾ الآية (خ) (الأحزاب ٧٣) في ٣ص. وهو تلخيص لمذاكرة جرت حولها في ١٤ ربيع الأول ١٣٢٤هـ.

٣٢ ـ تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب.

جمع فيه ١٠٣ قاعدات لتفريق الواجب عن غيره كيلا يصطبغ المباح بصبغة الواجب، رداً على خصم ادعى وجوب شيء غير

واجب. مصر: مطبعة مدرسة والدة عباس، ١٣٢٦، ٧٠ ص.

٣٣ ـ تنبيه الغمر في ردّ شُبَه طهارة الخمر.

رسالة ألّفها قبل عام ١٣١٣هـ، وكانت معه حينما سئل في المحكمة في حادثة المجتهدين عن قوله بطهارتها، وقد دفعها إلى هيئة المحكمة. قال: «وقد أحرقتها بعد ذلك، لأني لم أرتضها أسوة بما رجعت عنه».

٣٤ ـ تنوير اللب في معرفة القلب.

مقالة كتبها في ربيع الثاني ١٣١٥هـ. نشرتها جريدة الشام، ع٦٢، ٣ ص.

٣٥ ـ ثمرة التسارع إلى الحب في الله تعالى وترك التقاطع (خ).

في نحو ٦ ص من القطع الصغير. جمعها في ١٩ شوال ١٣١٣هـ.

٣٦ ـ جدول في مخارج الحروف وصفاتها (مفقود).

٣٧ ـ الجواب السني عن سؤال السيد أحمد الحسني (خ).

في ٢١ص من القطع المتوسط. شرح فيه بحثاً موجزاً للمذكور في منسوخ القرآن الكريم. على غلافه الأول تقريظ بخط محمد مرتضى الحسني في ١٤ ذي القعدة ١٣١٤هـ، وفي نهايته تقريظ آخر لعبد الرزاق البيطار في ربيع الأول ١٣١٥هـ. فرغ من جمعه في العشر الأخير من رمضان ١٣١٤هـ.

٣٨ ـ جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل (مقالة) نشرت في مجلة المنار (انظر مج١٧، ج٨/ ٦٢٨).

٣٩ ـ جواب المسألة الحورانية (خ).

في ١١ص. ويتضمن الحديث عن شبهة الجبرية وعما قيل: إن لسان الحقيقة يعذر الخليقة، إذ هم صائرون إلى مشيئته تعالى، فهم مجاز لأقداره». وقد وجه إليه هذا السؤال لما قضى عيد الأضحى في حوران عام ١٣١٤هـ. وأتبعه بفصل في الرد على مذهب المعتزلة الذين يقولون: «إن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة العبد وحدها» ٤ص. وقد كتب الجواب في المحرم ١٣١٥هـ.

٤٠ ـ جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب.

أنجزه في شعبان ١٣٣١هـ بعد أن بدأ به عام ١٣٢٢هـ، وأعاد النظر فيه مرات. قال فيه عبد القادر المغربي: «إنه شجرة أثمار، بل كنز نضار، من أنفع الكتب التي نحتاج إليها معشر العرب في نهضتنا الحاضرة، وخير ما يقتنيه الآباء والأمهات، وجميع القائمين على تربية الأحداث والناشئين، كما أنه أحسن الكتب التي يجب أن توضع بين أيدي الفتيان والفتيات».

وتحدث الكتاب عن أدب النائب في مجلس المبعوثين، فهو «لا يطلب بين خزائن النقود ولا من وراء سجوف النعمة ورغد العيش، فإن من ترفع عنك لا يهبط إليك» واشترط للنائب أن يكون ضليعاً في الحقوق، عارفاً لحركة المجالس النيابية عند الأمم الراقية، مدركاً علائق حكومته بحكومات أوروبا، وما نالته منا من امتيازات، وأن يكون قادراً على الاستخراج من كتب السياسة والإدارة والقضاء بإحدى اللغات الأجنبية. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٣٩هـ،

١٥٠ص. القاهرة: مطبعة المؤيد، ١٩١٤م، ٣١١ ص. القاهرة: المطبعة العربية ١٩٢٦م، ١٥١ ص.

٤١ ـ الجوهر الصاف في نقابة الأشراف (مفقود).

٤٢ ـ حاشية على الروضة الندية، شرح الدرر البهية لصديق حسن خان (خ).

علقها على نسخة هذا الكتاب المطبوع في المطبعة العصرية عام ١٢٩٦هـ. وقال في ختامها: «تم إقراء وتصحيحاً وتعليقاً في مجالس متفرقة من أعوام مضت، كان آخرها بعد عصر الأربعاء ١١ شعبان ١٣٢٨هـ في حجرتنا بمدرسة عبد الله باشا العظم بدمشق الشام».

٤٣ ـ حسن السبك في الرحلة إلى قضاء النبك (مفقود).

ألفه بعد رحلته إليه سنة ١٣١٠هـ لإلقاء الدروس في رمضان من تلك السنة بتكليف من الحكومة.

٤٤ ـ حياة البخاري.

نشر أولاً في مجلة العرفان سنة ١٣٣٠. ثم طبع في صيدا: مطبعة العرفان، ١٣٣٠هـ، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٢م، ١٠٨ص.

٤٥ ـ درء الموهوم من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم (خ) في ٥ص. رسالة كتبها عام ١٣٢٠.

٤٦ ـ دلائل التوحيد.

نجز عام ١٣٢٦. ذكر فيه أدلة التوحيد وبراهين النبوة ومعجزات القرآن الكريم وإعجازه. قال المؤلف يصف كتابه:

«تفرغت فيه للرد على الدهريين الذين كثروا في مصر والهند وأطراف سورية، وأضحوا يبثون شبههم بواسطة كثير من المؤلفات الأجنبية والمجلات النصرانية. وقد بحثت عمن ألف وأشبع الكلام في الرد على هؤلاء الطبيعيين فلم أعثر، ولكن الباريء تعالى أعاننا. والله يعلم ما عانيت ونقبت حتى يسر بفضله هذا الكتاب، وقد حججتهم بما يعترفون. وذلك أنني نقضت كلامهم بكلام الفلاسفة الذين يعولون عليهم. ونقلت كثيراً من كلام شيخ الإسلام وابن القيم كما ترونه. وبالجملة فهو كتاب بحمده تعالى مفيد في هذه الأوقات فائدة عظمى» (من رسالته إلى محمد نصيف، من كتاب ابنه ظافر، ٥٩٢).

وفي الكتاب حصيلة وافرة من علوم المؤلف كالفلك والجغرافية والجيولوجيا والنبات. وفيه بحث نقله عن الفارابي في علم الإلهيات، ولا يتردد في الكتاب أن يقرر كروية الأرض. دمشق: مطبعة المقتبس، ١٣٢٦هـ، ٢٠٧ص. القاهرة: إدارة الطباعة الخيرية، ١٩٢٩م، ٤٦٧ص. القاهرة: جمعية النشر، ١٩٢٩م. بيروت: دار النفائس، ١٩٩١م، ٤٩٥ص.

٤٧ ـ رحلتنا إلى الأقطار المصرية.

في ٢٨ص أوردها ابنه ظافر عن مذكراته في كتابه عنه [١٣٣ ـ ١٦٠]. وقد استمرت شهراً ونصف الشهر، بدأ في غرة شوال ١٣٢١هـ، وانتهت بوصوله إلى دمشق في منتصف ذي القعدة من تلك السنة.

٤٨ ـ الرحلة إلى حمص وحماة.

أوردها في مذكراته على نحو مختصر، واقتطع منها ابنه نتفاً في كتابه عنه. بدأت في ١٧ ربيع الأول ١٣٢٥هـ، واستمرت إلى أواخره.

٤٩ ـ رد على مسيحي يزعم أن نعيم الجنة روحاني لا جسماني (خ).

في ٣ص. كتبها بعد أن سمع شاباً في إحدى قرى الغوطة يقول حينما زارها في ١٣ صفر ١٣٢٣هـ: إن راهب المدرسة التي يتعلم فيها، ألقى خطاباً ادعى فيه أنّ نعيم الآخرة للروح وحدها.

٥٠ ـ رسالة في أوامر من مشايخ الإسلام (مفقودة).

٥١ ـ رسالة في علم الأصول (خ).

في نحو ١٠٠ص من القطع الكامل. جاء في مقدمتها: «اقتصرت فيها على لباب اللباب، نسجتها على منوال جديد، دعاني لجمعها ما رأيت في مصنفات هذا الفن من الدخيل». وتضمنت مباحث في الفتيا والاجتهاد وغيرها. أرخ نهاية مقدمتها في ٩ جمادى الثانية ١٣٢٣هـ.

٥٢ ـ رسالة في المسح على الرجلين (مفقودة).

٥٣ ـ رفع المناقضات بين ما يزيد في العمر وبين المقدرات (خ)

في نحو ١٠ص من القطع الصغير. ليس فيها تاريخ.

٥٤ ـ زبدة الأخبار في ولدان الكفار (خ).

في نحو ١٢ص.

حقق فيها الحكم الشرعي فيمن مات صغيراً وأبوه كافر، وكذلك المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة دون أن تبلغه الدعوة. قال في ختامها: «عارضتها بأصل مسودتي في سويعة بعد الجمعة في ١١ ربيع الأول ١٣١٩هـ» ولم يعرف تاريخ المسودة.

٥٥ ـ زوال الغشاء عن وقت العشاء (خ).

في نحو ١٠ ص من القطع العادي. ردّ فيها على عالم مصري قال: إن هذه الصلاة تبدأ بعد خمس وأربعين دقيقة من غروب الشمس. ألفها بعد عام ١٣١٩هـ أو خلاله.

٥٦ ـ السطوات في الرد على من منع العشاء قبل الصلوات (خ).

٥٧ ـ السفينة (خ).

في ٨٠ص من القطع الصغير. قال في بدايتها: «هذه السفينة مجموعة من الفوائد اللطيفة والمسائل الشريفة بخط الفقير محمد جمال الدين أبي الفرج عفي عنه سنة ١٢٩٩هـ». وتضم في الصفحتين الأوليين أبياتاً متفرقة لشعراء مختلفين. ثم الصفحات الباقية حكم ونوادر ووصايا ونصائح أخلاقية وأحاديث شريفة وفوائد ومسائل وألغاز، شعراً ونثراً. جمعها من أكثر من عشرين من الكتب الأمهات.

أقول: وكان الدمشقيون يسمون الدفتر الرقيق القليل الصفحات

سفينة. ولعل المؤلف يقصد ذلك. أو أنه شبهها بالسفينة لأنها تضم أشياء مختلفة متنوعة.

٥٨ ـ سؤال مستشرق وجواب حكيم (خ).

في نحو ٢٦ص من القطع المتوسط. تناول هذا الكتاب الذي هو أشبه بمحضر جلستين حواراً على طريقة السؤال والجواب يتضمن الموضوعات التالية: ـ كيف وجدت المذاهب، وما سبب اختلافها وتنوعها؟ ـ المجتهدون وتنوع المذاهب، ـ هل يوجد كتاب في تشكيل المذاهب، ـ كيف يجوز أن يقول القاضي: قضيت بهذا على مذهب الشافعي مثلاً، وهو حنفي أو مالكي، ـ لماذا قيّد القضاء بمذهب أبي حنيفة؟ ـ من هم الرفاعية والقادرية؟

قال ابنه: «الظاهر أن هذا العنوان ليس من وضع المؤلف، لأنه بغير خطه، ولأنه لم يألف هذا الأسلوب من التسمية، ولا أن ينسب لنفسه الحكمة. حدثني تلميذه الشيخ حامد التقي أن مستشرقاً روسياً حضر إلى دمشق فزاره، وألقى الجواب عليه ارتجالاً، وكان الأستاذ التقي والمرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي يكتبان بين يدي المحاضر أقواله».

وفي مذكرات جمال الدين: «بتاريخ ٧ جمادى الثانية ١٣٢٤هـ، وفي الضحوة جاء المستشرق على عادته، وسألني عن سر تشكيل المذاهب وتعددها فأمليت عليه جملة كتبها أخي صلاح الدين، وستكون رسالة إن شاء الله مهمة».

٥٩ ـ السوانح (خ).

بدأ بها في أواخر رمضان ١٣٢٣هـ. وهي مجموعة خاطرات تتضمّن أفكاراً متنوعة الموضوعات في التفسير والتراجم والتاريخ والأدب، تحمل آراءه التي لم يكن يجرؤ على نشرها في مؤلفات، ولا سيما دعوته إلى إعمال الفكر والاجتهاد، كان يسجلها في أوراق يحملها على الدوام في جيب سترته أينما تسنح له، ولذا فكانت بعيدة عن تأنق الأساليب وعن السجع. بلغت هذه السوانح ٦٥ سانحة وفقد منها ١٩. وقد أوردها ابنه في كتابه عنه [٢٦١ ـ ٣٢٧].

٦٠ ـ الشاي والقهوة والدخان.

رسالة نجزت في ٧ صفر ١٣٢٢هـ. ذكر ما يتعلق بأسماء هذه المواد وصفاتها النباتية واجتنائها، وما قيل فيها من الشعر ومضارها وأحكامها الشرعية. دمشق، ١٣٢٢، ٥٥ص.

٦١ ـ الشذرة البهية في حل ألغاز نحوية وأدبيـة.

مجموعة شعرية تتضمن الألغاز المذكورة. طبعت في دمشق، ١٣٢٢هـ مع كتاب الطائر الميمون.

٦٢ ـ شذرة من السيرة المحمديـة.

نجزت منتصف شوال ١٣٢١هـ في الجامع الأزهر. وهي مولد شريف ألفه بالاعتماد على الكتاب والسنة، وقصد فيه الابتعاد عن المبالغات والخرافات التي ملأت كتب المتأخرين عن السيرة. وفي الكتاب فصلان، أحدهما في إعجاز القرآن، والثاني في غرر الوصايا

النبوية. وفي آخر الرسالة فوائد عن أصل قصة المولد، والتحذير من البدع في مجامع تلاوته، والقيام عند ذكر الولادة، وفيمن أحدث المجتمع للمولد. القاهرة: مطبعة المنار، ١٣٢١هـ، ٣٦ص.

٦٣ ـ شرح أربع رسائل في الأصول.

الأولى لابن فورك الشافعي (ـ ٤٠٦هـ)، والثانية لابن عرب (ـ ٦٣٨هـ) من الفتوحات المكية، والثالثة من شرح نجم الدين الطوفي (ـ ٧١٦هـ) على الأربعين النووية، والرابعة من كتاب النقاية لجلال الدين السيوطي (ـ ٩١١). بيروت، ١٣٢٤، ٨٠ص.

٦٤ ـ شرح لقطة العجلان.

نجز في أربعة أشهر، آخرها منتصف ربيع الأول ١٣٢٥هـ. واللقطة جمع فيها بدر الدين الزركشي مبادىء أربعة علوم هي الأصول والمنطق والحكمة والكلام. القاهرة: مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، ١٣٢٧هـ، ١٧٠ص.

٦٥ ـ شرح العقائد (خ).

في نحو ٢٢١ص، أبحاث ودراسات مستفيضة ومناقشات بعض الفرق الإسلامية والرد عليها. والكتاب خلاصة علمه في التوحيد والكلام. ألفه أواخر حياته، وابتدأ جمعه في جمادى الأولى ١٣٣٠هـ.

٦٦ ـ شرح لباب المحصول في علم الأصول لابن رشيق (خ).

أصل الكتاب مخطوط، وهو اختصار لكتاب المستصفى للغزالي. انتهى القاسمي من تعليقه بدمشق في منزله عام ١٣٢٧هـ.

٦٧ ـ شرح مجموعة ثلاث رسائل في أصول التفسير والفقه.

الأولى في أصول التفسير للسيوطي، وهي أهمها. جاء في المقتبس ٨/ ٢١٤: «لأنه لم يسبق إلى الآن [١٣٣١هـ] في الأيدي متن أو رسالة تحوي لباب ما يبحث في التفسير إلا هذا الذي انتخبه القاسمي من نقاية السيوطي». والثانية في أصول الفقه لابن حزم. والثالثة مجمع الأصول ليوسف ابن عبد الهادي. دمشق: مطبعة الفيحاء، ١٩١٢م، ٦٣ص.

٦٨ ـ شرف الأسباط.

وضعه لبيان أن شرف النسب ينتقل من الأمهات مثلما ينتقل من الآباء، ولا فرق بينهما، واعتمد في ذلك على أدلة من الكتاب والسنة واللغة وأقوال الفقهاء. وتضمن الكتاب بحثاً بيولوجياً في آثار الوراثة. وأعقبه ذكر نسب المؤلف مع ترجمة لمشاهير رجاله. دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٣١، ٨٨ص[١].

٦٩ ـ شمس الجمال على منتخب كنز العمال (خ).

في نحو ٢١٤ص من القطع الكامل. وهو حاشية على «منتخب

(١) وذكر ظافر، ٦٧٥ أنّ لأبيه كتاباً مخطوطاً بعنوان نسب السادة القاسميّة يتضمن تماماً ما في كتابه شرف الأسباط وأنه نجز عام ١٣٣١هـ في ١٥ المحرم. أقول: لعله هو نفسه، ولكنّه غيّر عنوانه عند طبعه. قال: وفي آخره تواقيع أعلام العصر الذين اطلعوا عليه. وإلى مثل هذا أشار السيد رشيد رضا في ترجمته للقاسمي في المنار مج ١٧، ج ٧/ ٥٥٨.

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي». فرغ من تعليقها غرة محرم ١٣١٦هـ.

٧٠ ـ الطالع السعيد في مهمات الأسانيد (مفقود).

هو ثبت أسانيده عن مشايخه، وقد أشار إليه في إجازته لتلميذه حامد التقي فقال: «وقد استقصيت من رويت عنه واستجزت منه ودخلت في عموم إجازته مع بدائع التسلسلات ونفائس الاتصالات في ثبتي الذي سميته الطالع السعيد في مهمات الأسانيد، فليرجع إليه وليعول عليه».

٧١ ـ الطالع المسعود على تفسير أبي السعود (خ).

شرع به في رجب ١٣١٥، ولم يكتب منه إلا ٣٨ص. قال في مقدمته: «هذه كلمات وجيزة على تفسير العلامة أبي السعود، حوت تخريج آثاره مما تدعو إليه الحاجة. والذي حداني إلى خدمة هذا التفسير الجليل أني رأيته أنقى ديباجة وأخلص ألفاظاً وأشد انسجاماً في إيضاح التنزيل، فترى عبارته جوهراً صافياً ونسقاً مطرداً ضافياً، لا يتوقف دونها الفهم ولا تجهد عندها رويّة ذي العلم.. بل كسي من وشي البيان ما صار به نسيج وحده في تفاسير القرآن».

٧٢ ـ الطائر الميمون في حل لغز الكنز المدفون.

رسالة ألفها عام ١٣١٣هـ، وشرح فيها لغزاً وضعه أحد الأدباء عن الماء. طبع مع كتاب الشذرة البهية، دمشق: مطبعة روضة الشام، ١٣٢٢هـ، ٢٤ص.

٧٣ ـ طراز الخلعة في حل قول الرملي: وأقسام الاسم تسعة (خ).

في ٦ص. نجزت في ٧ ربيع الثاني ١٣٠٥هـ. وأعاد النظر بها في ٥ ربيع الأول ١٣١٤هـ.

٧٤ ـ العقود النظيمة في ذكرى مولد النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة ومحاسن شريعته القويمة (خ).

جمع فيها ثلاث قصائد للبوصيري والقيرواني وعائشة الباعونية، منها نسخة في مكتبته بخط تلميذه محمد بهجة البيطار، كتبت في ٩ ذي الحجة ١٣٣٠هـ.

٧٥ ـ غنيمة الهمة في كشف الغمة (خ).

في نحو ١١٥ص. شرح فيها كتاب كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني. وصل فيه إلى بحث «كتاب الطهارة وأحكام المياه» ولم يتم عمله، ولذلك فليس على النسخة تاريخ. يرجح ابنه أنه شرع فيه قبل عام ١٣٢٠هـ، وأعاد النظر عليه بعده.

أقول: وهو الكتاب الذي سئل عنه في محاكمته بالقضية المسماة حادثة المجتهدين ولذا فلعله بدأه منذ عام ١٣١٣هـ وهو عام المحاكمة المذكورة.

٧٦ ـ فتاوى مهمة في الشريعة الإسلامية.

هذا عنوان كتيب ضم عدداً من الفتاوى والمباحث في المحاكم العثمانية والمصرية ومباحث في الإصلاح الإسلامي لعدد من

العلماء، وأدرج ضمنه رسالة في يسر الشريعة الإسلامية للقاسمي. مطبعة المنار، ١٣٣١هـ.

٧٧ ـ الفتوى في الإسلام.

كشف فيه عن منشأ الفتوى وحالها في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام وما بعدها، ومن كان يتولاها، وما اشترط في أولي الفتوى.. وذيّله بمباحث متنوعة ضافية. وأشار في الكتاب إلى مباحث مهمة كحاجة المفتين إلى العلوم الرياضية، ووجوب تولية الأكفياء، والعقل والعلم. وتعرض العلماء للأذى، وإفساد السياسة للعلم والعلماء، نشر أولاً في مجلة المقتبس مج٦ على أجزاء متتابعة عام ١٣٢٩هـ، ثم طبع في دمشق: مطبعة مجلة المقتبس، ١٩١١م، ٧٦ص.

٧٨ ـ فصل الكلام في حقيقة عود الروح للميت حين السلام (خ).

في نحو ١٧ص. فرغ منها في ٥ ربيع الأول، ١٣١٤هـ.

٧٩ ـ الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين.

أنجزه عام ١٣٢٠هـ. وهو شرح الأربعين حديثاً العجلونية. قال في مقدمته: عنّ لي أن أكتب شرحاً عليها، يوضح ما تدعو إليه حاجة الواقف لديها من شرح بعض أحاديثها الشريفة وذكر تراجم أرباب المسانيد المنيفة، وضبط ما أبهم من أسماء الرواة وسوق فوائد ولطائف عن الثقات، وبيان بعض أوهام سرت للمصنف من عثرات الأفهام..» بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣م، بتحقيق عاصم

البيطار، وأعيد طبعه عام ١٩٨٦م، ٥٢٧ص، وعام ١٩٨٨م.

٨٠ ـ في رحلتي إلى البيت المقدس.

في ٢٢ص أوردها ابنه في كتابه عنه [١٠٣ ـ ١٢٤]. وقد استمرت أربعين يوماً من صباح ٢٩ محرم ١٣٢١هـ حتى مساء ٨ ربيع الأول من السنة المذكورة.

٨١ ـ قاموس الصناعات الشامية.

في جزءين، بدأ تأليفه محمد سعيد القاسمي والده، وكان سماه «بدائع الغرف في الصناعات والحرف» ورتبه على حروف المعجم، ووقف فيه عند حرف السين، فأكمله ولده جمال الدين، وزوج ابنته خليل العظم. وجمال الدين هو صاحب فكرة الكتاب، أشار به على أبيه[1] ولعله رأى أباه مطلعاً على الحياة اليومية، لديه معارف خشي أن تضيع فأحب أن يسجلها في كتاب. والكتاب يصف ٤٣٧ حرفة عرفتها دمشق. باريس: المدرسة العملية للدراسات العليا، ١٩٦٠، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٨، ٥٣٥ص + ٣٩ص باللغة الفرنسية بقلم ابنه ظافر للتعريف بالكتاب.

---

(١) عندما أشار جمال الدين على أبيه بتأليف قاموس الصناعات قال له والده: وكيف أبدأ؟ قال له: تستأجر دابة وتركبها إلى البوابة (جنوب الميدان) وتحمل في جيبك دفتراً وقلماً، وتنزل عن دابتك، ثم تسير على جانبي الطريق حتى تصل إلى شمالي المدينة وتسجل أسماء الصناعات والحرف، ثم تشرع في دراستها والبحث عنها، وبهذا يتم كتابك.. وذلك ما كان. ولكن المنية فاجأته قبل أن ينهي عمله. قاموس الصناعات ١/ ٢٧ ـ ٢٨.

٨٢ ـ قواعد أصولية (خ).

في ٣ ص. ليس عليها تاريخ.

٨٣ ـ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث.

نجز في ١٩ ذي الحجة ١٣٢٤هـ. لخّصه من عدة كتب معتمدة. دمشق: مكتب النشر العربي ١٣٤٢هـ = ١٩٣٥م، ٤١٤ص. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م، ومكتبة عيسى البابي الحلبي، ١٩٨٩م. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٩ و١٩٨٧م، ودار النفائس، ١٩٨٦م. وكلها بتحقيق محمد بهجة البيطار.

٨٤ ـ قواعد تفسيرية (خ).

في نحو صفحتين. لم يذكر لها تاريخاً.

٨٥ ـ كتاب الأولياء (خ).

في نحو ١٥ص. ألفه عام ١٣٢٤هـ بعد بحث في حقيقة الولي، جرى في مجلس ضم عدداً من العلماء ومشايخ الصوفية.

٨٦ ـ كتاب دون عنوان ولا تاريخ (خ).

في ٥٦ ص. يحتوي على موضوعات خطيرة، تعالج عدداً من القضايا المهمة كالعقيدة والاجتهاد وشؤون المجتمع الإسلامي. نقل فيه عن مجلة المنار وجريدة ثمرات الفنون، واقتبس فصلاً عن الشيخ محمد عبده، نشر في الجريدة المذكورة. والكتاب من ٤٢ فصلاً.

٨٧ ـ كناشة (خ).

في ٤٢ص من القطع المتوسط. تضم فوائد متنوعة في الفقه والحديث والأدب والتاريخ وتراجم لأعلام عصره ومراسلات بين علماء معاصرين. بدأ في جمعها كما ذكر على غلافها يوم الثلاثاء ١٥ محرم ١٣٠٧هـ. ونصفها أوراق فارغة تدل على رغبته في إضافة أبحاث أخرى عليها.

٨٨ ـ الكنى والألقاب (مقالة).

نشرت في مجلة المقتبس مذيلة بتوقيع «أحد قراء المقتبس» في مج ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢. وقد أشار إليها هو في مذكراته في رجب ١٣٢٥هـ. وهي بحث لطيف جداً في تاريخ الكنى والألقاب ونشوئها وطريف ما قيل فيها وما اختلف في لقبه وكنيته.. فلما قرأها الأمير شكيب أرسلان كتب عليها مستدركات وتتمات جاءت في مقال آخر نشرته المقتبس أيضاً ٢/ ٤١٧ ـ ٤١٨ ذيله بالحرف «ش».

٨٩ ـ الكواكب السيّارة في مدائح الفوّارة (خ).

جمع فيه ما قال المولدون والمتأخرون في الفوارة. نجز ١٣٠٩هـ.

٩٠ ـ الكوكب المنير في مولد البشير النذير (خ).

مختصر مولد عائشة الباعونية. يخلو تقريباً من الغلو والأوهام التي اعتاد عليها الناس في قراءة الموالد المألوفة آنذاك. فرغ منه في ربيع الأول ١٣٠٦هـ.

٩١ ـ لزوم المراتب في الأدب مع الإمام الراتب (خ).

٩٢ ـ اللف والنشر في طبقات المدرسين تحت قبة النسر (خ).

ذكر ابنه أنه من كتبه المفقودة. واطلعت على صورة من رسالة له باسم «نتيجة الفكر فيمن درس تحت قبة النسر» في ٧ ورقات. وهي كما يبدو مسودة عليها تشطيبات تحتاج إلى تبييض، وفي آخرها نظم يتضمن أسماء المدرسين المذكورين في ٢١ بيتاً. وليس على الرسالة تاريخ. ولعل هذه الرسالة هي أصل الكتاب المشار إليه.

٩٣ ـ ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير (خ).

رسالة فرغ منها عام ١٣٢٠هـ، أثنى عليها عميد كلية الطب بدمشق عزة مريدن.

٩٤ ـ مجموع متون أصولية.

اختارها لحاجة الطلاب إليها، وتشتمل على مختصر المنار لزين الدين الحلبي الحنفي (ـ ٨٠٨هـ) والورقات لإمام الحرمين الجويني الشافعي (ـ٤٧٨هـ)ومختصر تنقيح الفصول لشهاب الدين القرافي المالكي (ـ ٦٨٤هـ) وقواعد الأصول لصفي الدين البغدادي الحنبلي (ـ ٧٣٩هـ).

كتب القاسمي لصديقه محمد نصيف حول هذه المتون: «إني نظرت، فرأيت أكثر الكتب المتداولة [في علم الأصول] صعبة تكاد تكون كالألغاز، ولا ثمة متن بقرب المتناول للمبتدىء، فبذلت من الجهد في التنقيب ما الله به عليم، حتى ظفرت بهذه المتون الثلاثة. وإن كانت الورقات شهيرة منها لكنها غير كافية، إلا إذا ضم إليها ما يفوقها في التوسع. وقد عانيت في المتن الرابع مشقة زائدة» اهـ.

دمشق: مطبعة محمد هاشم الكتبي، ١٥٠ص.

٩٥ ـ مجموعة خطب.

نجزت في شهر رمضان ١٣٢٥هـ، جرّد فيها كثيراً من خطب الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، وأضاف إليها أخرى مقتبسة من الخطب النبوية وخطب الصحابة ومشاهير الأئمة في مباحث متنوعة. موضوعها العقائد والعبادات والمعاملات والشمائل والأوامر والزواجر والآداب والأخلاق والمواعظ وأحوال المعاد. صدره بمقدمات حول الهدي النبوي في الخطبة وما يكره فيها وحكم تعدد الجمعة وكيف كانت طلائع الخطب النبوية، قال في المقدمة: «ظفرت بحمده تعالى بخطب لعهد سنة ٦٥٣هـ، وديوان كان يخطب به في مصر عام ٧٧٢هـ، وآخر يرجع لحول ٨٧٣هـ وخطب يمنية لزمن ١٠٧٩هـ فاقتبست من الجميع أهم خطبها وأعظم ضروريات فقهها وأدبها. واقتطفت من خطب المتأخرين ما وافق المشرب» وقد أُعِدَّ الكتاب لخطب الجمعة ولإخراج الخطباء من الأسلوب التقليدي وللعودة إلى طريقة السلف في الخطابة. دمشق: محمد هاشم الكتبي، ١٣٢٥هـ، ١٢٧ص. ومنه طبعة تعود لسنة ١٩٠٠م لا يعرف ناشرها ولا مكان نشرها.

٩٦ ـ مجموعة لطيفة في نصوص إجازات منيفة (خ).

في ٤٢ص من القطع المتوسط. وهي إجازاته من شيوخه، كتب على بعضها تعليقات. جمعها في رجب ١٣٢٠هـ.

٩٧ ـ محاسن التأويل «تفسير القاسمي».

اشتغل في تأليفه منذ عام ١٣١٧هـ و أتمه في رمضان ١٣٢٧هـ، ثم أعاد فيه النظر، وخصص لمراجعته موعداً ليلتين في الأسبوع حتى أنجزه عام ١٣٢٩هـ، فشطب الجزء الثاني برمته تقريباً. وفيه تفسير سورة الفاتحة وبعض تفسير سورة البقرة. وقد جرى في تفسيره هذا الذي كتب معظمه في سدة جامع السنانية على إظهار أسرار الشريعة وحقائقها على طريقة السلف، حراً دون قيد، يفسر القرآن بالقرآن وبالحديث وبأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من مختلف المذاهب؛ فنقل عن المحدثين وقدماء المفسرين والمعتزلة والزيدية والشيعة والظاهرية وغيرهم، ولم يتحرج في ذلك ما رأى الحق في أقوالهم. وذكر كل ما لابن تيمية ولابن القيم. خصص الجزء الأول لقواعد في التفسير، من أهم ما فيها كلامه عن أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقراءات والإسرائيليات وظاهر القرآن وباطنه والتفاسير المشكلة والترغيب والترهيب في التنزيل وقصص الأنبياء والحقيقة والمجاز ومعنى الأحرف السبعة، وتكرير بعض القصص ومصاحف عثمان والرسم العثماني وأصح التفاسير عند الاختلاف، وغير ذلك. قال عبد الله الغماري في كتابه بدع التفاسير ص ١٦١: «تفسير القاسمي لا بأس به يميل إلى وضوح العبارة وتبسيط البحث الذي يتعرض له، مع جنوح إلى الاجتهاد والاستقلال في الرأي، وقد ينساق مع الإسرائيليات أحياناً. وحين أريد تقديمه إلى المطبعة أشرف على طبعه شخص في عقله شيء. زرته مرة ببيته، فأطلعني على نسخة التفسير بخط القاسمي، سلمها إليه ابنه ليشرف على

طبعها، فإذا هو قد ضرب بالقلم الأحمر على بحث النسخ الذي ذكره المؤلف عند قوله تعالى: «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها» فسألته عن سبب شطب هذا البحث، فقال: لأنه لا يليق بمقام القاسمي الذي كان يسميه الشيخ رشيد رضا: عالم الشام، فحذفته وحذفت ما كان من قبيله عديم الفائدة قليل الجدوى. قلت له: لكن هذا ينافي الأمانة العلمية. فقال: التفسير لم يطبع قبل الآن، ولا أحد يعرف ما حذف منه. ونجل المفسّر ـ وهو نقيب المحامين بدمشق ـ أباح لي التصرف فيه حسبما أراه مصلحة، وهذه البحوث لا تليق بالقاسمي وبشهرته العلمية. قلت له: اتركها كما كتبها المؤلف، وعلق عليها برأيك، فأبى، وأصر على حذفها. وبناء على هذا فالتفسير المذكور ناقص في عدة مواضع. وهذه خيانة علمية ما كان ينبغي أن تحصل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

٩٨ ـ محاورة في الفونوغراف (خ).

في نحو ١٥ص. وهي مراسلات جرت بين القاسمي وأبي طالب الحسني الجزائري عام ١٣٢٢هـ. جمعها أخوه قاسم القاسمي.

٩٩ ـ مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن.

تفرغ له مدة منقباً في الأسفار النافعة القديمة والحديثة وجمع شتاته من عشرات المصنفات. نشر أولاً في مجلة المقتبس مج ٥ على أجزاء. ثم طبع في دمشق: مطبعة المقتبس، ١٩١٠م، ٥٠ص.

١٠٠ ـ مسائل الإظهار (خ).

وهو شرح لكتاب إظهار الأسرار في النحو لمحمد بن بير علي الشهير ببركلي. منه نسخة خطية في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي برقم ٤٨٣٠ في ٣٠٦ص أكثرها بياض، وهي من خزانة كتب الشيخ محمد بهجة البيطار التي آلت للمركز المذكور.

١٠١ ـ المسح على الجوربين.

رسالة وضعها في مجالس، آخرها ربيع الثاني ١٣٣٢هـ. دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٣٢هـ مع كتاب «الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس» ٦٤ص، بتحقيق قاسم خير الدين القاسمي. القاهرة: ١٣٧٧، ٦٦ص، بتحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت وعمان: المكتب الإسلامي، ٩٦ص بتحقيق أحمد محمد شاكر. ومعه تمام النصح في أحكام المسح لناصر الدين الألباني. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧١م. بيروت ودمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٦م.

١٠٢ ـ المسند الأحمد على مسند الإمام أحمد (خ).

في ٦٨ص، فرغ من تأليفه في ٦ ذي الحجة ١٣١٣هـ، وهو تعليقات وجيزة على الكتاب.

١٠٣ ـ مفكرات القاسمي (خ).

هي مذكرات يومية أقدمها يعود إلى عام ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م، تتنوع موضوعاتها بين الأمور الشخصية المتصلة بحياة القاسمي اليومية وبين الحوادث التاريخية والاجتماعية التي مرت بها البلاد.

كما أن فيها نقولاً عن بعض الأئمة والصحف والمجلات والكتب وتسجيلاً لأحداث وقعت لرجال العصر، ووصف لبعض سياحاته ومقابلاته لرجال عصره. نقل ابنه ظافر مختارات منها في كتابه عنه ٣٢٨ ـ ٣٧٧.

١٠٤ ـ منتخب التوسلات.

جمعه عام ١٣١٥هـ، وهو متمم لكتابه «الأوراد المأثورة»، وهدفه إبعاد الناس عن كتب الأدعية الآخذة من غير السنة التي اشتهرت بين العامة. دمشق، ١٣١٨هـ، ٢٨ص.

١٠٥ ـ المنتزه الأرفع في الفصول الأربع (خ).

كتبه عام ١٣٠٩. جمع فيه ما وقع عليه في مدح الفصول الأربعة وذمها شعراً ونثراً.

١٠٦ ـ موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين.

من جزءين، أنجز الأول ختام عام ١٣٢٣هـ، والثاني في ربيع الثاني عام ١٣٢٤هـ. اختصر فيه كتاب الغزالي باقتراح الشيخ محمد عبده الذي رأى أنه من أحسن الكتب لفائدة العامة بشرط تجريده من الواهيات. وقد قرر تدريسه في عدد كبير من المدارس والكليات الشرعية في العالم الإسلامي. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٢٣هـ، مصر، ١٣٣١هـ، ٤٠٤ص، بتحقيق محيي الدين صابر الكردي. وبيروت: دار العلوم الحديثة، [١٩٧٥]. والطبعات التالية كلها بتحقيق عاصم البيطار: بيروت، ١٩٨٠م، ٤٢٢ص. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٠م، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٦م،

بيروت: دار الدعوة، ١٩٨٦م. ويرجح أنه طبع أكثر من ذلك[1].

١٠٧ ـ ميزان الجرح والتعديل.

سبق للقاسمي في كتابه حياة البخاري أن بحث في تخريج البخاري عمن رمي بالابتداع، ثم تراءى له أن يوسع هذا البحث، فألف هذا الكتاب الذي فرق فيه بين الاجتهاد والرأي، وبين التكفير والتفسيق وما إليهما. نشر أولاً في مجلة المنار مج١٥، ٨٥٧ ـ ٨٧٤، ٩١٢ ـ ٩٢٠، ثم طبع في مطبعتها، ١٣٣٠هـ، ٤٠ص.

١٠٨ ـ النفحة الرحمانية. شرح متن الميدانية.

شرح المتن المذكور في التجويد، وضم إليه فيما بعد تكملة في آداب التالي والتلاوة. ألفه لما كان طالباً يتردد على شيخ القراء أحمد الحلواني الكبير. وعرضه عليه فاستحسنه وقرظه (تاريخ علماء دمشق ١/ ٨١).

١٠٩ ـ نقد النصائح الكافية.

ألفه في ٢١ رمضان ١٣٢٧هـ. وسببه أن محمد بن يحيى بن عقيل وضع كتابه «النصائح الكافية لمن يتولى معاوية» جرّحه فيه ورهطه ورأى تعديلهم غلطة وزلة، وبنى عليه جواز سبّ معاوية رضي الله عنه. فرد القاسمي عليه بهذا الكتاب الذي أنصفه فيه وأعطى له ولعلي رضي الله عنه حقوقهما. وهو يدور حول مسألة

---

(١) ذلك لأنّ جهة في أندونيسيا بعد اثنتين وأربعين سنة أرسلت إلى ورثة القاسمي تستأذن في طبعه (ظافر، ٦٨٠).

خطيرة تتعلق بالمروي عن بعض الصحابة المتنازع عليهم في الرأي. دمشق: مطبعة الفيحاء، ١٣٢٨هـ، ٤٨ ص.

١١٠ ـ هداية الألباب لتفسير آية «وطعام الذين أوتوا الكتاب» (خ).

في ٨ص. كتبها في ١٦ رجب ١٣١٤هـ.

١١١ ـ الوعظ المطلوب من قوت القلوب (خ).

في ٢١٤ص من القطع العادي. وهو مختصر كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي. فرغ منه يوم الأبعاء ١٩ شعبان ١٣٣١هـ في قرية جب جنين في البقاع، أيام تجوله في بعض قراه ترويحاً لنفسه من مرض ألم به.

١١٢ ـ وفاء الحبيب وعده بإيضاح جهة الوحدة (خ).

رسالة جمعها من تقرير شيخه بكري العطار وإملائه. كتبها يوم عاشوراء عام ١٣١٠هـ.

١١٣ ـ ينابيع العرفان في مسائل الأرواح بعد مفارقة الأبدان (خ).

في نحو ٢٠ص، اقتبسها من كتاب الروح لابن قيم الجوزية. فرغ منها في آخر رجب ١٣١٤هـ.

ثالثاً ـ أدبــه:

١ ـ شعره:

ما أظن أحداً ممن ترجم للقاسمي يعده شاعراً بين الشعراء وإن كانت له منظومات لطيفة المعنى أنيقة الصور. كما لا أظن أحداً منهم يعده كاتباً أديباً، مع أنّ له كتابات مستملحة، فيها أدب جم، وصياغة حلوة رائقة.

نظم الشيخ أشعاراً قليلة لا تخرجه عن طبقة شعراء الفقهاء والعلماء، وسال قلمه بعبارات مستعذبة لا تدخله في جمهور الكتاب الأدباء.

ولقد تتبعت ما له من كلام موزون ومنثور أعرضه هنا استكمالاً للموضوع، ورصداً لما خلّف من آثار.

فمن أجمل منظوماته قصيدته التي نظمها في الحرم القدسي الشريف عام ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م يعبر فيها عن مشاعره ويذكر جوى قلبه تلقاء الذكريات التاريخية للحرم، ويشير إلى الحجرة الخنشنية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي وقد نزل فيها خلال تلك الرحلة إلى القدس وإلى المكتبة الخالدية:[١]

أيها الزائر بيت المقدس ... يبتغيه بعد شق الأنفس
احمد المولى بما أولى إذا ... ما بدت أعلام نور القدس
وأقم في الحرم الأسمى على ... طاعة والذكر وقت الغَلَس
وابتهل لله في جنح الدجى ... وأسل دمعك كالمبتئس

---

(١) ظافر، ١١٣ ـ ١١٤.

وتجرد فيه عن كل الذي يظلم القلب كلهو المجلس
وتضرع ثم لا تنس نصيـ ـبك من صخرته في الحندس
يا له من موطن طاب بمعـ ـراج طه منه نحو الأطلس
حبذا معبد ذكر وتقى لصفاء القلب أبهى مؤنس
يذهل العاكف في هيكله عن حلى ربة ثغر ألعس
فاكحل الطرف بمرآه وجا فِ عيوناً كحلت بالنعس
كم به ليلاً أناب الأنبيا ونهاراً في حياة الأنفس
وكفى أن خيرة الخلق دعي ليلة الإسرا لذاك الأقدس
كل من لم يأته من بعد ما لاحت الفرصة أدنى بئس
يا بنفسي حجرة جانب منـ ـبره تزهو بروض السندس
أصلها زاوية أنشأها ملك الفضل صلاح المقدس
صاحب الأنس دعاها الخنشنيـ ـة في تاريخه للقدس
فاعتكف فيها لدى شباكها وانتشق ما فاق نفح النرجس
وإذا ما شئت تجوالاً فسر لسنا مكتبة واقتبس
كُتْب آل الخالديْ أنعمْ بها مورداً للفضل منه فاحتسِ
من أتى منهلها العذب يرى منه بالي فهمه فضلاً كُسي
هكذا فليأتسي من كان يطـ ـلب مجداً هكذا فليأتسي
غرسوا في القدس فخراً باهراً ورثوه عن كرام المغرس
فجزاهم ربنا خير الجزا ما سرى ركب لأرض المقدس

ولقد كان موفقاً في اختياره لحرف السين المكسور الذي يناسب الهمس في موقف المناجاة والرقة، ولئن حسن مطلع القصيدة وراق من خلال الدعوة إلى الابتهال والتضرع إلا أن فيها أبياتاً

متفاوتة تقعد عن بهاء أوائلها.

ومن رقيق شعره قوله:[1]

ياقلب صبراً على هجر الحبيب ولا
تيأس من الوصل إن الله ذو فرجِ
لك التأسي بمن ذاق الهوى ولوى
عنه الحبيب وقد أضناه وهو شجي

وقوله:[2]

فرقُ الجميلِ على برقِ الجبين علا
وعنبر الخال عن بر الوصال خلا
مسكيُّ شعرٍ وتركي اللحاظ فكم
ببارق الجيد منه البرق قد خجلا
ياقوتُ مبسمِه يفترُّ عن درر
لا عيب فيه سوى كون اللمى عسلا
هيفاءُ قامتُه، وطفاءُ مقلته
حسناءُ طلعتُه كالبدر مكتملا
لو أن بدر الدجى وافاه مبتسماً
لظل منكسفاً من حسنه وجلا
لو أن ريم الربى لاقاه ملتفتاً
لسار مندهشاً من خصره ثملا

---

(١) حلية البشر ١/ ٤٣٦.
(٢) حلية البشر، المرجع السابق.

ذاك الفـريـد الـذي مـا مثلـه رشـأ
قد راش من لحظه سهماً به قتلا
مهفهف العطف زاهي الطرف أحوره
كم جاد ظرفاً ولكن بالوفا بخلا
يا منية القلب ما للصبِّ عنك غنى
فإن عطفت فحظ العبد قد كملا

ويتأثر القاسمي عندما يحترق الجامع الأموي عام ١٣١١هـ = ١٨٩٣م فينظم قصيدة على الرجز يصف فيها ما جرى فيقول:[١]

حمـداً لِمَـنْ أحكـامُـه العليَّـةْ ... تُصانُ في الوصفِ عنِ العليَّةْ
سبحـانَـهُ مِـنْ قَـادرٍ مُقتَـدرٍ ... يَفْعَـلُ مَـا يُـريـدُ في البرَيَّـةْ
فـلا مَـرَدَّ لأمـورٍ شـاءَهـا ... وهـي بغَيـبِ علمِـهِ مَقْضيَّـةْ
ثُـمَّ صَـلاتُـهُ عَلى خَيرِ الـوَرَى ... سيـدِ أهـلِ الفضـلِ وَالمَـزيَّـةْ
محمَّـــدٍ أمين وحيـــهِ على ... أسرارِهِ السَّـاميـةِ الغَيْبيَّـةْ
كذا على الأصحَابِ والآلِ مَدى الـ ... أزْمـانِ في الصَّبـاحِ وَالعَشيَّـةْ
وبعدَ ذا تاريخُ حادثٍ أتى ... على دمشـقَ البلـدةِ المحميَّـةْ
خطبٌ كبيرٌ حلَّ في أرجائِهَا ... فعظُمَـتْ مِـن هَـوْلِـهِ الـرَّزِيَّةْ
ثاني ربيع يومَ سبتٍ ضَحْوةً ... في سـاعـةٍ مشـؤومـةٍ رَديَّـةْ
بِسنْـةِ ألْـفٍ وثـلاثِ مِئـةٍ ... من بعدِ إحدى عشْرَةٍ هجريَّةْ
وذلـكَ احتراقُ أبهى جـامـعٍ ... قـد شـادَهُ قِـدْماً بنـو أميَّـةْ
أتَـتْ على جميعِـهِ النـارُ فمـاً ... أبقـتْ لـه مـن حُسْنِـهِ بَقِيَّـةْ

---

(١) انظر كتاب حريق الجامع الأموي، ١٤ وما بعد.

أسبابُها من نارِ صَانِعٍ غدا ... يـرُمُّ سَقْفَ الجِهَـةِ الغَـرْبِيَّـةْ
وزُلْـزِلَـتْ أركـانُـه لَمّا دهـت ... مـن بعـدِ بِنْيَـةٍ لهـا قَـوِيَّـةْ
كـذا مَقـامٌ للحصـورِ المُجْتَبـىٰ ... ذُوْ الحسـنِ والنَّضـارةِ البَهِيَّـةْ
كـذلـكَ المنبرُ والسُّـدَّات والـ ... ـأبـواب والمـآثـرُ السنيَّـةْ
فأين ما كان به من صُحُفٍ ... وتُحَـفٍ نفيسـةٍ زهيَّـةْ
كـذا دكـاكينٌ ودورٌ حـولَـهُ ... مـن صوبِ سُوقٍ للقَبَـاقِبِيَّـةْ
لا حبذا ضحوةُ يومٍ أوضحَتْ ... هَـوْلاً تـرى النُّهـىٰ بِـه شجيَّةْ
فلو رأيتَ النَّاسَ حينَ أبصروا ... مـا كـادَ يحكـي فجعـة المنيَّـةْ
وكلُّهُـمْ مستسلـمٌ ينـدُبُـه ... بعَبْرَةٍ لِعبرَةٍ هَـوْلِيَّـةْ
واأسفا لقدْ دَهَانَا ما دهىٰ ... بليـةٌ مـا مثلهـا بليَّـةْ
وهذهِ الدَّاهِيَةُ العُظْمى التي ... أتَـتْ لـهُ بهـذهِ الكيفيَّـةْ
أعظَمُ من حريقِهِ الذي مضى ... عليْـهِ مـن سنين غـابـريَّـةْ
فمـرةً في عـامِ ستين وإحـ ... ـدى بعـد أربـعْ مِئـةٍ جليَّـةْ
كـذاكَ في عـامِ ثمـانِ مِئـةٍ ... بعـد ثـلاثٍ وهـي التيموريَّـةْ
وفي ثمـانِ مئـةٍ بعـد اثنتيـ ... ـنِ وثمـانين أتَـتْ قضيَّـةْ
حكى النُّعَيميْ والإمامُ الذهبي ... وغَيرُهُ نُصُـوصَهَـا النقليَّـةْ
لكنْ لهُ الأُسْوَةُ فيما قد جَرَى ... بمسجـدِ المـدينـةِ الـزكيَّـة
إذ أسقطَـتْ صـاعقـةٌ أركـانَـهُ ... وشَمِلَـتْ للحجـرَةِ العَلِيَّـةْ
والمنبر الـذي عليـهِ المصطفـى ... كـان يبـثُّ الخُطَـبَ الشَرعيَّـةْ
في عـام أربـعٍ وخمسينَ وستـ ... ـمئـة فَيـا لهـا رَزِيَّـةْ
وذاكَ في أخبـارِ مصرَ نصُّـهُ ... مِـن جُمْلَـةِ العَجَـائـبِ المرويَّـةْ
وكم مصائبٍ مضتْ على الورىٰ ... تَحَـارُ في أوصـافِهـا الـرَّوِيَّـةْ

هذا وبعضُ مَنْ لَهُ فَهْمٌ عَلا وفطنـــةٌ ثـــاقبـــةٌ ذَكِيَّـــةْ
قَدْ قَالَ ذاكَ حِكمةً من ربِّنَا ورأفـــةً ونِعْمَـــةً مُخْفِيَّـــةْ
فمذْ تَداعَىٰ لِلسُّقُوطِ بَعْضُهُ وَقَـدْ غَـدَا في حَـالَـةٍ وَنِيَّـةْ
اِقْتَضَتِ الحكمةُ أن يُؤْتَى عَلَىٰ عَـاطِلِـهِ وتَسْلَـمَ البَقِيَّـةْ
فَـإِنَّ مَبْنَاهُ قَديـمٌ قـد مَضَتْ عَلَيْـهِ أهـوالٌ بِـلا كميَّـةْ
زلازلٌ صَـواعِـقٌ مُـدْهِشـةٌ شُهْـرَتهـا عـن شرحِهَـا غَنِيَّةْ
وكمْ ترىٰ من نِقْمةٍ في طَيِّها لِمَـنْ دَرَاهَـا نِعمـةٌ حفيَّـةْ
وكلُّ نَفَسٍ ما وعَتْ لحكمةٍ تجريْ بِلا رَيْـبٍ هي الغبيَّةْ
ورُبَّمـا يكـرهُ شخصٌ حـالـةً بـاطِنُهـا نُعمـىٰ لـه محبيَّـةْ
وفي عسىٰ أنْ تكرهوا شيئاً لنا مـوعظـةٌ في الـذِّكْـر قـرآنيَّةْ
فغـايـةُ الكمـالِ أن ينظـر في سر سَنَـا المظـاهـرِ الكـونيَّةْ
فنسـألُ المـولىَ بـأنْ يشمَلَنَـا بحسْـنِ ألطـافٍ لـه خفيَّـةْ
وأن يُعيدَ الجامعَ الشريفَ للـ ـتَّقـوىٰ وللعبـادةِ المـرضيَّـةْ
فـإنَّ هـذا بيتُـه لِـدِينِـهِ مـؤسَّسٌ لا يـرتضي الـدنيَّةْ
وإنَّـهُ في جِلَّـقٍ أكمـلُ جـا مـعٍ بِـهِ المشـاعـرُ الـدينيَّـةْ

فهذه قصيدة للتاريخ أكثر منها للشعر، عجزت عن حمل مشاعر الشيخ المتدفقة المتأثرة ولا شك بما حدث، إلا أنها لم تقو على تصوير هول الموقف والخسارة الكبيرة التي لحقت بالجامع. خاصة وأنه يخرج بنا عن جو الشعر، فيشير إلى ما قال النعيمي في كتابه الدارس والذهبي في تاريخ الإسلام حول المسجد. وإن كان اعتمد على الهاء الساكنة في روي القصيدة التي لم تستطع أن تبث في مشاعرنا ما فيها التولّه والتحسّر. . والتأوه.

ولئن هزته الفتنة التي سماها حادثة المجتهدين وشعر فيها بالظلم والافتراء.. فإنّ مشاعره لم تسعفه بالتعبير الذي يلهم الشعراء عادة في مثل هذه الظروف، وإنما قال أبياتاً دون مستوى تلك الحادثة بكثير[1]، تحدث فيها عن مذهبه السلفي:[2]

زعـــم النـــاس بـــأني ... مـــذهبـي يـدعـى الجمـالي
وإليـــــه حينمـــــا أفـ ... ـتي الـــورى أعـــزو مقـــالي
لا وعمـــــر الحـــــق إني ... سلفــــــي الإنتحــــــال
مـــذهبـــي مـــا في كتـــاب ... الله ربي المتعـــــــــالي
ثـــم مـــاصـــح مـــن الأخـ ... ـبـــار لا قيـــل وقـــال
أقتفــــي الحـــــق ولا أر ... ضـــى بـــآراء الـــرجـــال
وأرى التقليـــــد جهـــــلاً ... وعمـــىً في كـــل حـــال

وقال في هذا المعنى:[3]

أقـول كمـا قـال الأئمـة قبلنـا ... صحيح حديث المصطفى هو مذهبي
أألبس ثوب القيل والقال بالياً ... ولا أتحلى بـالـرداء المـذهـب

وقال في ذلك:[4]

زعموا بأن من اقتفى الآثارا ... أولى الذين تقدموا الإنكارا
كلا فأجرُ الاجتهادِ لهم سوى ... متعصـــب يتـــأوّل الأخبـــارا

---

(١) انظر تفصيلات الحادثة في ظافر، ٤٣ ـ ٦٩.
(٢) استانبولي، ٨٧؛ المنار، مج١٧، ج٨/ ٦٣٣؛ حلية البشر، المرجع السابق.
(٣) المنار، المرجع السابق؛ حلية البشر ١/ ٤٣٧.
(٤) حلية البشر، المرجع السابق. المنار، المرجع السابق.

وله أشعار في المدح، منها ما بعث به إلى محمد عبد الحي الكتاني يقول:[1]

لله دَرُّ فتـىً أحْيـا معـالمـه ... فحيثُ سار يرى للعِلْم تابعه
غدا مثالَ الهدى والمكرماتِ فمن ... يقفـوهُ في هَـدْيـهِ فـالله نـافعـه
مثل الإمامِ المفدّى السيد الحسني الـ ... ـكتاني من في المعالي ضاء لامعه
محمد وهو عبد الحيّ بدر تقى ... سليلُ مجدٍ كبير الصيت ذائعه
لم أنسَ لما بدا في الشام كوكبه ... وآنس الكلَّ والإقبالُ تابعه
لله أوقاتُ أنْسٍ في زيارته ... لنا وما قد صفت منها مجامعه
وسَعْيُنا لجلا مرآهُ في نُزَهٍ ... يضوعُ عن عرفها الفواح ضائعه

وكتب الأبيات التالية في رسالة بعث بها إلى عبد الحفيظ الفاسي سنة ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م يثني عليه فيها:[2]

سلام على ذي الأنس واللطف والود ... جليل المزايا في الإخا صادق الوعد
أديب وفي قد سما ذروة العلا ... شمائله في الظرف أربت على العد
حبانا كتاباً طال عنا احتجابه ... كما طال ليل المغرمين ذوي الوجد
وضن على المضنى بحسن وصاله ... كما ضن بالأوقات ذو اللب والجد
وما كان في الحسبان حجب سنائه ... وعهدي بأهل الود أن يحفظوا عهدي
ولكنه لم ينس بل كان حافظاً ... ولا عجب فالسر للاسم في المجد
لكل مسمى فاق حظٌ من اسمه ... وللخدن أوفى الحظ منه مع السعد
وما تنزل الأسماء إلا من السما ... فتنظم في أشكالها الغر كالعقد

---

(١) فهرس الفهارس ١/ ١٤.
(٢) معجم الشيوخ، ١/ ١٨٢.

فلا زال حفاظ العهود مواصلاً   أخلاءه دوماً على القرب والبعد
ففي صلة الأحباب كم عائد له   فوائد لا تخفى وما الوصل كالصد
حنانيك ما هذا التقاضي له سوى   فضول فإن الفضل منه بلا رد
ومن يبدأ بالإحسان قبل طلابه   ويخطب إخوانا فذلك ذو الحمد
فلا زال إخوان الصفا لهمُ الوفا   ولا برحوا أهل الكمال أولي الأيدي

وكتب إلى أحد أصدقائه ولعله الشيخ عبد الرزاق البيطار بالأبيات التالية، يطمئن فيها عن صحته. يجرب فيها ملكته اللغوية ومحفوظاته. أوردها بخطه:

يا من له اعلى القدم ١   مكرمة من القُدَم ٢
ومن بميدان العلو   م لا يجاريه القَدَم ٣
محسوبكم يسال عن   مزاج صحة القدم ٤
فطمنونا بالجوا   ب فهو من ابهى القدم ٥
لا زلتمُ في صحة   وموردًا لذى القدم ٦
ما فاح زهر المسك من   روض البويضا والقدم ٧

١ الشرف   ٤ الرجل   ٧ القرية
٢ السابقة   ٥ المعروف   قاموس وشرحه
٣ الشجاع   ٦ الكثير الخير   بزيادة الأخير

جمال الدين
٢٠ جمادى الاولى ١٣١٧

(البويضا قرية قرب بلدة القدم) فهذه الأبيات للتملح والتفكه، وهي درس في اللغة لا في الشعر. وهذا ما عُرف به العلماء.

ومن نظمه ما كتبه في مفتتح كتابه دلائل التوحيد:

أدلة في وجود الحق قاهرة راحت لها شُبَهُ الإلحاد منكسرة
الحق يعلو ولا يعلى عليه فمن ناواه كانت جنود الله منتصره

فانظر إلى الشطر الأخير من البيت الثاني وما فيه من تكلف بيِّن في تركيب الجملة.

وقال يثني على معجم مختار الصحاح:[1]

لمختار الصحاح على الألبا عوارفُ حُقَّ أن ترعى وتشكر
فإن كان الصحاح له أياد فللمختار فضل ليس ينكر

وقال في الكتب:[2]

جزى الله عنا الكتب خيراً فإنها
تنم أحاديث الحبيب بلفظه
فموقعها أحلى من الماء للذي
به ظمأ وقت الهجير وقيظه

ولم يخرج القاسمي على قلة شعره عن ذوق عصره بل العصر الذي سبقه، عندما أولع الشعراء والناظمون بالألغاز والمعميات، فجرب فيه قلمه، وكتب ملغزاً إلى خلّه الشيخ عبد الرزاق البيطار:[3]

يا من لحل عويص المشكلات درى وبحر آدابه يروي لنا دررا

(١) حلية البشر ١/ ٤٣٨؛ استانبولي، ٨٧.
(٢) حلية البشر ١/ ٤٣٥.
(٣) المرجع السابق ١/ ٤٣٧.

ما اسم له أحرف تسع بظاهرها | وتلك عشر إذا حققتها نظرا
أضحى مسماه ذا شأن له شرف | بأهله فغدا في الأرض مزدهرا
فتاجه علم في الأرض منتشر | والثان تصحيفه بعض البلاد يرى
واثنان أوله فعل وقد أتيا | لاسم الحكيم الذي في الحذق قد مهرا
ثلاثة أول منه أتت علماً | للعود واسماً لضد الجور قد ظهرا
تصحيف ثالثه مع تلوه أتيا | خلاف علم وفناً نفعه اشتهرا
وثالث منه يأتي مثل خامسه | ورابع منه يحكي سابعاً ذكراً
وبعضه الظبي إنْ صحفته وإذا | تركته فهو ممّا في الشتا كثرا
وختمه هين في قلبه عمل | فجد بمعناه يا شهماً جلا الفكرا

فأجابه البيطار على العادة في ذلك متتبعاً وزنه وقافيته، فقال:

ياذا الجمال الذي في اللطف قد بهرا | وزادنا من سنا إيناسه غررا
ألغزت فيما علا قدراً ومرتبة | ورمت ما يزدري في حسنه القمرا
إن الذي رمته قد حاز أوله | قرآننا يدر هذا من قرا ودرى
ذا أعجميٌ خلت عن مثله لغة الـ | ذين فاهوا بما أهل النهى سحرا
لكن من رام يدري حسن بهجته | لابد من نية في ختم ما ذكرا

وآخر ما نورد له منظومته في مدرسي قبة النسر ألحقها في ذيل رسالته عنهم. ولم يجانف فيها أسلوب العلماء المعروف في منظوماتهم:(1)

---

(1) من صورة مخطوطة محفوظة لدينا.

الحمد لله رب العالمين على | جميل احسانه سبحانه وعلا
ثم الصلاة مع التسليم يتبعها | على نبي زكا اصلا وطاب علا
محمد من سما قدرا على العظما | من النبيين والاملاك والفضلا
صلى عليه اله العرش ما رشحت | افكار اهل النهى نظما حلا وغلا
ووشيت بسطور المسك اطرسهم | وارخت السادات والنبلا
وبعد ان رمت تحقيق الاولى قروا | درس البخاري على ترتيب مشتملا
من تحت قبة نسر الجامع الاموي | اكرم به جامعا في خلق جملا
فالاول الشمس بالميداني مشتهر | فالنجم سيدنا الغزي بعد تلا
ثم السعودي ابنه الشيخ الهمام كذا المحاسني اقرا اشهرا وما اكتملا
وبعده درس البطيني عمدتنا | والحصكفي علاء الدين بعد علا
لكنه عزل المذكور ثم قرا | علامة الزمن العيثاوي من كملا
وبعده رجع الدرس الشريف الى العلامة الحصكفي من بعد ما عزلا
وبعده يونس الحبر الهمام قرا | وبعده الشيخ اسمعيل من فضلا
وبعده صالح الجيني قدوتنا | وبعده احمد الحبر المنيني تلا
ثم العلي الداغستاني استمر الى | ان جاءه فالج في جسمه نزلا
فعند ذاك اناب الكزبري الى | جاءه هادم اللذات فانتقلا
فوجه الدرس للعطار ذي شرف | محمد لم يدرس قط بل رحلا
وقد اناب الهمام الشيخ يوسف ثم | يدعى بشنبل الى ان مات وارتحلا
وبعده الكزبري الشمس سيدنا | ثم ابنه عبد الرحمن قرا وعلا
ثم ابنه الشيخ عبد الله ثم اخوه الشيخ احمد من في عصره نبلا
ثم السليم قرا من بعد والده | وهو الختام ~~[illegible]~~ وفيت النظام وفيه العقد قد كملا

٢ ـ نثــره:

أما نثر القاسمي فكان أطوع طواعية، وأرشق في التعبير حين تسوقه عاطفته الجياشة التي تغلفها أفكاره الحرة، فيسير هوناً في عبارة لطيفة، يستعمل لها ألفاظاً تناسبها، يوفي بها على الغاية المرجوة، ويصل إلى هدفه، ويعبر عن نفسه التعبير الحر. قال في معرض قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] «دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية اتقاء بأس العدو وهجومه. ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام كان الإسلام عزيزاً عظيماً أبي الضيم قوي القنا جليل الجاه وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقاباً متتالية، وهم سادة الأمم وقادة الشعوب وزمام الحول والطـول وقطـب رحـى العـز والمجـد، لا يستكينـون لقـوة، ولا يرهبون لسطوة.

«وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضاً من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض. ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني. وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة وذخائر الحرب، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو؟ أما آن لها أن تنتبه من غفلتها، وتنشىء معامل

لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى عليها تنقُص العدو بلادها من أطرافها درساً يجب أن تتدبره وتتلافى ما فرطت به قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله، فيقضي والعياذ بالله على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار واستعباد الأحرار ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار»[1].

وقد يستعمل السجع في كتاباته، تمشياً مع أسلوب العصر وروحه، وهو في ذلك معذور، إلا أن سجعه هذا سجع مقبول لا يزري به تكلف ممجوج، وإنما ينساب على شيء من رشاقة حلوة؛ قال يصف البلاغة العربية:

«العرب فرسان الكلام وأرباب النظام، وقد خُصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب. وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديهاً في المقامات وشديدِ الخَطْب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويصغون فيأتون بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآلي فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب. ويذهبون الإحن ويهيجون المدمن، ويجرئون الجبان، ويبسطون يد الجعد بالبنان، ويصيرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً، منهم البدوي ذو

(١) محاسن التأويل ٨/ ٣٠٢٥.

اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع القوي. ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق الرقيق الحاشية»[1].

ومن كتاباته اللطيفة قوله يصف الحق وصفاً مؤثراً، يسوقه في نص يرجع إلى سنة ١٣٢١هـ:

«الحق ضالة العقل التي ينشدها، ونجعته التي يرتادها، وإنما تتفاوت العقول في معرفة الحق تفاوتها في مراتب الرقي، وتتباين في تعيينه تباينها في العلم. لهذا لا تجد قائلاً قولاً أو منتحلاً نحلة أو مرتئياً رأياً، إلا ويزعم أنه على حق. ومن ثم كان من العدل ألا يؤخذ على قائل ظن أنه على حق إلا إذا قامت الأدلة وتجلت البراهين على أنه غير الحق، وأصر على ما قام في نفسه، مع وضوح أنه على غير حق.

لما كان الحق في بادىء الأمر يصادم الأسماع مصادمة، ويقارع النفوس مقارعة فالصادع به ربما قدم رجلاً وأخر أخرى اتقاء المؤاخذة من عمرو والانتقاد من بكر. عادة ألفها الناس في مقابلة كل قول جديد، لم تألفه النفوس ولم تدمن عليه الأسماع»[2].

---

(١) المرجع السابق، ٢/ ٧٥.

(٢) ظافر، ٣٦٨_٣٦٩.

٣ ـ مراسلاتــه:

هذه قطعة من رسالة كتبها إلى أبيه سنة ١٣٠١هـ درج فيها على أسلوب رسائل زمنه، لكنه تخلى عنه فيما بعد أو أقلل منه في رسائله لأصدقائه ومعارفه:[1]

«إن أحسن زينة تحلت بها وجنات الطروس، وأحصن تميمة حفيظة لنفائس النفوس، وألطف من منظمات اللآلي عقوداً، وأظرف من رياض الأزهار بروداً، وأزهى روضة إذا بكى الغمام عليها، تبسم ثغر زهرها، وأبهى حديقة طابت روائح نشرها، قد هزّ الشمال أطيارها فصدحت، وحرك النسيم أزهارها فنفحت، حمدَ الله على نعمه التي لا يداني جودها غمام، ولا يقارب حسن مواقعها تبسم زهر من ثغر أكمام، مع تحيات تفاوح نسمات الروض المطور، وتسليمات تصافح جنات أفنان فنون الزهور.

«وبعد فإن العبد ينهي غراماً لم يزل يحركه عامل الاشتياق، ويهيجه ساكن الأشواق. قد جمع الشوق قلبه ولكن جمع تكسير، وخفضه البين ولبه ولم يغنه التحذير، وضمت جوانحه على الود الصحيح السالم، وتحصنت أحشاؤه عن دخول الجوازم. تنازع في جفنه عامل الوجد والسهر، وهذا هو الحال فلا تسأل عن الخبر...».

الفقير خادمكم والمرتجي لدعائكم في كل حال

محمد جمال الدين

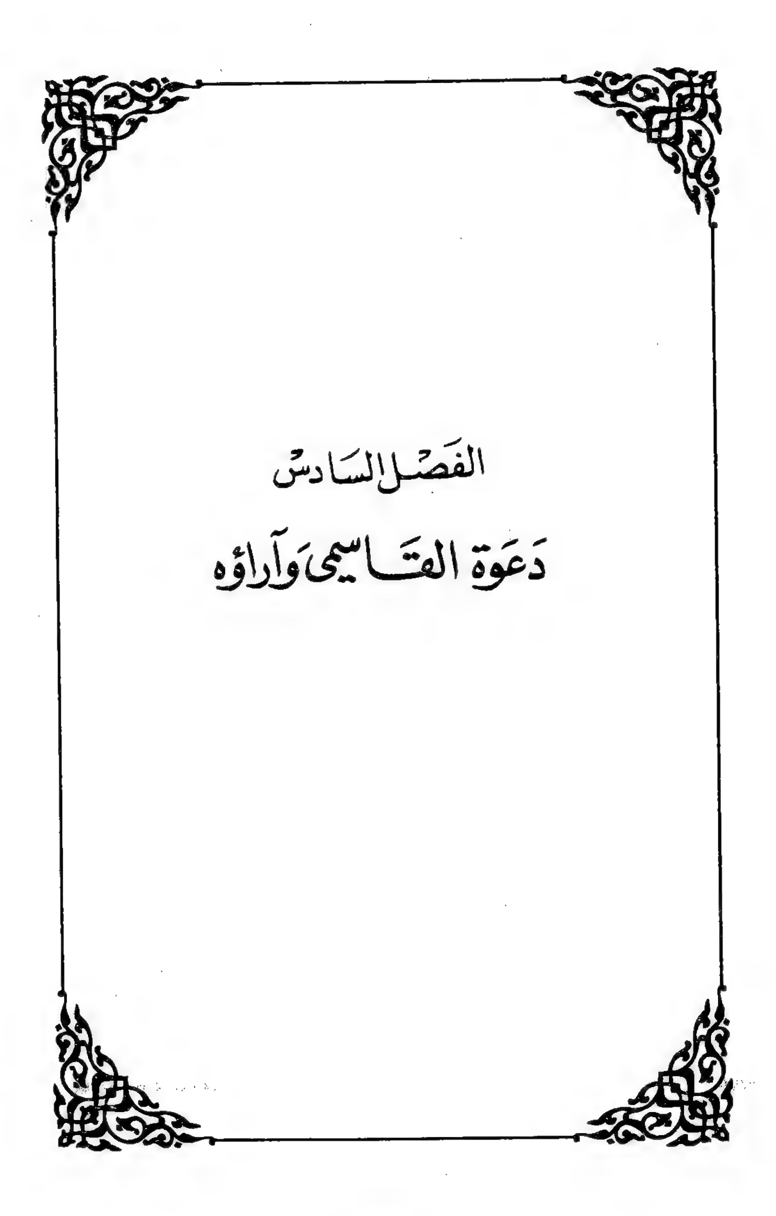
(١) ظافر، ٥٨٤. وانظر نماذج رسائله في ظافر، ٥٧٩ ـ ٦٣١.

وإذن فمن خلال هذه النصوص ـ ولعلها كافية لتدل على مجمل كتاباته ـ نراه يراوح فيها بين السجع المتكلف، وغير المتكلف، وبين النثر الحر الذي يدل على تمكنه من الأساليب الجيدة التي نضج فيها قلمه في أخريات أيامه، وخاصة في كتابه محاسن التأويل، حيث نرى عبارة ناصعة بعيدة عن حوشي الألفاظ والتعقيد ملتزمة جانب الجزالة والفصاحة، تشوبها عاطفة صادقة تنزع من تأثر بالقرآن الكريم وفخامته.

ولم تخل كتابات القاسمي من هنوات لا يسلم منها كاتب مهما علا شأنه، رصدت بعضها مجلة لغة العرب العراقية في مجال التعريف ببعض كتبه وثنائها عليه.[1] وهذا لا يضع من شأن الرجل ولا مكانته خصوصاً وأنه من المكثرين.

* * *

(١) مجلة لغة العرب، مج١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢، مج٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.



الفصل السادس

دعوة القاسمي وآراؤه

دَعوة القـاسِمي وَآراؤه

لا أريد في هذا الفصل أن أتحدث عن الدعوة السلفية التي حملها جمال الدين القاسمي، إذ ليس ههنا مجال بحثها، ولكنني أريد أن أتحدث عن فكره وآرائه ودعوته إليها بأسلوبه هو، وبما يمكن أن يكون خالف بعض توجهات السلفية أو وافقها.. أريد أن أُعَرِّفَ السبيل التي سار عليها الشيخ من أجل ذلك.

والحق الذي رأيناه أن النهج الغالب على أهل العلم في دمشق قبل القاسمي كان الأخذ بأحد المذاهب المعروفة التي استقر عليها الفقه والدين، لا يخرج أحد من العلماء أو طلاب العلم عنها.

ظهر القاسمي في الشام يوم كان فيها أفراد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم عمائم العلماء وألقابهم والرواتب التي كانوا يأخذونها من أوقاف المسلمين، ولم يرثوا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئاً، فاتُّهِمَ العلم. ولم يفتهم صرف الأوقات كلها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده تبعاً للتمتع بألقابه وأزيائه ونقده؛ فكان من أكبر الخطوب عليهم أن يروا في الشام عالماً يتصدى للتدريس والتصنيف ويبين حاجة البلاد إلى الإصلاح والتجديد[1].

---

(١) المنار، مج١٧، ٧/٥٥٩ ـ ٥٦٠.

كما كان عصره عصراً كثرت فيه الطرق الصوفية كما رأينا، وقامت بجانبها الخرافات والضلالات والانحرافات. . وجمد الناس على حالة من التأخر لا يريدون الخروج عنها مع هبوب رياح التغيير من الغرب، ومع الاضطرابات في جميع جوانب الحياة العامة مثلما بيّنا ذلك في الفصل الأول.

ولم يكن قبل القاسمي في دمشق كذلك أثر للدعوة السلفية التي انقطعت بعد ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، بل إن الحنابلة أنفسهم كانوا يخشون المتعصبين على آثارهما أن يتلفوها[1]؛ فجاء جمال الدين بنغمة جديدة على المدينة تقريباً، بل على بلاد الشام، دهش لها الأهالي فضلاً على الحكومة التي أخذت تتعقبه، لا تغفل عنه البتة، تخشى أن يطلُع عليها بشيء يفاجئها، ولعلها كانت تحاذر أن يكون كجمال الدين الأفغاني الذي أنذر بثورة حقيقية، كان يلوح بها في كل بلد ينزل فيه من بلاد الإسلام أو الكفر[2]. أو لعلها خشيت من جهة أخرى أن يستقطب بدعوته الناس كما صنع محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية التي أدت

---

(١) استانبولي، ٤٧.

(٢) انظر لترجمة الأفغاني: تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٢٥ ـ ١٠١؛ جمال الدين الأفغاني لمحمد سعيد الطنطاوي (رسالة نشرتها لجنة مسجد جامعة دمشق)؛ جمال الدين الأفغاني، تاريخه ورسالته ومبادئه، القاهرة: مؤسسة نصار، ١٩٥٨م؛ جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، لمحمد عمارة، القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٤هـ؛ حقيقة جمال الدين الأفغاني، ميرزا لطف الله، القاهرة: دار الوفاء ١٤٠٦هـ.

بها هذه الدعوة إلى الثورة على الخلافة العثمانية وإعلان الحرب عليها وهددت بغزو بلاد الشام، حتى ندبت لها محمد علي باشا فدمر قرى نجد وفتك بأهلها[1].

لا أستبعد أبداً أن تكون هذه الحيثيات هي التي دعت المسؤولين آنذاك إلى تعقُّب القاسمي، لأنهم أدركوا أنّ أفكاره هذه وتوجهاته تلك وقدرته الشخصية لن تلبث أن تسير به نحو دعوة منظمة تشبه دعوات المصلحين، ولذلك فإنّ معاملة خاصة كان يؤخذ بها منذ حادثة المجتهدين عام ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م، فيحتجز من دون زملائه كلهم في السجن، لا يخرج إلا بشفاعة القاضي ووساطته. ثم تفتش كتبه بعد ذلك أكثر من مرة، ويؤخذ منها ثلاثة أكياس، ويمنع من طباعة بعض مؤلفاته.. ثم يقدّم للمحاكمة مرة أخرى بتهمة أخطر، وهي الدعوة إلى القومية والعمل على تأسيس جمعية سرية. ثم تقوم عليه فتنة شعواء منكرة بسبب اتصاله بالسيد رشيد رضا أحد جماعة الأفغاني.. كل ذلك لم يحصل لأحد غيره من علماء دمشق ولا بعضه، ولم يجترىء أحد على أحد منهم مثلما اجترىء عليه وعلى صاحبه عبد الرزاق البيطار.. على الرغم من أن بعض هؤلاء العلماء صرح بكلام خطير، كالشيخ بدر الدين الحسني الذي قال: «إن الخلافة

---

(١) انظر لترجمة محمد بن عبد الوهاب والاطلاع على دعوته وتطورها: تاريخ نجد الحديث ٢١؛ زعماء الإصلاح ١٠؛ الفتوحات الإسلامية ١/ ١٥٦ الأعلام ٧/ ١٣٧ ـ ١٣٨؛ مشاهير علماء نجد، محمد بن عبد الوهاب، لعلي الطنطاوي؛ النعت الأكمل ٣٣٥ ـ ٣٣٧.

الإسلامية صارت ملكاً عضوضاً» كما أسلفنا[1] وهذه مقالة لو قالها القاسمي لاستحق بها النفي أو الإعدام.

إذن فقد كانت الدولة العثمانية ومن شايعها من الرجال يعلمون حق العلم أنّ للرجل اتجاهاته المتميزة التي إن تركوه وشأنها فستشغل بالهم كما شُغلت مصر والجزيرة من قبل.

فكيف بدأ القاسمي أفكاره التي تميزت من أفكار علماء عصره؟ ومتى أخذ يتجه نحو السلفية؟ ومن أين جاءته هذه الأفكار؟

لا ندري على وجه التحديد متى أخذ القاسمي يتوجه إلى السلفية، ذلك الحدث الأساس في حياته، وهو حدث لم يقع بالطبع جملة واحدة أو في يوم واحد، وإنما كانت البداية على ما أظن ظناً يشبه اليقين عندما كان الفتى يسلك في طريق النقشبندية في أواخر سلوكه عند شيخه محمد بن محمد الخاني. كان حتى سنة ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م صوفياً خالصاً شافعياً محضاً، درج على طريقة كثير من شيوخ عصره، يسير بسيرهم، ويأخذ بمنهجهم، فقد كتب بخطه في تلك السنة في آخر المولد الذي هذّبه من مولد عائشة الباعونية: «تم على يد مختصره الفقير إلى الغني الكبير محمد جمال الدين أبي الفرج القاسمي الأشعري الدمشقي النقشبندي الخالدي الشافعي، في ٤ ربيع الأنور سنة ١٣٠٦»[2].. فإذا به بعد ذلك الوقت يصل إلى مفترقات في الطريق، وإذا به

(١) انظر حادثة المجتهدين في الفصل الثالث.

(٢) ظافر، ٦٣٧.

يبارح شيخه الخاني فجأة وهو يعلن في مذكراته قائلاً: «ثم تركت حلقته لأمر ما»[1] فما عساه يكون هذا الأمر إن لم يكن اختلافاً في وجهات النظر! لكن الشاب لم يحمل على شيخه موجدة، ولم يناصبه العداء، بل بقي يثني عليه الثناء الجميل فيقول عنه: «وبالجملة فهو من أفضل أشياخي الذين انتفعت بمجالسهم وتأدبت بآدابهم واغتبطت بصحبتهم»[2]. وبقي كذلك على صلة به يواده، فيقابله هو أيضاً بالتقدير، ويؤكد على ذلك بقوله: «ولم أنقطع عن زيارته، وكان يتودد إلي ويعظمني خصوصاً في آخر أمره. وكثيراً ما أتى بقصد زيارة الفقير وسيدي الوالد»[3]. ففي هذا النص نرى أن المقصود بالزيارة هو القاسمي الشاب لا والده؛ لأنه يقدم نفسه على أبيه في كلامه مع تعظيمه له ليبين ـ كما يظهر لي ـ مَنْ المقصود بالزيارة أصلاً.

وإذا لم يحدد الشاب زمن تركه لأستاذه الخاني، إلا أننا نستطيع تخمين ذلك التاريخ على وجه تقريبي؛ فالشيخ توفي في جمادى سنة ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م، وقبل شهر ونصف من وفاته تلك، أي في مفتتح ذلك العام كان معه في دعوة بمنتجع دمر قرب دمشق، وقبل تلك الدعوة التي يصفها القاسمي بأنها كانت «خاتمة الاجتماعات اللطيفة معه، رحمه الله تعالى وإيانا»[4] كان لا ينقطع

---

(١) المرجع السابق، ٢٧.
(٢) المرجع السابق، ٢٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) ظافر، المرجع السابق.

عن زيارته.. ومعنى هذا أن تكرر الزيارات مرات يقتضي مفهوم السياق: مدة طويلة، أرى أنها تجاوز السنة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن القاسمي حوكم مع ثلة من العلماء عام ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م بتهمة السلفية، أو قُل بتهمة الاجتهاد كما رأينا، فإن معناه أنه ترك أستاذه قبل هذا العام الأخير بكثير، حتى عرف عنه تركه للنقشبندية وميوله إلى السلفية، وأنّ ذلك شاع وذاع، حتى دبر له خصومه مؤامرتهم وأوقعوه في شباك المحكمة والوالي.. وإذن فيمكن أن نحدد هذا التاريخ بعام ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م أو بعد ذلك بقليل.

على أن إرهاصات هذه الميول كانت قائمة لديه ولا شك قبل ذلك التاريخ، ودليل ذلك أن أهل محلّة باب السريجة طلبوا منه في عام ١٣٠٧هـ = ١٨٨٩م - يوم كان إماماً في مسجد العناية - أن يشاركهم الاحتفال بمناسبة المولد الشريف، وأن يدعو لهم شيوخ المدينة المعروفين. وقد اهتبل الشاب الفرصة فتلا عليهم السيرة الزكية من مختصر مولد عائشة الباعونية كما ذكرنا وكان قد فرغ من اختصاره قبل سنة.

ومعنى هذا أيضاً أنه قد عرف ما يريد عند ذلك التاريخ.. لنجعله إذن بداية لقناعاته السلفية يوم كان الشاب في بداية العشرينات.. أو قل في أوائل العقد الثالث من عمره.

ولكنها بدايات لم تكن - فيما أظن - ناضجة ذلك النضج الكافي، فبقيت منذ ذلك التاريخ على الأغلب في مرحلة الحضانة،

حتى وافى عام ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م، ذلك العام الذي يجب أن نجعله بداية التفتح الحقيقي عند الشيخ فيما أخذ به نفسه، وعُرف به بين الناس، وغدا صاحب دعوى لها أبعادها. . استحكمت عنده فيما أظن وتبلورت تماماً عند عام ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م عام رحلته إلى مصر، لأنه هو نفسه جعل ذلك العام كما أشرنا من قبل حداً فاصلاً بين مؤلفاته التي أجازها ـ وهي تمثل أفكاره ـ وبين مؤلفاته التي قال: «إن له فيها وقفة ونظراً»[١] وذلك بعدما تفتح في مصر على أفكار جديدة، وقع عليها عند الشيخ محمد عبده، ولعل هذا الأخير هو الذي نقله إلى أجواء أستاذه الأفغاني، فتأثر بهما كليهما، وكان عند ذلك نهاية النضوج في أفكاره، فكان نسيج وحده بين علماء الشام، حراً في رأيه وبحثه. . .[٢] فهل كانت أبعاده أبعاد السلفيين والسلفية؟ أم إنها تختلف عنها بعض اختلافات؟

أول ما جهر به جمال الدين القاسمي من أفكاره في الشام هو الأخذ بالاجتهاد، حاول فتح الباب الذي أُغلق منذ زمان طويل، ووضعت عليه الأقفال الثقال. . فروّع بذلك أصحاب المذاهب، وقامت بينه وبينهم حرب باردة أو ساخنة منذ ذلك الحين، وسمّوه بما سمّوه. . وسماهم هو الحشوية[٣] الجامدين. وقال فيهم: إنهم يجمدون على العبارات في كتب الفقه «يذيبون فيها أدمغتهم

---

(١) ظافر، ٨٨.

(٢) استانبولي، ١٧.

(٣) مر تعريف القاسمي للحشوية في حواشي الفصل الرابع.

ليفهموها ويستنبطوا منها منطوقاً ومفهوماً، ويضيعوا أوقاتهم بما لا يفيد الأمة شيئاً مذكوراً. ولو صرفوا أوقاتهم لفهم القرآن والسنة لأتوا منهما بالعجب العجاب، ونشلوا الأمة من تأخرها وجمودها»[١].

وكان يقيم الحجة على الفقهاء من أصحاب المذاهب الذين لا يخرجون عن أقوال الأئمة قيد أُنملة، مع «أن مذهب أبي حنيفة الآن هو مذهب تلميذيه أو أحدهما على الغالب، وقد خالفا إمامهما في كثير من أقواله.. وكان في حياته يُسرّ بهما. وهذه هي طريقة الأئمة الأربعة»[٢]. ولذا فيرى أن تقبل آراء كل فقيه قديم، ولكن على بصيرة وحجة، هي حجة إقامة الدليل والنقاش الصحيح[٣].

وكان من حججه على الفقهاء أن الأئمة الأربعة أنفسهم كانوا يرفضون التقليد، لأنهم أمروا تلامذتهم بالاجتهاد ضمن مذاهبهم، لا أن يجعلوا كلامهم في ذاته حجة؛ واستشهد على هذا بكلام المزني[٤] في مختصره لكتاب الأم للشافعي الذي قال: «اختصرت

---

(١) استانبولي، ٥٨، ٨٤.
(٢) استانبولي، ٤٥؛ الفضل المبين، ٨٢.
(٣) استانبولي، ٢٧.
(٤) هو إسماعيل بن يحيى صاحب الشافعي، نسبته إلى مزينة من مصر؛ كان زاهداً عالماً مجتهداً قوي الحجة. قال الشافعي: ناصر مذهبي، وقال في قوة حجته: لو ناظر الشيطان لغلبه. انظر وفيات الأعيان ١/ ٧١، الانتقاء ١١٠.

هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله ومن معنى قوله لأقربه على من أراده، مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه»[١]. وكان يقول: «ألم يقل الشافعي إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي عرض الحائط! ألم يقل أبو حنيفة: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يأخذ بكلامي!».

من أجل ذلك ارتضى القاسمي كتب المذاهب كلها وأخذ منها ما يحتاج إليه مع أخذه بالدليل؛ فقَبِل من المالكية مثلاً قولهم في جواز التصوير الفوتوغرافي[٢]. واعتمد على أقوال الحنابلة في الطلاق[٣]. وفي المسح على الجوربين[٤]، ووافق جانباً محدداً من رأي الشيعة في المتعة[٥].. هذا حين كان يستحيل على فقيه أن يرضى برأي في غير مذهبه[٦]. وهو يصرح بهذا لطلابه فيقول لهم: «إن مذهبي ألا أتقيد بمذهب من المذاهب، بل آخذ من كل مذهب بما كان أقوى دليلاً»[٧].

---

(١) استانبولي، ٤٤؛ وانظر مختصر المزني، المقدمة.
(٢) ظافر، ٣٠٧.
(٣) انظر في مؤلفيه: الارتفاق في مسائل الطلاق، والاستئناس لتصحيح أنكحة الناس.
(٤) انظر رسالته في المسح على الجوربين.
(٥) ظافر، ٣٠٨ ـ ٣١٨.
(٦) المرجع السابق، ٦٠٦.
(٧) استانبولي، ٨١.

ولشدة اهتمامه بالاجتهاد ومحاربة التقليد الأعمى اهتم بعلم الأصول اهتماماً خاصاً، فطبع كتبه وحث على التأليف فيه كما رأينا[1] مخالفاً رأي شيخه محمد الخاني الذي كان يقول: إننا نقرأ علم الأصول للتبرك، لأنه لا فائدة لنا فيه، وإنما يستفيد منه من يكون حراً مجتهداً، لا مقلداً مثلنا[2].

وكان يحمل على التعصب المذهبي الذي أدى لتأخر المسلمين وفساد أنظمتهم وضياع حقوقهم وهددهم بالهلاك، لأن الأمة تخضع لمذهب حاكمها؛ فأيام الأتراك حكمت المحاكم على مذهب الحنفية، وقبلها كان الحكم على غيره.. وقد توسع الأمر فقامت أربع محاكم على أربعة مذاهب، مما أدى للفوضى ونفور الناس وترك الشريعة، وهذا ما حصل حينما طلبت الحكومة العثمانية من فقهاء المذهب الحنفي أن يعدلوا من مجلة الأحكام الشرعية ما يتعذر تطبيقه لتغير الزمن فيأخذوا من المذاهب الأخرى، فأبوا تعصباً، مدعين أن ذلك يعدّ تلفيقاً، مما دفع المسؤولين دفعاً إلى الأخذ بالقوانين الأوروبية[3].

كان تعدد المذاهب مع جمودها إذن يؤرقه.. وكان يريد أن يأخذ بالحسن الموافق من كل مذهب، ولقد تأثر في هذا بالشيخ محمد عبده الذي سمعه يقول: «نحن في حاجة إلى مذهب ينتخب من المذاهب الأربعة» وعقب القاسمي على ذلك بالقول: «وهذا

---

(١) المرجع السابق، ٣٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) استانبولي، ٨٤.

الكلام كان يدور معناه في خلدي من أزمان، إذ إنّ جعل الأمة أو بلد من البلاد أو قوم من الناس على مذهب واحد فيه من الحرج والعنت ما فيه، ودين الله يسر.. وفي مجموع فروع الأئمة ما يعود على الأمة باليسر والتيسير، مع المحافظة على أصول الدين.. ولي نية بجمع كتاب في الفروع في ذلك»[1].

ويرى جمال الدين القاسمي أنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد، وقد عرف لكل زمان مجتهدوه الذين ترجمت لهم كتب الرجال[2]. ولا قيمة لإنكار بعض المتفقهة لوجودهم معتقدين أن الأئمة الأربعة في منزلة التشريع، لا في منزلة الضبط والتحرير[3].

ولقد بسط الشيخ رأيه بالاجتهاد والتقليد في كتابه الفضل المبين[4] فذكر أن «دعوى بعض المحققين خلو الوقت عن المجتهد المطلق لا دليل عليها، فهل عرف القائل بذلك جميع المسلمين وهم يعدون بمئات الملايين، وتحقق أن كل واحد منهم مقلد؟»[5]، «والله تعالى يوجب العمل بالأقوال مع الحجة التي تلزم المؤمن مستشهداً بالآية الكريمة ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾

---

(١) المرجع السابق، ٧٠؛ ظافر ٢٧٣؛ الرسالة، السنة ٣، ص ١٢٨٠، ١٩٣٥م.

(٢) كالضوء اللامع للسخاوي، وحسن المحاضرة للسيوطي مثلاً.

(٣) الفضل المبين ٨٠ ـ ٨٢.

(٤) المرجع السابق، ٨٠ ـ ٨٩.

(٥) المرجع السابق، ٨١.

[الكهف: ١٥]. ذلك لأن التقليد لا يرضاه إلا عامي أعمى أو عالم لم يصل إلى مرتبة كبار الفضلاء من عقلاء المتقدمين والمتأخرين»[(١)].

ويناقش مسألة شروط الاجتهاد التي وضعها بعض العلماء، قائلاً: «إذا لم يشترط الله تعالى هذه الشروط في كتابه، ولا رسوله في سنته، فمن أين تكون حجة يلقم بها كل من يدعي الاجتهاد؟ وأيضاً فهذه الشروط، إما أن يشترطها مجتهد، فليس قوله حجة على مجتهد غيره، أو مقلد، فأحرى ألا يكون كلامه حجة ولا مقنعاً»[(٢)].

ومع أنه يقبل كثيراً من هذه الشروط، لكنه يراها غير مستحيلة ما دامت مادة اللغة جُمعت ودُوِّنت، وجُمعت الأحاديث الشريفة، وانتشرت كتب الرجال والخلاف والفروع، «فهل يعسر بعد هذا كله أن يتوقف الذكي النبيه عن الحكم أو يشكل عليه الأمر.. وباب الاجتهاد أوسع مما يُضَيِّقون»[(٣)].

ثم يقول: «على أن من نظر إلى هديه ﷺ في تفقيه أصحابه وتعليمه إياهم قواعد الدين وكلياته في أيام يسيرة لكثير ممن يفد مؤمناً من قبيلته، ويمكث أياماً في حضرته ﷺ، ثم يرسله ﷺ داعياً وهادياً ومرشداً»[(٤)].

---

(١) المرجع السابق، ٨٣.

(٢) ظافر، ٣٠١.

(٣) المرجع السابق، ٣٠٢.

(٤) المرجع السابق، ٣٠١.

وهـذا النـص الأخير مـن كـلام القـاسمـي مقبـول على وجه الإجمال، مرفوض عند التحقيق لتغير الزمان والأحوال، لا يمكن قياس حال الناس اليوم على حال الصحابة في أول أمر الدين.. هل يستطيع الرجل العادي أو النبيه اليوم أن يتعلم في أيام قواعد الدين، ثم يصير عالماً يفقه الناس ويعلمهم؟ إن ما كان يفعله الصحابة في أيامهم هو الدعوة إلى كليات الدين وأساسياته في إرساء عقيدة التوحيد ونبذ عبادة الأصنام والقيام بالعبادات الأساسيـة وتعليم آيات من القرآن الكريم في حياة كانت بسيطة غير معقدة، تمهيـداً لنشر العـلم من قبل كبار الصحابة.. ألم تكن هناك إشكالات كانت تجدّ حيناً بعد حين وتكثر، فيقف عندها الصحابـة يتشاورون فيها، يسأل بعضهم بعضـاً! فترك الأمر إذن هكذا ببساطة يوقع في فوضى مثلما يوقع التزمت في الجمود.

ولعل الشيخ لو طالت حياته.. أو لو كان اليوم ورأى جماعة من الناس حصلوا على شيء كم علم اغتروا به، فجعلوا يجترئون على الفتيا وعلى الدين مع ضعف أدواتهم وأحوالهم، وأخذوا ينالون من أئمة المسلمين، يقللون من شأنهم ويسفهون آراءهم، في حين إن من أبسط قواعد الإسلام الحنيف تقدير أهل العلم ولو كانوا على خطأ، واحترام الرأي المخالف ومناقشته، والدعوة إلى الحجاج والنقاش.

ألم يقر النبي ﷺ فريقين اختلفا في تأويل الحديث الشريف:

«ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»[1]. فما بال هؤلاء اليوم ينسفون كل من خالفهم لأقل سبب، بل يعمد بعضهم أحياناً إلى تكفير كثير من المسلمين ورميهم بالشرك، الأمر الذي أخذ يستفحل ويؤدي إلى تفريق المسلمين وإطماع عدوهم بهم في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى الوحدة.

أما القاسمي فما كان يُكَفِّر أحداً على النحو الذي يفعله هؤلاء، إذ لا يريد قطع الأُخُوَّة الإيمانية لخلافات في الفروع، وهو يقول بعد كلام طويل في هذه القضية: «فأما مسألة التكفير فإنا لا نكفر كل من استقبل قبلتنا وصلى صلاتنا واعتقد عقيدتنا، ونلتمس لكلامه ما يدرأ عنه الكفر للأصل الأصيل في باب الحدود، وهو حديث: ادرؤوا الحدود بالشبهات»[2].

---

(١) رواه البخاري ٧/ ٣١٣ وتتمته «فسار الناس، فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي ولم يُرد منا ذلك، فذكروا ذلك للنبي ﷺ. فلم يعنف أحداً منهم» ورواه مسلم في الجهاد برقم ١٧٧٠.

(٢) ظافر، ٢٤٩ ـ ٢٥٣، وأورد العجلوني هذا الحديث في كشف الخفا ١/ ٧٣ وقال في الأصل رواه الحارثي في مسند أبي حنيفة عن ابن عباس مرفوعاً، وأخرجه ابن السمعاني عن عمر بن عبد العزيز، وعزاه في الدر إلى الترمذي بلفظ «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم». وأخرجه ابن حزم في الإيصال بسند صحيح، وأخرجه مسدد عن ابن مسعود، قال: «ادرؤوا الحدود عن عباد الله عز وجل»، ورواه البيهقي عن عاصم بلفظ «ادرؤوا الحدود بالشبهات».

وتوسع القاسمي في المذاهب أكثر، فأخذ كذلك عن ابن حزم، وعن الشيعة، وعن آخرين أقوالاً[١]، وما ضرب عرض الحائط إلا بقولٍ يخالف الكتاب والسنة، وما كان ينعى على أصحاب المذاهب مذاهبهم، ولكنه كان ينعى عليهم جمودهم[٢]. ولقد ثبت اليوم حاجتنا إلى كل رأي حق لتطور العصر.. وهذا المجمع الفقهي الإسلامي أخذ ينزع هذا المنزع، ويبحث في جميع المذاهب مما يوسع على المسلمين.

والقاسمي حينما أعجب بابن تيمية وآرائه ومواقفه وصبره لم يأخذ عنه كل شيء، بل كان يأخذ عليه آراء لا تعجبه منه، لا كما يفعل ناس لا يتبعون الحق وإنما يتبعون الناس. وهذا ما لفت نظر بعض طلاب القاسمي في موقفه هذا، ولما سأله توضيح الأمر قال له: «ومن قال لك إنني مقلد لابن تيمية؟ إنما أدافع عنه وأنشر كتبه لأنه مجتهد غير مقلد، وأقواله أقرب إلى الصواب من غيره، لأنه جاء متأخراً عن الأئمة، وزاد اطلاعه على اطلاعهم، وناقشهم جميعاً»[٣].

وكذلك مع إعجابه بالشيخ محمد عبده كان يرد عليه أقوالاً وآراء لا يراها صحيحة، ويصرح بذلك مرة فيقول: «ورأيت

---

(١) ظافر، ٣٠٨.

(٢) استانبولي، ٨٤، وقد مرَّ هذا في كلامه على مجلة الأحكام العدلية.

(٣) استانبولي، ٤٩ ـ ٥٠.

المفتي جنح في هذه الآية: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ [النساء: ١٥]. إلى ما قاله أبو مسلم الأصفهاني الذي حكاه عنه الفخر الرازي ونقله النيسابوري أيضاً وقواه المفتي جداً. إلا أني ما ارتضيته لكونه مخالفاً لما صح في تفسيرها مما رواه مسلم»[١].

ولهذا فلم يقف القاسمي عند ابن تيمية وابن القيم مع إعجابه بهما الإعجاب الشديد بل تجاوزهما إلى خصومهما ومخالفيهما، يأخذ منهم إذا وجد الحق بجانبهم، فأخذ عن الفارابي والنصير الطوسي، كما أخذ عن ابن عربي مع أنه كان حرباً على الصوفية، وكان يدافع عنه بجرأة وصراحة مخطِّئاً ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فيقول: «لا عبرة برمي شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما رحمهم الله تعالى بالإلحاد مثل النصير الطوسي وابن عربي وبعض الأشاعرة أو المتأولين لآيات الصفات وآثارها، فإنّ ذلك منه ومن أمثاله حمية مذهبية وغيرة على نصرة ما قوي لديه. وقد عُهِدَ في العالم الغيور الذي لا يتسع صدره لخلاف الخصم أن يحمل

(١) ظافر، ١٤٨، ولقد عرف الشيخ محمد عبده بآراء جريئة مخالفة لأصول الإسلام فضلاً عن مخالفتها لواقع السلف، كفتواه بإباحة قدر محدود من الربا، وفتواه بأكل ذبائح النصارى كيفما كان ذبحها، وفتواه بلبس القبعة دون أي قيد وفي أي حال، وفتواه بنحت التماثيل واتخاذها مطلقاً، وتأوله النصوص كيفما اتفق، كتأول الطير الأبابيل بجراثيم الجدري. وقد ظهرت هذه الانحرافات لديه بعد عودته من المنفى وهو ما فوجىء به كثير من صحبه وطلابه وفي مقدمتهم الشيخ رشيد رضا (السلفية، ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

عليه أمثال هذا وأعظم، وإلا فالنصير قد عُلم أن له مؤلفات في فن الكلام خُدمت وشرحت كلها مما يبرئه من الإلحاد والزندقة، ودعوى أنه كان محرضاً هولاكو على قتل العلماء دعوى من لم يعرف سنّة الملوك المتغلبين المندفعين على البلاد للأسر والقتل، وأين نصير الدين من هولاكو حتى يكون مستشاره في القتل والسفك! وعقيدته ومشربه وترجمته المحفوظة تبرئه من مثل ذلك. وابن عربي حق الباحث معه والمنكر عليه أن ينكر عليه موضعاً لا يحتمل التأويل، ويقول: ظاهره إلحاد، إلا أن الرجل له عقيدة نشرها أولاً ومذهب في الفقه حسن، فمثله لا يسوغ رميه بالإلحاد، وحينئذ فيقال: كلامه مشكل، إلا أنّ عقيدته صحيحة، فالأولى الإعراض عن المشكلات من كلامه وعدم مطالعتها، إذ لعل لها معاني عنده. وأمثال هذا مما يخفف من الرمي بالإلحاد فافهم»[1].

وكتب في سنة ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م يقول: «سنح لي أن أقيد ما أراه في مسألة كتب الصوفية والمشهورين بالعارفين منهم من الاعتدال في ذلك والتوسط فيه حباً بالإنصاف، فإني رأيت من الناس من يكفِّر أربابها ويحرّم النظر فيها ويحرقها إذا ظفر بها لاشتمالها على ما يعتقده حلولاً واتحاداً من ألفاظٍ ظاهرها ذلك. كما أن من الناس من يجلّها وأربابها، ويشغف بها ويدعو إليها ويراها لب الألباب، وأنها جديرة بأن ينفق في مطالعتها العمر،

---

(١) ظافر، ٢٧٤.

وندر من يتوسط في ذلك أو في أصحابها، بل الأمر في مؤلفها أن يصفه قوم بأنه صِدِّيق وآخرون بأنه زنديق؛ فما هذا الحال؟ وأين الاعتدال؟.. وإلا فإنهم في فنهم على أصول قرروها واصطلاحات حرروها، من رجع إليها رأى أن كلامهم شعبة من فن الحكمة (الفلسفة) إلا أن مؤلفيها لما كانوا من أرباب الرياضة والتجريد والتزهد مع الانصباغ بصبغة الدين.. كان كلامهم أشبه بفلسفة إسلامية لا يونانية محضة، فأصبحت مزيجاً كما يعلمه الواقف على كلامهم في مطولات كتبهم كالفتوحات والأسفار الأربعة وغيرها. نعم لا ينكر أنها اشتملت على ما هو مردود ومنظور فيه، مما ظهرت الحكمة الجديدة والفلسفة الحق الآن بخلافه، إلا أنها في تلك العصور كانت هي المشهورة المتداولة. وأما اشتمالها على ما يشعر بالحلول أو الاتحاد فهو ما يفهم منها بحسب ظاهر اللفظ. ولو رجع إلى مقاصد أربابها لوجدهم يبرؤون إلى الله من أن يفهم حلول أو اتحاد، لأنه خلاف الفن وخلاف قواعده؛ لأن الوجود الكلي لا يتعين، فتعينه بذات، ودعوى أنه هو، خطأ في الفن، فالعلم يتبرأ منه. فإذن من الفرية عليهم أنهم يقولون بالحلول والاتحاد، ومن الجهل بقواعدهم ومشربهم واصطلاحاتهم»[١].

ومن هذا الكلام وأشباهه نراه معجباً بابن عربي، وقد ترجم له ترجمة مهمة في كتابه «الفضل المبين» ونوّه بفضله وآثاره[٢].

---

(١) ظافر ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٢) الفضل المبين، ٣٥٤ ـ ٣٤٨.

وكان القاسمي بالمقابل حرباً على صوفية زمانه لا يزال يهاجمهم ويذكر خرافاتهم دون أن يذكر أسماءهم على عادته، إلا أنه يشير إليها في رسائله ومذكراته التي لا ينشرها. ولقد كان يسوءه منهم اثنان، يوسف النبهاني وأسعد الصاحب، وله فيما يبدو ردود عليهم ومواقف ولئن كان الصاحب يجهر بمهاجمة القاسمي في المجالس(١)، وينال منه أمام الوالي والوجهاء، فقد كان النبهاني يهاجم السلفية وأصحابها؛ كتب جمال الدين في إحدى رسائله لمحمد نصيف بلهجة لم تعهد عنه لكنه يعلل سبب هجومه فيقول: «وأما النبهاني فدعوه يمت بغيظه قاتله الله من رجل خرافي أضر بتآليفه كثيراً من البسطاء.. على أن مظهر هذا العصر هو نبذ تآليفه العارية من العلم والأدب، فلا تحرصوا إلا على محاربته بنشر آثار شيخ الإسلام وأمثالها، لا بالمقالات في الجرائد فإن الجهاد معه هو في بث أثر السلف ومشربهم.. عامله الله بما يستحق»(٢). وكان من أسباب هذا الهجوم أيضاً هو أن النبهاني حمل على ابن تيمية وابن القيم حملات شعواء وتناول كذلك الآلوسي المفسر والشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا. وله في هؤلاء الثلاثة قصيدة طويلة في الهجاء(٣).

وإذن فالقاسمي يؤاخذ أصحاب البدع والفتن والضلالات من

---

(١) ظافر، ٤٣٠ ـ ٤٣١، وفيه كيف كان يسعى عليه المذكور لدى الوالي.

(٢) ظافر، ٥٩١.

(٣) انظر لترجمة النبهاني الأعلام ٨/ ٢١٨.

الصوفية مما كان يراه منهم في زمانه، وكان يقول عن مشايخ الطرق: «هم كالعمود الكهربائي، يبث الجنون في رؤوس الناس، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر مرض الصرع العام والذهول العقلي»[١] أي في حالات الذكر الخاصة بهم. وكان ينهى عن الاختلاط بهم ولو من أجل الاطلاع على أحوالهم؛ فقد زجر تلميذاً له مرة حينما أحب الذهاب لمشاهدة حلقاتهم والسماع لأناشيدهم وموسيقاهم، وقال له: «لا تكثر سواد المبتدعة، ولا تكن قدوة سيئة لغيرك»[٢].

ولقد آلمه كثيراً تصرفات مشايخ الطرق في دمشق وأعمالهم وادعاءاتهم وكثرة بدعهم، فهاجمهم، وبيّن ضلال كثير منهم. وقد وصف ما يفعلون من منكرات تضر بالدين، ننقل منها حديثه عن مواكبهم التي كانت تخرج في الربيع، فيقول:[٣]

لا تزال هذه الطوائف تبتدع أموراً تُضحك السفهاء وتُبكي العقلاء وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة وسلط عليها الأجنبي يهزأ بديننا ويقبح أعمالنا ظناً منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين. فهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم، والتزموا طرق أشياخهم الذين يدّعون أنهم على آثارهم وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاؤون. أين تصفية الباطن التي هي

---

(١) ظافر، ٣٥٣.

(٢) استانبولي، ٩١.

(٣) إصلاح المساجد، ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

مدار الطريق، وأين الخمول مع هذا الظهور، وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال يقدمها الطبل والمزمار، وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية، وأين البعد عن الرياء مع الوقوف بين مئات الألوف يتمايل ويتلوى، وأين الإرشاد مع هذه البدع وأين الأشياخ إذا أردنا السلوك. فلعمري لا نرى إلا رجالاً اتخذوا الطريق وسيلة معاشية. أما آن لهذه البدع أن تموت ولهؤلاء الجهلة أن يتنبهوا ويعلموا أنهم بين أمم ينظرون أعمالهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وسكان البوادي. إنّ الطريق المسلوك للقوم مبني على الإخلاص في العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه وفي التهجد والزهد فيما في أيدي الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم، وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود واستبدال السنة بالبدعة وترك الشرع بهوى النفس. والطامة الكبرى دعوة بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة وإضلاله العامة بما ينقله إليهم عن الإنسان الكامل ونحوه من كتب الصوفية مدعياً فهمه لإشاراته من طريق الفتح أو الإلهام، فقد كثرت النحل والبدع، وسمعنا من أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر. وقد اتفق أن أحد مُعْتبَرِي الأجانب دخل أحد الأماكن وقد اجتمع فيه جماعة من أهل الأهواء، فرآهم يرقصون ويصيحون صياح جنون فقال لترجمانه: ما هذه الغوغاء ونحن نعلم أن صلاة المسلمين في غاية الخشوع والآداب وهذه أمور ليست إلا هذياناً. فقال له ترجمانه:

«إن هذه أكبر صلاة عندهم» يريد تنفيره من الدين الإسلامي ولا حول ولا قوة إلا بالله. فالدين بريء من نسبة هذه البدع إليه؛ فإن سيرة النبي ﷺ معلومة محفوظة، إذ لم يترك الحفاظ وكتاب السير شيئاً من أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته إلا دونوه، وجاء الخلفاء الراشدون ومن عاصرهم على أثره ﷺ وكذلك جاء الصوفية المتقدمون على هذا الأثر. فلما تشيخ الجهلاء في الطريق التزموا البدع وجاء من لهم إلمام بكتب القوم فانتحلوا أقوالاً لا يعرفون معناها، وعلّموها لجهلةٍ لا يفقهون، فضلُّوا وأضلوا، إنا لله وإنا إليه راجعون. ومن المصائب الفظيعة تركهم الذكر الشرعي وقولهم «اللام إلا الله» «لوالوها إلا الله» و«ال» بلام مغلظة و«اه» و«هِهِ»، ثم الرقص وأكل النار وضرب الدف أو الناي والنقارات والنقرزان ووضع الدبوس في الذراع والسيخ الحديد في الحنك والشيش وغيرها من المفتريات القبيحة. فحق شيخ المشايخ منع هؤلاء الجهلاء من إعطاء العهود، حتى يعرفوا العقيدة والآداب الشرعية والفروع الفقهية، ففي ذلك خدمة الأمة والدين، وتأييد لكلمة الحق المتين».

وقسم جمال الدين البدع إلى قسمين، غالبها سيِّىء مرفوض، وبعضها مستحسن إذا كانت غايته حسنة ولا يضر بأصل من أصول الدين. وهو في هذا يرى رأي الشافعي الذي يقول: «البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة؛ فما وافق السنة

فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم»[1]. ويحتج بقول عمر رضي الله عنه في الأخذ بحميد البدع حين قال عن صلاة التراويح لما جمع الناس عليها بعد النبي ﷺ: «نعمت البدعة»[2].

ومن هنا أخذ القاسمي ببدعة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ولكنه تألم لاشتطاط الناس في ذلك الاحتفال وتلاوتهم كتباً فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة، وقيامهم بأعمال منكرة ليست من الدين، وعدم أخذهم بالآداب النبوية في ذلك الاحتفال. ومن أجل ذلك اختصر مولد عائشة الباعونية[3]، كما ألف مولداً سماه «شذرة من السيرة المحمدية»[4].

وقد نقل قول ابن تيمية في ذلك: «فأما الاجتماع في عمل المولد على غناء ورقص ونحو ذلك واتخاذه عبادة، فلا يرتاب أحد من أهل العلم والإيمان أن هذا من المنكرات التي يُنهى عنها ولا يستحب ذلك إلا جاهل أو زنديق. وأما الاجتماع على قراءة

---

(١) إصلاح المساجد، ١٢ ـ ١٣.

(٢) المرجع السابق، ١٣.

(٣) عائشة بنت يوسف الباعونية، شاعرة أديبة صوفية، لها مؤلفات، ومولدها يسمى «المورد الأهنى في المولد الأسنى» طبع باسم مولد النبي للباعونية توفيت بدمشق سنة ٩٢٢، وكانت ولدت بها، ونسبتها إلى باعون من قرى عجلون. انظر لترجمتها مجلة المجمع العلمي ١٦/٦٦، الكواكب السائرة ١/٢٨٧، شذرات الذهب ٨/١١١، الدر المنثور ٢٩٣. وانظر الأعلام ٣/٢٤١.

(٤) انظر مؤلفاته.

وذكر فضائل النبي ﷺ فهذا من فعله قصداً لتعظيمه ومحبته، فإنه يثاب على قصده الحسن ونيته فعل الخير»[1].

كما نقل قول الزرقاني في ذلك: «عمل المولد بدعة، لكنه اشتمل على محاسن وضدها، فمن تحرى المحاسن واجتنب ضدها كانت بدعة حسنة، ومن لا فلا»[2].

ومن البدع التي أخذ القاسمي بها القراءة للأموات التي كتب يقول فيها عام ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م: «ليلة هذا الأحد دعونا إخواننا لقراءة ختم شريف عن روح سيدنا المرحوم الوالد، فحضروا بعد العشاء، وغبّ قراءة الختم والدعوات الصالحة تناولوا الحليب والعنب وقبله الشاي، وانصرفوا مسرورين. واتفق صباح هذا اليوم أن شقيقتي حدثتني أنها رأت ليلتئذ المرحوم الوالد في حجرته مسروراً مستبشراً بحالة حسنة ونشاط وصفاء، فذكرت لي ذلك، فقلت لها: لا شك أن الأرواح تسر بما تذكر به من الدعوات والمآثر الحسنة والأخلاق الفاضلة. ثم قلت لها: إن هذا الاجتماع؛ وإن لم يكن مشروعاً، وهو بدعة، لكنني أراه لا بأس به، لما فيه من تجديد ذكرى المتوفين والأنس بأخلاقهم وتعليم أولادهم وأحفادهم ألا ينسوهم من الدعاء المشروع، وإنما الأعمال بالنيات»[3].

---

(١) شذرة من السيرة المحمدية، ٣١ ـ ٣٢.

(٢) شذرة من السيرة المحمدية، ٣٢.

(٣) ظافر، ١٩٠.

والأكثر من هذا رأينا القاسمي يعتني بقبر أبيه ويرممه ويبنيه بالحجارة على إتقان، وينفق في هذا السبيل مالاً، لأنه يرى ذلك أيضاً من البدع المقبولة[1].

وبهذه المناسبة فهو يقصد قبور الصالحين من العلماء بالزيارة، لكنها زيارة على وجه الحق لا الباطل، زار قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه في مصر، حين رحل إليها عام ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م، ووقف عليه، وقال: «قدس الله روحه». وكذلك زار في الإسكندرية جامع الإمام البوصيري وجامع أبي العباس المرسي، وذكرهما باحترام وتجلة[2].

لكنه مع هذا يكره التمسح بالآثار والتبرك بها مؤكداً على قول الإمام الغزالي في هذا الصدد بأن ذلك من عادات النصارى، أما شريعة الإسلام فتقضي ألا يتبرك بشيء إلا بالحجر الأسود لأنه من مناسك الحج[3]. ومن قبل في عام ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م زار قبر الإمام النووي حينما كان في دعوة عند بعض أصدقائه بحوران.. وهذا بعد حادثة المجتهدين[4].

ومن البدع التي يصرح باستحسانها بدعة إسقاط الصلاة عن الميت، مع أنه لم يقل بها غير متأخري فقهاء الحنفية، وهذا أمر

---

(١) المرجع السابق، ١٨٩.
(٢) ظافر، ١٥٤ ـ ١٥٨.
(٣) المرجع السابق، ٢٩٤.
(٤) الفضل المبين، ٣٠٥.

عجيب منه. وقد قبلها، لأنه رأى فيها نفعاً للفقراء، ويلحقها بالزكاة[1].

وهو أبداً وفي كل مناسبة يستاء من البدع القبيحة، ويصرح باستيائه؛ كإنكاره منظر الاحتفال بكسوة الكعبة الشريفة في مصر التي قال فيها: «قدمت الكسوة محمولة على أكتاف الرجال في محامل لها ممدودة فوقها على مقدارها، ووراءها المحمل المصري، يتقدمها الجنود والموسيقى العسكرية، ثم أعلام مشايخ الطرق بطبولهم وزمورهم، مما يفوق الاحتفال في دمشق بالمحمل في البدع المنكرة»[2].

كما أنكر بدعة وجود إمامين يتعاقبان في مسجد واحد ورأى أنها مخالفة للإسلام. ولما كان في مسجده إمام آخر يصلي بعده فقد قال: «لو كانت العادة أن يصلي الإمام الشافعي بعد الحنفي لاستقلت من هذه الوظيفة، كيلا أقع في هذا المحذور»[3].

وهو إذ يؤاخذ أصحاب البدع ـ وخاصة من الذين يلجؤون إلى الاستعانة بغير الله ـ فإنه يبين أنّ عملهم هذا أفظع من شرك المشركين؛ لأنّ أولئك كانوا إذا نزلت بهم شدة دعوا الله وحده، بخلاف هؤلاء الذين ينسون ربهم في المصائب ويدعون غيره،

---

(١) انظر تفصيل ذلك في إصلاح المساجد، ٢٨٠ ـ ٢٨٣.

(٢) ظافر، ١٥٠.

(٣) استانبولي، ٨٥.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥][١].

ولقد فصّل القاسمي الحديث في البدع وبحث بها وبيّن أمرها في مقدمة كتابه «إصلاح المساجد من البدع والعوائد»، فتحدث عن معناها اللغوي والاصطلاحي ورهّب منها ونفَّر من المبتدعين، وذكر غالب أنواع البدع التي شاعت في عهده، وحث على الأخذ بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإزالة البدع والصبر في سبيل الله. حتى لم يترك في ذلك زيادة لمستزيد[٢]. وفي مقابل هذه البدع دعا من أجل محاربتها إلى الأخذ بالأصول وعلى رأسها الكتاب والسنّة، واهتم كثيراً بهذين الأصلين، حتى قال: «إنني أحترم كل من يكتب في التفسير والحديث في المسائل المهمة ولو كراساً، فهو أفضل من كثير ممن يعمل الشروح في القضايا والمسائل غير المهمة»[٣] ومن هنا فقد رجع القاسمي إلى كثير من كتب التفاسير، وانتقى منها الآراء التي كان يقتنع بصحتها، حتى جمع كتابه الواسع «محاسن التأويل»[٤].

أما في الحديث الشريف فإنه كان ينهى عن الأخذ بالأحاديث الضعيفة، ولا يتسامح بالاعتماد عليها ولو في مقام الترغيب

---

(١) المرجع السابق، ٥٨.

(٢) انظر مقدمة إصلاح المساجد.

(٣) استانبولي، ٨٠.

(٤) انظر مؤلفاته.

بفضائل الأعمال[١]. وقال: وعلى هذا فلا يجوز الاستشهاد بها، ومن فعل ذلك فعليه أن يشير إلى ضعفها. وكأن من يلجأ إلى الأحاديث الضعيفة يظن الشريعة قاصرة، مع أنّ في الأحاديث الصحيحة ما يغني وكذلك في القرآن الكريم[٢].

ويعجبه في هذا الصدد قول الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: «كل من يروي الأحاديث الضعيفة وهو عارف بها فهو آثم غاش للمسلمين»[٣] وفي رأيه أن خير طريقة لنشر الدين الصحيح بين الناس الانكباب مع الخصم على دراسة كتب السنة الصحيحة والحث على قراءتها، وقراءة سيرة النبي ﷺ[٤].

ولما كان الحديث الشريف لا يعرف إلا بعلم الجرح والتعديل فقد عده القاسمي من أهم العلوم، قال: «إنه باب من أبواب الدين، ولولاه ما أُثبتت صحة هذا الدين العظيم»[٥].

ومثلما تصدى جمال الدين للمنحرفين من الصوفية وأصحاب البدع والأهواء هاجم كذلك الدهريين الذين «كثروا في مصر والهند وأطراف سورية، وأضحوا يبثون شبههم بواسطة كثير من

---

(١) انظر قواعد التحديث، ١٢١ ـ ١٢٤، حيث رجح في هذا الشأن قول الجلال الدواني على قول الشهاب الخفاجي.

(٢) استانبولي، ٨١.

(٣) المرجع السابق. وانظر مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي ص ١٢٣.

(٤) استانبولي، ٢٨، ٨٣.

(٥) المرجع السابق، ٨٣.

المؤلفات الأجنبية والمجلات النصرانية». فَحَجَّهُم في كتابه «دلائل التوحيد»، ونقض كلامهم بكلام الفلاسفة الذي يعولون عليه[1].

والدعوة الإصلاحية التي طلع بها القاسمي كانت ذات أسلوب مميز، ينبع من شخصيته وأخلاقه وصفاته، فهو حين يدعو الناس إلى الله وإقامة الدين يرفق بهم ويتواضع لهم كما رأينا، ولا يقطع صلته بمخالفيه، ولا يتكبر عليهم. وكان يقول: «يجب على المصلح أن يكون واسع الصدر، وألا يكون نفوراً ممن يهجره أو يطعن فيه، بل يتقرب منه ويجذبه بحسن أخلاقه»[2].

وقد مرّ بنا أنه كان يجادل الخصم بالتي هي أحسن ويأتي بالأدلة والبراهين، فإن بدا له أن خصمه ممارٍ مجادل ذو غاية أعرض عنه، وقال: سلام. وكان شعاره دوماً قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]. وحينما ردّ على بعض علماء الشيعة بأدب اضطر الشيعي أن يحترمه لما ردّ عليه بدوره، فقال في كتابه المراجعات: «قال شيخنا القاسمي»[3]؛ ولذلك لم يلق ما لقيه المصلحون والفلاسفة من الإرهاق والمحن والبلايا[4]، ولذلك أيضاً التف حول دعوته شباب الجيل المثقف المتنور[5]

---

(١) انظر مؤلفاته.

(٢) استانبولي، ٨٠.

(٣) المرجع السابق ٣٩، ولقد عدت إلى كتاب المراجعات لشهاب الدين الموسوي فلم أقع فيه على ما أشار الاستانبولي، ولعله في بعض طبعاته.

(٤) استانبولي ٤٨.

(٥) ظافر، ٩٢.

الذين كانت الأحوال العامة تسوءهم ويريدون الانطلاق والتحرر والتقدم.

ولئن كان كذلك مع خصومه فقد كان مع طلابه يدربهم على استعمال الحجج والبراهين، ويسمح لهم أن يخالفوه دون أدنى حرج، ويقول لهم إذا لم يقتنعوا برأيه: لكم رأيكم ولي رأيي[١].

وكان القاسمي دؤوباً في دعوته لا يثنيه عن بيان مذهبه وفكره شيء، ولا يرده عما يعزم ويشرع من الإصلاح أمر[٢]. وقد جاهد من أجل نصرة دينه وتطهيره من الأوهام والبدع ورواسب عهود الانحطاط دون أن يعرف للراحة طعماً ولا للهدوء معنى[٣] وبالطريقة اللطيفة التي ذكرناها، ولقي في سبيل ذلك إعراضاً وعنتاً من الناس وازدراءً من خصومه الذين أخذوا يشيعون عنه الأقاويل ويفتئتون عليه ويتهمونه بالإحداث في الدين[٤]، وقد صور حاله معهم وما يجده منهم بقوله: «إن العالم لما أخذ الله عليه الصدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن لا يخاف في الله لومة لائم كان معرّضاً من أعداء أنفسهم وعبيد أهوائهم للشنآن والنبز بالألقاب، فتراهم إن وجدوه يميل للنظر في الأدلة

---

(١) انظر ذلك في الفصل الثالث عند الحديث عن صفتات القاسمي ودروسه.

(٢) استانبولي، ١٧.

(٣) المرجع السابق، ١٢، ٩٤.

(٤) المرجع السابق، ٢٧.

على الأحكام والوقوف على مآخذ المذاهب والأقوال وتحري الأقوم والأصلح دون تعصب لإمام ولا تحزب لآخر نبزوه بالاجتهاد وسموه مجتهداً تهكماً، مع أنه بذلك لم يقم إلا بواجبه. وإن أبصروا ميله لعلوم الحكمة والرياضيات وتشويقه لاقتطاف ثمارها سموه طبيعياً. وإن رأوا حثه على البذل والإنفاق في سبيل الله ودعواه الموسرين للعطف على البؤساء لقبوه اشتراكياً..»[١] وليس غريباً بعد هذا أن يقول عن جماعة آذوه وعادوه لاختلافهم معه في الرأي: «كثير من الناس بصورة البشر، ولكنهم في الحقيقة أفاعٍ وحشرات سامة»[٢].

ومع هذا فكان كلما ناله أذى من أعداء الإصلاح زاد قوة ونشاطاً ودعاية وكتابة، جاعلاً همه الأعظم أن يجمع بين الدين والعلم الصحيح، ويبث بين الناس فكرة تآخيهما[٣]. وكان مع صبره على الخصوم يجابهم طلباً للحق ودفعاً للباطل قائلاً: «ينبغي الرد على الخصم مهما كانت دعواه سخيفة، ومصداق هذا من القرآن الكريم الذي ينقل قول اليهود ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤][٤].

وكانت مجابهته مع خصومه تقوم على العقل الذي عدّه جوهر

---

(١) الفتوى في الإسلام، ٦٦.
(٢) استانبولي، ٨٢.
(٣) استانبولي، ١٧.
(٤) استانبولي، ٨٢.

دعوته الإصلاحية ومحورها، ومن أجل ذلك كان خصومه غالباً من أصحاب الخرافات ومن الجامدين من الشيوخ كما أشرنا إلى ذلك[1]. وكان يرى تصرفات هؤلاء فظيعة جداً «لأنهم يلغون عقولهم، ويحيلون كثيراً من الأمور في مؤلفاتهم القليلة التي يتطفلون على جمعها إلى أرباب الكشف والفتح.. أو يقولون عن أمر أعجزهم: إن ذلك تعبدي محض لا يعقل له معنى، ولا يمكن أن يكشفه أحد.. إلى غير ذلك من الإحالات على المجهولات، والإياس من النظر وإعمال الفكر، والاقتناع بما كُتب فيه أو حُقِّق»[2]. وقد مر معنا أنه بلغ من تمام عنايته بالعقل تشجيعه طلابه على الاستماع للعلماء والاتصال بهم والأخذ عنهم والاستفادة منهم وخاصة أصحاب الاستنباط والاجتهاد على شرط أن يلقوا وراء ظهورهم ما لا يصح من الأفكار بعد مناقشتها[3].

وإيمان القاسمي بالعقل وبالحرية الفكرية إيمان يجري في حدود ما أباح الله وما دعا إليه، فالعقل في نظره «حجة الله القاطعة، والنقل لا يأتي بما يعارض العقل، وإن العلماء اتفقوا على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُوّل النقل بالعقل، وإنّ غلَّ الفكرِ عن النظر والتأمل هو أعظم هادم لصرح التحقيق، فإن الحقيقة بنت البحث، وإن الحق ليس منحصراً في قول ولا مذهب.

(١) انظر ذلك في الفصل الرابع المتصل بعلاقات القاسمي.

(٢) ظافر، ٢٧٨.

(٣) استانبولي، ٨٤.

وقد أنعم الله على الأمة بكثرة مجتهديها، وليس الغرض من الإصلاح العلمي بالاجتهاد القيام بمذهب خاص والدعوة له على انفراده، وإنما المراد إنهاض همم رواد العلم لتعرف المسائل بأدلتها، وإننا في الرأي مستقلون ولسنا بمقلدين ولا متحزبين»[1].

وبديهي أن تكون إذن دعوة القاسمي هي دعوة للأخذ بالعلم، شأنها في ذلك شأن دعوات المصلحين. ولسنا نريد أن نكرر هنا ما قلناه عن اهتمامه بالعلوم جميعاً[2]، وأنه كان يعزو سبب تأخر المسلمين إلى تركهم العلوم الكونية والدنيوية. ولذلك رأى بعض الباحثين أن القاسمي كان مقبولاً من المتنورين العصريين الذين لم يمجوه أبداً[3].

ولم يقتصر في دعوته للأخذ بالعلم على جنس دون جنس، بل قال بضرورة تعليم المرأة في زمن كان الناس لا يهتمون بها، ولا يولونها عناية. ورأى وجوب تأليف كتب خاصة للنساء لترقيتهن وتفقيههن في العلم والدين[4]. ونوى مرة أن يجمع مسنداً للنساء خاصة، لا يذكر فيه إلا ما أخرجه الشيخان وأصحاب

---

(١) دلائل التوحيد ٣١، ١٢٩؛ الأجوبة المرضية، ٦؛ الاستئناس ٤٤؛ إرشاد الخلق ٤؛ الجرح والتعديل ١٤.

(٢) انظر الفصل المتصل بعلاقات القاسمي.

(٣) استانبولي، ٤٩.

(٤) ظافر، ٣٣١.

السنن، ولا يزيد عن مروياتهم الصحيحة شيئاً»[1] لينتفع به العلم والنساء.

ودعوته فوق هذا دعوة تمتاز بالهدوء كما قلنا، وتعتصم بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان لا يفاجىء أحداً بما يكره، ويأتي الخصم من حيث لا يشعر حتى يقنعه برأيه. قال تلميذه وقريبه حامد التقي: «كنت في أول عشرته مخالفاً له في مشربه، وقد وصل بي التعصب عليه أنني إذا اضطررت إلى الصلاة وراءه ورفع يديه في الانتقالات أعدت صلاتي منفرداً، فأدرك ذلك مني وأخذ يناقشني بهدوء حتى اقتنعت بأفكاره وأخذت أنشرها. فلما رآني غلوت بالطعن على المبتدعة قال: خفف هذه الوطأة، وتذكر أنك كنت منهم. واشكر الله تعالى، وقل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]»[2].

وكان هذا الهدوء ينقلب إلى غضب إذا قامت عليه جولات الباطل، هنالك يصوب ألسنة البراهين نحو نحور الشبهات[3].

ولقد أدت دعوة القاسمي إلى انسجامه مع العصر الذي كان فيه، وتكيف معه، بحيث أخرج فتاوى لمواجهة المشكلات التي أخذت تنجم يوماً بعد يوم، والتي وقف الفقهاء أمامها حائرين، فبحث عن المخرج لها معتمداً على أصول الدين وفق قواعد الأئمة التي اعتمدوها.. فأسعفه هنا اهتمامه بأصول الفقه على جميع

---

(١) المرجع السابق، ٢٩٨.

(٢) استانبولي، ٢٨.

(٣) الفضل المبين ٢٢، محاسن التأويل ١/ ٥.

المذاهب وإخراجه مجموعة متون فيها. فأفتى بالاعتماد على خبر البرق في إثبات شهر رمضان مع إنكار كثير من العلماء له[1] كما أفتى بتوسيع مصارف الزكاة لتشمل الإنفاق على طلاب العلم استناداً إلى فهمه الواسع لقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠] الذي لا يقتصر على الجهاد فقط[2].

وقد وسّع القاسمي ما ضيقه الفقهاء، فكان يقول: «قد أخطأ من قال: إنّ آيات الأحكام خمسمئة، فإنه يمكن أن يستنبط من الأوامر والنواهي والقصص وضرب الأمثال وغير ذلك ما لا يحصى من الأحكام»[3]، من أجل ذلك عني بتعداد أصول الأدلة، فأوصلها إلى عدد عظيم جداً في شروحه على كتب الأصول[4].

فعل ذلك كله ليخدم فكرته التي تقول: «إن الشريعة الإسلامية جاءت بالسير مع مصالح البشر، ناهيك عن المفاسد» مستنداً في ذلك إلى الحديث الشريف: «لا ضرر ولا ضرار»[5] الذي استنتج

---

(١) ظافر، ٢٨٦، وانظر كتابه المذكور.
(٢) ظافر، ٣٠٤ ـ ٣٠٧، ٦١١ ـ ٦١٣.
(٣) استانبولي، ٥٨.
(٤) المرجع السابق، ٢٩.
(٥) أخرجه الموطأ ٢/ ٧٤٥ مرسلاً في الأقضية، ورواه أيضاً ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت وفيه انقطاع، ومن حديث ابن عباس وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف. ورواه الدارقطني والحاكم والبيهقي، تفرد به عثمان عن الدراوردي. وخرجه الطبراني من وجهين ضعيفين عن عائشة وجابر رضي الله عنهما. وخرجه الدارقطني من حديث أبي =

منه الطوفي أن الدين يسير مع المصالح وجوداً وعدماً[1].. فلا ضير إذن بما عند الفقهاء كلهم بما يفيد المسلمين.

ولذلك فقد أوصى طلابه قائلاً: إذا جاءكم عامي مستفتياً في مسألة فأفتوه بالحق الذي ترونه أصح ما يكون، من أي مذهب كان. ولكنه مع هذا يوصي بالتحرز من العامة المجادلين الممارين الذين لا ينفع فيهم إلا إحالتهم إلى المفتي الرسمي[2].

ولئن كان بعض أهل العلم يسرعون في الفتوى فإن القاسمي كان يدعو فيها إلى التحري والدقة والضبط، لأنه كان شديد التحري ذا طبيعة علمية، لا يسوقها هوى أو يفسد صحتها تعصب، يسعى إلى الحقيقة دون تقليد ولا جمود، وعلى هذا كان منهجه الذي أوصى طلابه من خلاله بقوله «فارق وهد التقليد إلى يفاع الاستبصار، وتسنم أوج التحقيق في مطالع الأنظار، والبس التقوى شعاراً والإنصاف دثاراً، واجعل طلب الحق لك نحلة، والاعتراف به لأهله ملة، ولا ترد مشرع العصبية، ولا تأنف من الإذعان إذا لاح وجه القضية أنفة ذوي النفوس العصية، فذلك مرعى لسوامها وبيل، وصدود عن سواء السبيل»[3].

= هريرة. قال النووي في الأربعين: وله طرق يقوي بعضها بعضاً. وهو كما قال (جامع الأصول في أحاديث الرسول ٦/ ٦٤٤).

(١) استانبولي، ٢٨، وانظر الرسالة المذكورة.

(٢) ظافر، ٢٧٤.

(٣) الفضل المبين ٢٢، محاسن التأويل ١/ ٦

وكانت الدعوة التي يحملها القاسمي شغله الشاغل وهمه الدائم، ولذلك فكان إذا حضر مجلساً مهما يكن طرح فيه بحوثاً مما يصلح الأمة. ونبه الحاضرين لأهم الموضوعات التي يجب الاهتمام بها، ولو كان المجلس مجلس عوام[1].

وكان من أسلوب دعوته أنه إذا أراد صرف الناس عن عقيدة فاسدة أو بدعة فاشية، لجأ إلى التحذير منها بالنقل عن عالم موثوق عندهم. ومثال هذا أنه حينما ذكر وجوب الأخذ بالكتاب والسنة وترك التقليد أخذ من قول محيي الدين بن عربي: «ولا يجوز عندنا تقليد حي ولا ميت»، وقوله أيضاً: «ولا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام. ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً وخرج عن دين الله»[2].

وكان من أسلوب دعوته كذلك التنبيه على فساد المضلين والإشارة إليهم بأعيانهم ليعرف الناس الحق من الباطل، فنراه يقول في هذا: «كثير من الناس يلومون المصلحين إذا تحدثوا عن بعض الشخصيات المبتدعة حية كانت أم ميتة، ظانين أن هذا الصنيع مغيبة منهي عنها.. وهذا من الخطأ الواضح، فإنه لا بد من ذكر المسيء لدينه إذا وجدت المصلحة. وقد ذم القرآن الكريم

---

(١) استانبولي، ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ٢٩. وانظر مجموعة المتون.

كثيراً من المضللين والمفسدين بذكر أسمائهم وأوصافهم، كما ذم الموالين لهم»[1].

وإذا كان خصوم القاسمي قد جابهوه بعنف كما يبدو فلأنه كان ينال منهم في الصميم، وقد يكون الحسد مدعاة لقيام بعضهم ضده. إلا أننا فيما نعلم لم يردوا عليه رداً علمياً إلا فيما ندر، ولم نقع في المراجع والمصادر التي بين أيدينا إلا على ردّ محمد عارف المنير على رسالته في البرق[2]. وبعد وفاته انتقد محمد كردعلي كتابه قواعد التحديث بعد أن كان يمتدحه في حياته ويتردد عليه[3].

وأخيراً.. فإن دعوة القاسمي كانت دعوة موجهة إلى الشباب الذين التفوا حوله.. وهؤلاء هم الذين شجعهم القاسمي كل التشجيع وحثهم على الأخذ بمبادئه، لأنه رأى أنه التجديد والدعوة إليه قل أن يفيد إلا بهم، وفي هذا الصدد يستشهد بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] وبالسنة الشريفة في تولية النبي ﷺ أسامة بن زيد على رأس جيش الشام[4].

---

(١) استانبولي ٨٣.

(٢) مجلة الحقائق، السنة الأولى، ج٦/ ٢١١ ـ ٢١٦.

(٣) انظر مجلة الرسالة، السنة الثالثة، ص ١٠٧٩. وانظر ما قاله ظافر، ص ٤٠٥ ـ ٤١٧.

(٤) استانبولي، ٨٤.

وبعـــد:

فهذا هو مجمل دعوة القاسمي في منطلقاتها الأساسية التي نرى فيها تصحيح المسار وتنقية العقيدة من الشوائب والعادات من الزيغ والعودة بالدين إلى صفائه ونقائه واستعماله في الحياة اليومية من أجل تحقيق السعادة الدينية والدنيوية. ولعل هناك تفصيلات أخر تنصب كلها فيما ذكرنا من الخطوط العريضة.

ونورد هنا نبذة من أقوال جمال الدين القاسمي، تمثل فكره ودعوته كما وردت في مفكراته[1].

* القدر الذي يجب الإيمان به لا ينطوي على شيء يميت العزم أو يخمده، إذ هو ليس إلا مجرد الحكم العام الذي يحوم طائره على جميع النواحي.

* الترتيب فضيلة تحمل صاحبها على العمل بما رتبه لنفسه والاهتمام، وهي تنشط النفوس وتريح البال، ويكون صاحبها مستجمعاً لفكرته محافظاً على وقته.

* الحق يُصرع إذا عُمد إلى إظهاره بالسباب والشتائم.

* من أراد من حياته صفاء لا يشوبه كدر وسعادة لا يخالطها شقاء فليعش في عالم غير هذا العالم، وليطلب حياة غير هذه الحياة ذات نظام غير هذا النظام وسنة غير هذه السنن إن استطاع إليها سبيلا.

---

(١) ورد جانب من مفكراته في كتاب ابنه ظافر ٣٤٢ ـ ٣٦٨.

* العاقل لا ينتصر لرأيه الذاتي ولا يصر عليه، بل يعتبره خاطراً سنح له، فربما كان صواباً أو خطأً.

* الفتور في المجاهدة يؤدي إلى تقوية القوى الحيوانية وتضعيف القوى الروحانية.

* لا يستقيم حال الأمة ولا تثبت على أساس مكين ما لم يتفق الكبراء بعضهم مع بعض، ويتصافوا مع الذين دونهم، ويفصلوا كل خلاف وخصومة بالتحكيم.

* كم من حكمة مبتدعة سقيمة دَكّت سنّة قويمة.

* أحكام الباطل مؤقتة، لا ثبات لها في ذاتها، وإنما بقاؤها في نوم الحق عنها، وحكم الحق هو الثابت لذاته، فلا يُغلب أنصاره ما داموا معتصمين به.

* من هم أقل منك معرفة وأدنى درجة ينبغي أن لا تكثر معهم اللجاجة، ولا تخالطهم إلا بقدر الحاجة، فإن المخالطة تؤثر، والطبع سراق، والنظر إلى الصور يطبع في الناظر ما ينعكس عليه منها، فالناظر إلى المحزون يحزن، وإلى المسرور يسر، وهكذا.

* التبذير في أشرف الأغراض قصد واعتدال.

* التقليد جذام فشا بين الناس، وأخذ يفتك فيهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي، يوقع الإنسان في الخمول والكسل.

* قلوب الأكثرية ملتاثة بمرض التأسي، فهم يعتقدون الأمر، ثم يطلبون عليه الدليل، ولا يريدونه إلا موافقاً لما يعتقدون، فإن

جاءهم بما يخالف ما اعتقدوه نبذوه، ولجوا في مقاومته، وإن أدى بذلك إلى جحد العقل برمته، فأكثرهم يعتقد فيستدل. وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد.

* الوقت الذي تمضيه في أداء الواجبات الاجتماعية ليس بوقت ضائع؛ لأن حب الغير ومعاونته والعمل على نشر العلم وتقليل وطأة الفاقة، كلها دلائل المدنية الحق التي تزيد في السعادة.

* الوقت من أسمى مواهب الخالق التي لا يمكن استعادتها متى فاتت، فلا تتصرف فيه بما يؤسفك على فواته. والوقت أمانة عندك، تُسأل عن التصرف فيه.

* من يضيّع وقته إنما يفقد أكثر مما يضيّع من دراهمه.

* ساعات المطالعة أسعد أوقات الحياة، وما يطلب من السرور في غيرها هو ظل ما يستخلص من لذيذ مسراتها.

* من طرق تنوير الفكر وتهذيب النفس أن يعتني الإنسان بفحص كل الأمور صغيرها وكبيرها، وألا تثني عزمه أية صعوبة، وأن لا يقبل فكرة من أية سلطة كانت إلا بعد فحص دقيق وانتقاد إنكاري حق بحيث لا تفوت فكرة سفسطة أو عدم ارتباط أو خلط في الأفكار.

* من ضاق علمه أنكر ما لا علم له به. وقد عاب الله تعالى هذا فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

* كل من ارتشى ذهبت منه الحمية، وبرد دمه في عروقه،

فيبيت مولعاً بالمال، ويحصل فيه الفتور فيما يتعلق بالمهام والأعمال فينتج الشقاء.

* كل ما أبطله برهان ضروري فليس بحق.

* الإسلام دين الفطرة والاستقلال والعلم، ويمشي مع الترقي حيث مشى.

* تعلُّم اللغة الأجنبية يوصل إلى معرفة ما هو جار من الأعمال العظيمة في العالم، ويساعد مجاوري ذويها على الحياة القومية.

* لا يتمكن شعب من الشعوب من السعي في خير وطنه إلا بتكاتف أعضائه ونبذ التحاسد.

* ما أقبح الجمود الذي ينتهي بصاحبه إلى جهل يظنه علماً، ويفرقه عن علم يخاله جهلاً.

* أحزم الحَزَمة لا يستغني عن عظة الإخوان، كما أن أعتق الجياد لا يستغني عن ركض الفرسان.

* من جالس صاحب صناعة حذقها، ومن طال استماعه الحكم نطقها، ونعم المعلم الحوار، ونعم الرسول الأسماع والأبصار.

* التحامل سلاح العاجز عن البرهان، المقر على نفسه بالقصور عن مصادمة الحق بالحق.

إن من الفضيلة أن يتعرف المرء عيوبه من إخوانه فيزيلها،

ويستبدل بها خيراً منها. والكمال غاية ليس من العار على من لم يبلغها أن يسترشد إليها، وإنما العار على من لا يريدها ويرضى بالوقوف دون مرتبتها.

* العاقل يأبى أن يطري قومه ما داموا بحاجة إلى الكمال، لئلا يؤدي بهم الإطراء إلى الاغترار بالنفس.

* الذكاء كالشرارة الكامنة في الزناد، لا تظهر إلا بالقدح، فإذا لم تحتك الأفكار بالعلوم مات ذلك النشاط والذكاء في مكامنه وانزوى في زوايا الصدور.

* لكلمة حق في الانتقاد على أخلاقنا خير عند العقلاء من ألف كلمة في إطرائنا، إذ تلك تعرفنا عيوبنا فنتجنبها، وهذه تنسيناها فندأب عليها.

* عدم تقدم الكثيرين هو من عدم محاولتهم التقدم.

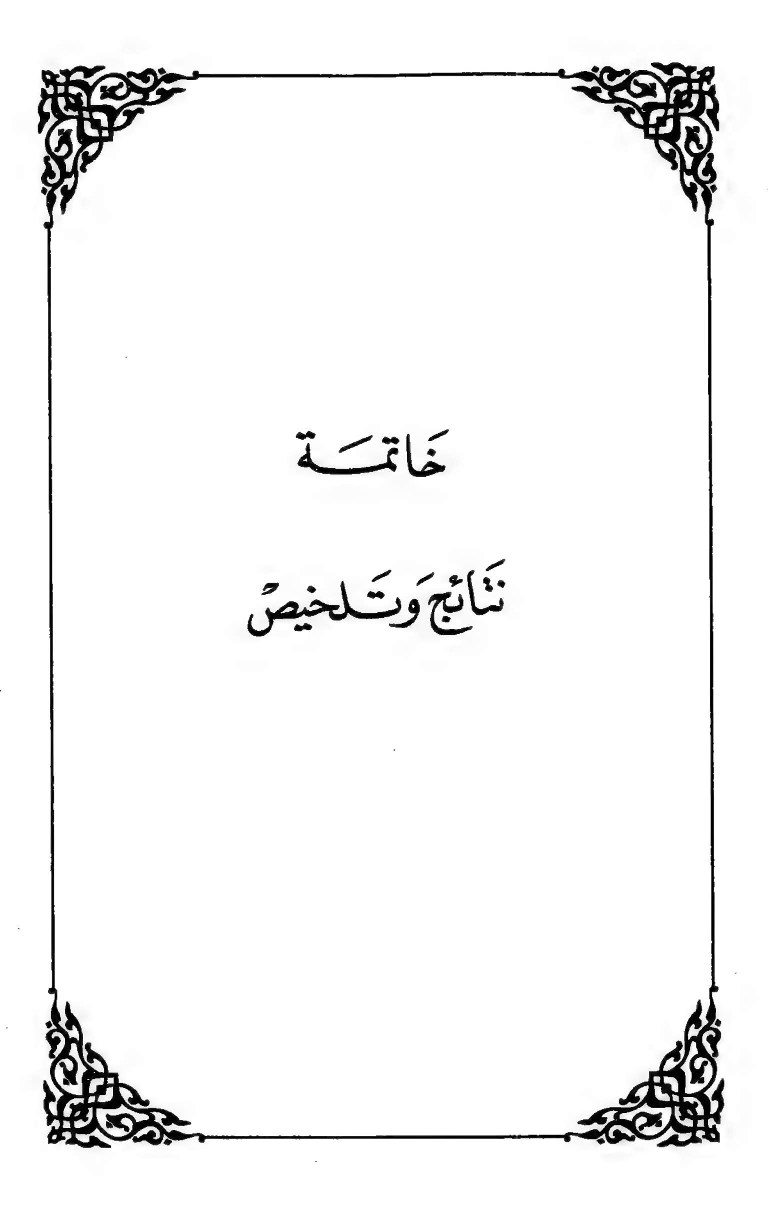
* الكسل والخمول وحشو الذهن بالخرافات هي طريق الشر.

* المكسال شيخ في شبابه، لأن دقيقة البطالة أطول من ساعة العمل.

* العقل حجة الله القاطعة البالغة.

* إنّ كتاباً يطبع خير من ألف داعية وخطيب؛ لأن الكتاب يقرؤه الموافق والمخالف.

* * *



خَاتِمَة

نَتَائِج وَتَلخِيص

خاتمة

نتائج وتلخيص

بعد هذا الاستعراض لمجمل حياة القاسمي والبيئة التي نشأ فيها، والدعوة التي دعا إليها، والأفكار التي طرحها، والآثار التي تركها... يمكن أن نقول عن الرجل إنه كان أحد رجالات الإصلاح المتميزين. برز في زمن جمد فيه كثير من أهل العلم على قوالب فقهية معينة، في فروع لا يتعدّونها، ولا يريدون أن يخرجوا عليها، رغم تطور الزمن، ورغم قدرة الإسلام العظيمة على التطور وإيجاد الحلول العملية المناسبة لكل مشكلة جديدة. كما طلع في زمنه كثير من المتصوفة ببدع وأضاليل أضرَّت بالدين، وقعدت بوظيفته الحقيقية الأساسية، وشوهت وجهه النيّر، في الوقت الذي أخذ الغرب يدهش العالم بمبتكراته الجديدة وعلومه الحديثة.. ولذلك حارب القاسمي كل ما أضر بالدين، ودعا إلى العودة للأصول الصحيحة؛ الكتاب الكريم والسنّة المطهرة.. وفتح باب الاجتهاد وعدم الجمود على أقوال الفقهاء؛ لبيان أن

الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان، ولتخليص الإسلام مما علق به من شوائب.

تأثر القاسمي بفكر أحمد بن تيمية وتلميذه ابن القيم تأثراً عن بصيرة؛ يأخذ منهما ما يراه صالحاً ويناقشهما فيما سوى ذلك.

ولعله اقتنع كذلك بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي شايع أفكاره كثير من المصلحين من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وخير الدين التونسي وصديق حسن خان (في بهوبال) وأمير علي (في كلكته) وغيرهم.

ولم يكن القاسمي ليقلّ عن هؤلاء في مكانته وتأثيره إذا ما عرفنا النقلة التي حدثت بدمشق وما حولها من جراء بثه لأفكاره.. خصوصاً وأنه يُعدّ رائد هذه الدعوة إلى الشام بعد أن انقطعت بموت ابن القيم. ولم يمت القاسمي حتى تسلمها طلابه من بعده ـ وعلى رأسهم محمد بهجة البيطار ـ فخدموها حتى اتصلت إلى اليوم.

ولكننا حين نقول هذا لا ننسى الشيخ عبد الرزاق البيطار، فهو صنوه وعديله، وربما يعد بمكانة شيخه، إلا أن عبد الرزاق لم يؤثر فيمن حوله التأثير الذي كان للقاسمي، ولم يترك من المؤلفات مثلما ترك، ولم يكن له طلاب مثلما كان له، ولم يكن في أول أمره ولا في وسطه على النهج الذي آل إليه فيما بعد نهج القاسمي.

وكانت دعوة القاسمي ـ على خلاف طريقة شيوخ عصره في

بلده ـ منفتحة منطلقة، فلم يكن يعتزل الناس، وإنما كان يتفاعل معهم ومع الأحداث، يتلقف أخبار ما يجري.. يهتم بالسياسة والفكر الشرقي والغربي. هذا بالإضافة إلى نشره للدعوة وفق خط واضح يجتهد في تثبيته، متطلعاً نحو المستقبل من خلال العقل النير الواعي الذي يناقش القضايا بموضوعية دون وصاية عليه من أحد ولا تأثير من اتجاه.. ومن خلال العلم الصحيح المرتكز على الأساسيات، المعتمد على الفكر الحر.

ولم يقم أسلوب الدعوة عند القاسمي على العنف.. ما كان كالأفغاني في شدته ومجابهته، ولا كابن تيمية في هجومه وحدته.. ولا كبعض السلفيين المحدثين الذين يستسهلون اليوم تكفير المسلمين لأقلّ سبب، ويتشددون ويثيرون الخصومات في كثير من البلاد، وينتقدون الناس ويقسمونهم إلى قسمين سلفيين أو مشركين وبدعيين، مما أخذ يؤدي إلى التفرقة وبلبلة الصفوف في الوقت الذي نحتاج فيه إلى الألفة والوحدة... أما القاسمي فكان يأخذ نفسه بالروية ويأمر بها، ويجنح إلى الهدوء واحتواء الخصم من غير تعصب ولا غلو.. إن رأى عاصفة هوجاء قامت عليه ابتعد عنها حتى تهدأ، فإن سكنت راح يستأنف أمره ويتابع نشاطه. ومن أجل ذلك كان كالجدول الصافي يتتابع بهدوء بين الصخور والشعاب حتى يجد طريقه إلى السهل المطمئن.. ولا يظهر أثره في الحياة إلا فيما بعد.. ومن أجل ذلك أيضاً لم يتعرض لما تعرض إليه كثير من الدعاة والمصلحين من سَجْنٍ ونَفْيٍ وتشريد.

ولقد خالفت دعوته السلفيين في عدد من القضايا؛ فغير

ما ذكرنا من مسألة التكفير نذكر موقفه من البدع؛ فهو يقسمها إلى قسمين؛ منكرة يحاربها، ومستحسنة لا يرى بأساً في الأخذ بها مع بيان علة الأخذ، ما دامت لا تضر بأصل من أصول الدين، ولم يرد فيها نهي أو تحذير.

ولذلك كان صاحب دعوة معتدلاً بناها كما رأينا على الفكر والعقل والمنطق والأخذ بالأصلح، فلم ينفر منه إلا المتزمتون والمتعصبون والجهلة والمعاندون والمغرضون.. والتف حوله كل من احترم العلم وآمن به وجعل الحقيقة غايته.

وعظمة القاسمي تبدو بالقياس إلى أحواله في زمانه؛ فقد قام يدعو إلى الله منطلقاً من ذاته وانفراده أولاً دون معين من نصير، ودون سند من مال، بالإضافة إلى كثرة خصومه وشغبهم عليه واستعانتهم بالمتظاهرين معهم من العامة والمتعاونين معهم من الدولة التي تألبت عليه هي الأخرى. ومع ذلك فقد أسس مدرسة متميزة للدين والدنيا معاً، لم يكن بالشام ما يشبهها، وإن عاضده فيها عبد الرزاق البيطار وطاهر الجزائري وبعض من كانوا على شاكلتهما.

ولئن كانت الأفكار التي دعا إليها القاسمي بنظر الناس اليوم أو بعضهم عادية وهي من المفاهيم الأساسية في الدين الصحيح فإنها كانت مستهجنة عند كثير من معاصريه، الذين كانوا يرونه يسبح ضد التيار الجاري والجارف.

وأخيراً.. فهل يمكن أن نعدّ القاسمي من مجددي العصر؟

وإذا كان الجواب على هذا السؤال فيه شيء من الصعوبة فإننا نستطيع أن نقول إنه أسهم ولا شك في الدعوة إلى التجديد إسهاماً ذا خطر.. ولكننا لا نستطيع أن نسميه شيخ الشام كما صنع بعض الباحثين المتأخرين الذي سماه كذلك ناسياً أن شيوخاً في دمشق لزمنه من أصحاب العلم الذي يعتد به دان لهم جانب كبير من النهضة العلمية التي قامت في بلاد الشام بهمة الشيخ بكري العطار وسليم العطار وبدر الدين الحسني الذين يمكن أن نعدهم شيوخ الشيوخ.. لأنّ بهم تخرج غالب علماء وقتهم وكان لهم أثرهم الواضح في نشر العلم والأسوة الحسنة إلى جانب ذلك.

وبعد:

فأرجو أن أكون وفقت في دراسة محمد جمال الدين القاسمي وعرضتها كما ينبغي لتجلية جوانب شخصيته بوصفه عَلَماً من أعلام المسلمين.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً يا رب العالمين. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

كان الفراغ من مسوداته يوم المولد النبوي الشريف عام ١٤١٧هـ الموافق للسابع والعشرين من يوليو/تموز ١٩٩٦م. والحمد لله رب العالمين.

* * *

ثَبَت

بأهم المصَادر والمَراجع
مَنسوقَة عَلى حروف المعجَم
وَقد أسقطت منها كتب القَاسِمي
لأنني ذكرتهَا مفصّلة
في الفصل المتعلّق بآثَاره

أ ـ الكتب

* إتحاف ذوي العناية، محمد العربي العزوزي، بيروت، ١٩٥٠
* الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٩٠
* أعلام الأدب والفن، أدهم آل جندي، دمشق، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨
* الأعلام الشرقية في المئة الرابعة الهجرية (١ ـ ٣)، زكي مجاهد، مصر، ١٣٦٨ ـ ١٣٧٤
* أعلام العراق، محمد بهجة الأثري، مصر؛ المطبعة السلفية، ١٣٤٥
* أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أحمد تيمور، القاهرة.
* أعيان دمشق، محمد جميل الشطي، دمشق، ١٩٧٢
* إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل البغدادي، استانبول، ١٣٦٤ ـ ١٣٦٦
* البداية والنهاية في التاريخ (١ ـ ١٤)، ابن كثير، مصر، ١٣٥١ ـ ١٣٥٨
* بدع التفاسير، عبد الله الغماري، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط٢، ١٤٠٦
* تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده (١ ـ ٣)، محمد رشيد رضا، القاهرة: مطبعة المنار، ١٩٣١

* تاريخ حسن آغا العبد، تحقيق يوسف نعيسة، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٩
* تاريخ سورية أواخر الحكم التركي (١٩٠٨ ـ ١٩١٨)، علي سلطان، دمشق، ١٩٩١
* تاريخ الصحافة السورية في العهد العثماني، شمس الدين الرفاعي، مصر: دار المعارف، ١٩٦٩
* تاريخ الطباعة في الشرق العربي، خليل صابات، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨
* تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (١ ـ ٣)، محمد مطيع الحافظ ونزار أباظه، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦
* تراجم المؤلفين التونسيين (١ ـ ٥)، محمد محفوظ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦
* جامع الأصول في أحاديث الرسول (١ ـ ١٥)، محمد بن الأثير الجزري، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣/١٤١٢
* الجامع الأموي، علي الطنطاوي، دمشق، ط٢، ١٩٦٢
* جامع التصانيف الحديثة، يوسف إليان سركيس، القاهرة: مكتبة يوسف إليان سركيس وأولاده، ١٩٢٧
* جامع التصانيف المصرية الحديثة من ١٣٠١ إلى ١٣١٠، عبد الله الأنصاري، مصر، ١٣١٢
* جمال الدين القاسمي وعصره، ظافر القاسمي، دمشق: مكتبة أطلس، ١٣٨٥
* حريق الجامع الأموي وبناؤه (١٣١١ ـ ١٣٢٠): نصوص

ووثائق للقاسمي وواصف وكردعلي والعظمي، محمد مطيع الحافظ، الكويت: مكتبة دار العروبة، ١٤٠٩

* حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (١ ـ ٢)، جلال الدين السيوطي، مصر، ١٢٩٩

* حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (١ ـ ٣)، عبد الرزاق البيطار، دمشق: مجمع اللغة العربية ١٣٨٠/ ١٣٨٢

* حوادث دمشق اليومية: ١١٥٤ ـ ١١٧٥هـ، أحمد البديري الحلاق، محمد سعيد القاسمي، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: الجمعية المصرية، ١٩٥٩

* الخطط التوفيقية الجديدة (١ ـ ٢٠)، علي مبارك، مصر، ١٣٠٤ ـ ١٣٠٦

* خطط الشام (١ ـ ٦)، محمد كردعلي، بيروت، ط٢، ١٣٨٩

* خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١ ـ ٤)، محمد بن فضل الله المحبي، مصر، ١٢٨٤

* الدكتور صلاح الدين القاسمي: آثاره، صفحات من تاريخ النهضة العربية في أوائل القرن العشرين، تقديم وتحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٧٩

* دمشق في مطلع القرن العشرين، أحمد حلمي العلاف، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٦

* الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، نعمان القساطلي، بيروت، ١٨٧٩

* رواد النهضة الحديثة، مارون عبود، بيروت، ١٩٥٢

* ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، شهاب الدين الخفاجي، مصر، ١٢٧٣
* السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، محمد سعيد رمضان البوطي، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٨
* سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١ ـ ٤)، محمد خليل المرادي، مصر، ١٣٠١
* سورية في القرن التاسع عشر (١٨٤٠ ـ ١٨٧٦)، عبد الكريم غرايبة، القاهرة: معهد الدراسات ١٩٦١ ـ ١٩٦٢
* شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد محمد مخلوف، مصر، ١٣٤٩
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي العكري، بعناية حسام الدين القدسي، القاهرة، ١٣٥٠ ـ ١٣٥١
* شيخ الشام جمال الدين القاسمي، محمود مهدي الاستانبولي، بيروت ودمشق: المكتب الإسلامي ١٤٠٥
* الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، القاهرة: معهد البحوث والدراسات، ١٩٧١
* الصحافة السورية في مائة عام، جوزيف إلياس
* الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١ ـ ١٢)، محمد عبد الرحمن السخاوي، مصر، ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥
* عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١ ـ ٤) (تاريخ الجبرتي)، عبد الرحمن الجبرتي، مصر، ١٢٩٧
* عرف البشام فيمن ولي فتوى الشام، محمد خليل المرادي، تحقيق

محمد مطيع الحافظ ورياض مراد، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٩

* علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري (١ ـ ٢)، محمد مطيع الحافظ ونزار أباظه، بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ١٤١٢
* غاية النهاية في طبقات القراء (١ ـ ٢) (طبقات القراء)، شمس الدين ابن الجزري، مصر، ١٣٥١
* الفكر العربي في العصر الحديث، منير موسى، بيروت، ١٩٧٣
* فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات (١ ـ ٣)، محمد عبد الحي الكتاني، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الغرب، ط٢، ١٤٠٢
* قاموس الصناعات الشامية، محمد سعيد القاسمي وجمال الدين القاسمي وخليل العظم، تحقيق ظافر القاسمي، دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨
* قصة النقود السورية، عبد الرحمن عطار، دمشق، ١٩٩٠
* كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (١ ـ ٢)، إسماعيل العجلوني، تصحيح وتعليق أحمد الفلاش، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣
* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١ ـ ٢)، مصطفى حاجي خليفة كاتب جلبي، استانبول، ١٣٦٠
* الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، محمد نجم الدين الغزي، عناية جبرائيل جبور، بيروت

* لطف السمر وقطف الثمر، محمد نجم الدين الغزي، تحقيق محمود الشيخ، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٢
* محمد بهجة البيطار: حياته وآثاره، عدنان الخطيب، دمشق، ١٩٧٦
* مدونة الصحافة العربية، يوسف خوري، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٥
* المذكرات (١ ـ ٤)، محمد كردعلي، دمشق، ١٣٦٧ ـ ١٣٧٠
* مذكرات البارودي، فخري البارودي، دمشق، ١٩٥٢
* مصادر الدراسة الأدبية، يوسف أسعد داغر، بيروت، ١٩٥٦
* معالم وأعلام في بلاد العرب، أحمد قدامة، دمشق، ١٩٦٥
* معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب (١ ـ ٢)، عبد الحفيظ الفاسي، فاس، ١٣٥٠
* معجم المؤرخين الدمشقيين، صلاح الدين المنجد، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨
* معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف إليان سركيس، مصر، مكتبة الثقافة الدينية
* معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٥٧
* معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، عبد القادر عياش، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥
* مكتب عنبر: صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية، ظافر القاسمي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٤

* منتخبات التواريخ لدمشق (١ ـ ٣)، محمد أديب تقي الدين الحصني، دمشق: المطبعة الحديثة ١٣٤٦/ ١١٥٣
* من هو في سورية، ج١، الوكالة العربية للنشر والدعاية، دمشق، ١٩٤٩، ج٢، مكتب الدراسات السورية والعربية، دمشق ١٩٥١
* نظم العقيان في أعيان الأعيان، جلال الدين السيوطي، نيويورك ١٩٢٧
* النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل (٩٠١ ـ ١٢٠٧هـ)، محمد كمال الدين الغزي، تحقيق محمد مطيع الحافظ ونزار أباظه، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٢
* نقد الطالب لزغل المناصب، محمد بن طولون الصالحي، تحقيق محمد دهمان وخالد ودهمان، مراجعة نزار أباظه، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٢
* النور والنار في مكتب عنبر، مطيع المرابط، دمشق، ١٩٩١
* هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١ ـ ٢)، إسماعيل البغدادي، استانبول، ١٩٥١/ ١٩٥٥
* الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد الشنقيطي، مصر، ١٣٢٩
* ولاة دمشق في العصر العثماني، صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٩

* * *

ب ـ الدوريـــات

* آفاق الثقافة والتراث (مركز جمع الماجد للثقافة والتراث ـ دبي)
* المجلة التاريخية المصرية (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة) التمدن الإسلامي
* (جمعية التمدن الإسلامي ـ دمشق)
* الحقائق (عبد القادر الإسكندراني ـ دمشق)
* الرسالة (أحمد حسن الزيات ـ القاهرة)
* الزهراء (محب الدين الخطيب ـ القاهرة)
* العربي (وزارة الأعلام ـ الكويت)
* العرفان (أحمد عارف الزين ـ صيدا)
* لغة العرب (الأب أنستاس الكرملي ـ البصرة)
* مجلة المجمع العلمي العربي (المجمع العلمي العربي [مجمع اللغة العربية اليوم] ـ دمشق)
* المشرق (الأب لويس شيخو ـ بيروت)
* المقتبس (جريدة) (محمد كردعلي ـ دمشق) ١٧/ ١٢/ ١٩٠٨
* المقتبس (محمد كردعلي ـ دمشق والقاهرة) ٢٥/ ٢/ ١٩٠٦
* المنار (محمد رشيد رضا ـ القاهرة)
* النبراس (مصطفى الغلاييني ـ بيروت)

ج - مراجع ومصادر أخرى

* فهرس مكتبة الشيخ محمد بهجة البيطار
* (محفوظ في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي)
* فهرس مكتبة ظافر القاسمي
(نسخة على الآلة الكاتبة ـ محفوظ في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي)
* مشافهة الشيخ أحمد القاسمي
* نشرة الجمعية الدولية للعلوم التاريخية (نبذة عن ظافر القاسمي) بيروت، ١٩٨٤
* وثائق مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي
* وثائق مركز الوثائق التاريخية ـ دمشق
* وثائق مكتبة الشيخ محمد بهجة البيطار (محفوظة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي)

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

إنّ من يقرأ سيرة جمال الدين القاسمي يعرف أنه كان أحد أعلام الإصلاح في الشام، فقد سبق معاصريه من العلماء، فأعلن دعوةً تحمل أفكاراً نيّرة من أجل النهوض بالمجتمع الذي ران عليه الجمود والتأخر بسبب بُعْده عن فهم الدين فهماً صحيحاً.

كان القاسمي سلفيَّ الرأي، لكنه لم يخرج بسلفيته إلى الشَّطَط والعنف، وإنما احترم جميع المسلمين؛ فأجلّ خاصتهم وعَذَر عامتهم.. أخذ عن الأئمة الأربعة، واحترم علماء التصوُّف الكبار، وكان هدفه من كل ذلك الاستفادة من جهود أهل العلم، والأخذ بكل رأي صحيح يفيد الناس ويعلو بالمجتمع.

ومع أن القاسمي كان يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة المستندتين إلى القرآن الكريم والسنة، فقد لقي عَنَتاً ممَّن حَوْله، واجهه برضىً وصبر، وربَّى طلاباً تابعوا الطريق من بعده.

إذا عرفنا أن القاسمي مات ولم يصل إلى الخمسين، وأنه ترك مؤلفات جاوزت المئة؛ أجلّها تفسيره للقرآن الكريم في سبعة عشر مجلداً، وأنه كان كثير العيال فقير الحال، وأنه عاش في زمن الجواسيس والرقابة والتهديد.. أدركنا مَنِ الرجل مِنْ بين العظماء.

وهذا الكتاب من «سلسلة أعلام المسلمين» يمتاز بالتوثيق، كما يمتاز بالتحليل الدقيق لهذه الشخصيّة الفذّة ومَنْ حولها، أضف إلى ذلك تسليط الضوء على معظم جوانب ذاك العصر الحافل؛ كلُّ ذلك جاء بأسلوبٍ رصين، ولغةٍ سلسلة، وكلمات مضيئه؛ خطَّتها يراع كاتبٍ ضليع، أراد أن يكشف لأبناء جِلْدته عن الجوانب الساطعة في سيرة أحد أعلامها في العصر الحديث؛ علَّهم يقتفوا خُطاه، ويتأسّوا بسيرته، وينتفعوا بآثاره.

الناشر